
كتابي
٤١
اعترافات
جان جاك روسو
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية



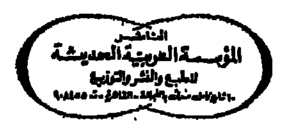


يصدره : حلمي مراد

مطبوعات كتابي

اعترافات جان جاك روسو

الجزء الثالث



كتابى

إصدار جديد

يصدره حلمى مراد

●●●

كتب دورية للقصة والثقافة الرفيعة ..

● مختارات كتابى : باقة منتقاة متجانسة لأروع الكتب العالمية .

● مطبوعات كتابى : الترجمة الأمينة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية.

● روايات كتابى : ترجمة أحدث الروايات العالمية المعاصرة

●●●

شعار كتابى



مصباح الفكر عند الإغريق

●●●

ريشة

الأستاذ/ إسماعيل دياب

●●●

إشراف

الأستاذ/ حمدى مصطفى

●●●

المكاتبات

هيئة التحرير : حلمى مراد : ١٨ شارع العباسيين ــ مصر الجديدة ت ٦٧٥١٢٦٠ ــ ٢٩١٤٤٤٩

الناشر : المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة ت : ٨٢٦٦٢٨٠ - ٨٢٦٦٧٤٧

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقى الفجالة ــ ٤ شارع الإسحاق بمنشية البكرى بروكسى مصر الجديدة ــ القاهرة : ت : ٨٢٦٦٢٨٠ ــ ٩٠٨٤٥٥ ــ ٢٥٨٦١٩٧ ج.م.ع



اعترافات
جان جاك روسو

الجزء الثالث



موجز ما جاء فى الجزءين الأول والثانى

ولدت فى (جنيف) ، فى سنة ١٧١٢ ، لأب كان يعمل فى صناعة الســـاعات ، ولأم توفيت عنـــد مولدى . وبدلا من أن يكرهنى أبى لذلك ، فإنه أسرف فى حبه لى ، لأننى كنت شديد الشبه بأمى .

تنبه إحساسى قبل أن يتنبه فكرى . ثم عمـد أبى إلى اسلوب خطر ، إذ أشركنى فى قراءة الروايات والكتب الدسمة .

اضطر ابى إلى أن يهجر (جنيف) عقب مشـــاجرة بينه وبين عسكرى فرنسى ، كادت تلقى به إلى السجن دون مبرر قانونى . فبقيت فى كنف خالى « برنار » ، الذى كان متزوجا من عمتى ، والذى ارسلنى مع ابنه إلى (بوسى) لنقيم فى رعاية القس البروتستانتى « لامبرسييه » ، ولنتلقى العلم على يديه ويدى أخته . وكانت الآنسة « لامبرسييه » تولينى حنان الأم ، ولكن عقابها إياى نبه المشاعر الحسية والشهوانية فى كيانى !

على أثر عقاب ظالم ، لذنب لم ارتكبه ، كرهت الظـــلم ، وولت طمأنينة طفولتى .. والحقنى خالى بمكتب موثق للعقود ، على أمل أن أشق طريقى فى المحاماة ـــ فيما بعد ـــ ولكنى لم استسغ هذا العمل .

قـــرر خالى أن من مصلحتى أن أتعلم حـــرفة ، فألحقنى كصبى ـــ أو تلميذ صانع ـــ لدى حفار كان ينقش على المعادن . وهناك اختلطت بالعمال الذين كانوا يكبروننى سنا ، فتعلمت

السرقة، لا سيما وأن معلمى كان يقسو على بالعقاب والحرمان. ومع ذلك فاننى لم أكن أسرق حبا فى المال أو الحيازة .. وإلى جانب هذا ، اشتد شغفى بالقراءة حتى أصبح تهوسا .

واضطرتنى قسوة معلمى ، ونفورى من خياناتى هذه ، إلى الهرب من (جنيف) .. وانتهى بى المطاف إلى سيدة محسنة فى (انيسى) ، كان ملك سردينيا قد خصها بمعاش ، لأنها اعتنقت الكاثوليكية .. تلك هى « مدام دى فاران » التى أشفقت على، وأرسلتنى إلى دير نبذت فيه عقيدتى البروتستانتية ، وأصبحت كاثوليكيا .

واستطبت بعد ذلك حياة الترحال ، وعانيت الفاقة والمتاعب . ثم انتهيت إلى العودة إلى السيدة دى فاران ، التى رحبت بى ، وأنزلتنى من نفسها منزلة الابن ، وأفردت لى غرفة فى دارها ، وراحت تنفق على تعليمى الموسيقى ، رغم تضاؤل مواردها .. وتعلقت بهذه السيدة تعلقا ملك على كل حواسى وعقلى .. وبمرور الأيام صرت أدعوها « ماما » !

وكانت هذه الحياة أبهج من أن تدوم . فقد أوفدتنى « ماما » مرة لأعاون السيد « لوميتر » ، الذى كان رئيسا لفرقة الموسيقى بكنيسة (انيسى) ، والذى اختلف مع بعض رهبان الكنيسة فشاء أن يفر من وجوههم .. وقد رافقته إلى (ليون) ، حيث أخذت تعاوده نوبات الصرع ، لفرط إسرافه فى الشراب ، ففررت منه فى إحدى هذه النوبات ، وعدت إلى (انيسى) .. وإذا بى أفاجأ بأن « ماما » قد رحلت فى بعض شئونها ، ولم أدر لها مقصدا أو مقرا !

وأقمت فترة مع « فينتور » ، وهو شاب كنت أعرفه من قبل، وكان يزعم أنه موسيقى موهوب. وكان لبقا، أنيقا، مرحا، يستهوى النساء . وفى تلك الأثناء ، كان أبى قد تزوج من امرأة على شىء من الدهاء والقول المعسول، وشغل عنى بأولاده منها.

وانتهى بى المطاف إلى (لوزان) ، حيث رحت أتكسب عيشى بتدريس الموسيقى ، باذلا جهدى ــ فى الوقت ذاته ــ إلى تنمية معرفتى بها . وحاولت إذ ذاك أن أكون ملحنا ، دون ما إلمام كاف بأصول التلحين ، فمنى لحنى الأول بفشل ذريع ، جعلنى أعيش فى حزن وهوان لفترة من الوقت .

ولم أكف طيلة هذه الأحــداث عن الحنين إلى « ماما » ، لا لحاجتى المادية فحسب ، وإنما لحاجتى القلبية قبل كل شىء! .. ومع ذلك ، فإن تعلقى بها ــ رغم ما كان عليه من تأجج وقوة ــ لم يكن ليحول بينى وبين أن أحب غيرها . ولكن ، على غير شاكلة حبى لها !

وقدر لى أن أذهب إلى باريس ، ولكننى لم ألق فيها الحظ الذى كانت تصــوره لى أحلامى . على أننى ظفرت هناك بنبأ جعلنى أنطلق من جديد بحثا عن السيدة دى « فاران ». وهكذا أخذت أجوب الأقاليم على غير هدى ، متعرضــا للتشرد ، والتضور جوعا ، والنوم فى الطرقات .. حتى عرفت أخيرا أن « ماما » الحبيبة قد استقرت فى (شامبيرى) ، فخففت إليها .. وما كان أحلاه من لقاء !

واســتطاعت « ماما » أن تحصــل لى على منصــب فى

« المساحة » ، فبدأت أكسب عيشى بعمل مشرف ! .. وكانت هذه خير خاتمة لباكورة صباى !

وأقمت فى دار « ماما » ، ولكنها لم تكن فى بهاء دارها الأخرى فى (انيسى) ، إذ كانت موارد «ماما» فى تضاؤل ، وكانت أمورها مضطربة . وفى هذه الحياة الجديدة ، اكتشفت أن «ماما» كانت على علاقة بخادمها الوفى « كلود آنيه » . وكان شابا لا يكبرنى بكثير ، ولكنه كان رزينا وقورا ، غدا منى بمثابة المربى . ومع أننى لم أنج من الألم ، إذ أدركت أن ثمة من استطاع أن يعيش مع «ماما» فى مودة تفوق مودتى كثيرا ، إلا أن وفائى للسيدة امتد إلى الشاب، فقد كنت راغبا فى سعادتها هى قبل شىء!

وانصرفت إلى الموسيقى ــ فى تلك الأثناء ــ فى استغراق ملك على حواسى ، وحملنى على أن استقيل من عملى فى «المساحة» ، وأن أستعين على الحياة بتدريس هذا الفن . وقادنى هذا إلى المجتمع الراقى، وإلى دور ذوى الجاه والثراء. وبقدر ما تعرضت للمغازلات من فتيات ونساء هذا الوسط ، فإن سذاجتى ــ التى ذهبت إلى درجة الغباء ــ كانت تفوت على الفرص . إلى أن أحست « ماما » بأن إحدى السيدات كانت توشك أن توقعنى فى أحابيلها، فأشفقت على من مخاطر شبابى، ورأت أن تنقذنى منها بأغرب طريقة خطرت لامرأة فى مثل ظروفها .. بأن تمنحنى نفسها !

وأخذت « ماما » تروى عطشى إلى النساء من معينها .. على أن العلاقة البدنية لم تفسد شيئا من براءة علاقاتنا العاطفية والروحية والفكرية ، كما أنها لم تؤثر على علاقة كل منا

بخادمها وعشيقها « كلود آنيه » ، بل قامت بين «ثلاثتنا» زمالة قد لا يكون لها مثيل على الأرض ! . . وما لبث « آنيه » أن مات ـ وهو فى ريعان شبابه ـ فحللت محله فى تدبير شئون «ماما» وماليتها . ولاحظت أن مواردها كانت فى نضوب ، فأخذت أعمل جاهدا على أن أجنبها هاوية الافلاس .

وانتهى بى التفكير إلى وجوب الحصـول على عمل ، كى أعول من دخله « ماما » إذا ألمت بها الفاقة . وفى سبيل ذلك رأيت أن أتعلم التلحين ، فكان هذا الاتجاه عاملا جـديدا على تبديد مواردها المتضائلة ! . . وكذلك شرعت فى تأليف الأغانى.

وقضيت عامين أو ثلاثة بين الموسيقى ، ومجالسة الحكام وذوى الجاه، والرحلات . . وما لبثت صحتى أن أخذت تتداعى، وغلبنى الاكتئاب والأسى والتشاؤم ، فنصح لى الطبيب بأن أقيم فى الريف . وسرعان ما استأجرت « ماما » منزلا ذا حديقـة وبستان ، فى ضيعة (شارميت) . وهناك ، نعمت بأهنأ فترة فى حياتى . . مع « ماما » !

ولكنه كان هناء قصير الأجل . . ففى تلك الأثناء ، شعرت بضعف فى القلب ، وضيق فى التنفس ، وطنين فى الأذنين، وتراخ فى حيويتى ، مما أوحى إلى بأن عمرى لن يطول ، فرأيت أن استمتع بما تبقى منه أعظم استمتاع . وأقبلت على دراسـة العلوم والآداب ، كما أكثرت من الأسفار ، أنشد علاجا لعللى.

وفى إحدى هذه الأسفار ، التقيت بالسيدة دى « لارناج » وكانت تكبرنى فى السن كثيرا ، ولكنها راحت تعمل على إغوائى،

حتى إذا رأت ما كان الخجل والتردد يخلقانه من قيود تشل إقبالى عليهــا ، لم تتورع عن أن تكون هى البــادئة بالعناق والتقبيل . وأصبحت عشيقتى خلال الرحلة . ولو أننى عشت مائة عام ، لما استطعت أن أفكر قط فى هذه المرأة الفاتنة دون أن يطغى السرور على ! .. كانت متعتى مع « ماما » مشوبة بالأسى والضيق .. أما مع السيدة دى لارناج، فقد كنت فخورا برجولتى ، مزهوا بسعادتى .

وكانت صدمة لى أن عدت إلى « ماما » ، فوجدت أن شابا قد حل محلى أثناء غيابى .. وكان شابا جاهلا ، مغرورا ، استطاع أن يفرض على « ماما » سلطانه ، فلم أستطع أن أطيق بقاء إلى جوارها ، وقررت أن أهجر الدار ، وأن أرحل إلى باريس ، لأعرض على « الأكاديمية » طريقة ابتكرتها لتسجيل « النوتة » الموسيقية بالأرقام بدلا من العلامات .

الكتاب الثانى

وصلت إلى باريس فى خريف سنة ١٧٤١ .. واستطاع بعض من حملت إليهم خطابات للتوصية ، أن يمكننى من التقدم إلى « الأكاديمية » برسالتى التى قدر لى أن يناقشنى فيها علماء لم يكن بينهم من له إلمام كاف بالموسيقى ، فانتهوا إلى الحكم بعدم صلاحية طريقتى . وبدلا من أن أستسلم للقنوط ، أسلمت نفسى للخمول وللقدر ، ورحت أقتر على نفسى لأفيد بما تبقى من مواردى المتضائلة .

والآن .. تعال نتابع « روسو » وهو يشق طريقه إلى قمة المجد فى المجتمع الباريسى .

ولقد كانت السكينة ، واللذة ، والثقة التى استسلمت بها لهـذه الحياة الخاملة المنعزلة ـ بالرغم من أننى لم أكن امتلك موارد تمكننى من أن أستمر فيهـا ثلاثة أشهر ـ من الصفات الفذة فى حياتى ، ومن الظواهر العجيبة فى طباعى ! .. كانت الحاجة البالغة إلى أن أجد من يعنى بى ، هى عين الشيء الذى جردنى من الجرأة على أن أظهر بين الناس .. كما أن الضرورة التى كانت تدعونى إلى زيارة الناس ، جعلت الزيارات أمرا لا أطيقه ، حتى أننى كففت عن زيارة أعضاء المحفل أنفسهم وغيرهم من رجال الأدب ، الذين قد تعرفت إليهم . وأصبح « ماريفو » والراهب دى « مابلى » و « فونتنيل » هم الوحيدون ـ تقريبا ـ الذين ظللت أزور دورهم فى بعض الأحايين . كذلك أطلعت أولهم على مسرحيتي الهزلية «نارسيس» فراقت له، وتكرم بأن ادخل عليها بعض التنقيح !.. وكان « ديدرو » يصغرهم كثيرا فى السن، فقد كان يقاربنى عمرا . وكان مولعا بالموسيقى، ملما بنظرياتها ، ومن ثم فاننا كنا نتحدث عنها ، كما أنه كان يحدثنى عن مشروعاته الأدبية ، فخلق هذا بيننا رابطة من الود القوى دامت خمس عشرة سنة ، وكان من المحتمل أن تدوم زمنا أطول ، لو أننى لم أدفع دفعا ـ لسوء الحظ ـ إلى مهنته ذاتها .. وكان هو صاحب الذنب فى ذلك !

ولن يمكن تصور الطريقة التى استغللت فيها هـذه الفترة القصيرة ، الثمينة ، التى سبقت اضـطرارى إلى أن اتسول قوتى !.. فلقد حفظت عن ظهر قلب أجزاء من الشعر كنت قد درستها قبل ذلك مائة مرة ونسيتها . واعتدت أن أتمشى كل صباح ـ فى حـوالى السـاعة العاشرة ـ فى حـدائق

(لوكسمبورج) ، حاملا « فيرجيل » أو « روسو » فى جيبى (١)، وأروح أردد فى ذهنى — حتى موعد الغداء — أحد الأناشيد القدسية ، أو أحد أناشيد الرعاة ، دون أن يثبط من عزيمتى أننى كنت واثقا من أننى لن ألبث — إذ أردد الجزء الذى اخترته ليومى — أن أنسى الجزء الذى حفظته بالأمس .. وتذكرت أن الأسرى الاثينيين — بعد هزيمة « نيسياس » فى (سيراكيوز) — (٢) كانوا يستمدون قوتهم من ترديد أشعار « هوميروس » . ولقد كان الدرس الذى استخلصته من هذه، كى أعد نفسى للفاقة ، هو أن أروض ذاكرتى البديعة على حفظ جميع الأشعار عن ظهر قلب !

***

وكانت لدى طريقة مبتكرة مكينة أخرى فى الشطرنج ، الذى كنت أكرس له بانتظام فترة ما بعد الظهر — من الأيام التى لم أكن أذهب فيها إلى المسرح — فى مقهى « موجى » . وقد تعرفت هناك إلى السيد دى « ليجال » ، وإلى سيد يدعى « هوسون » ، وإلى « فيليدور » ، وإلى جميع لاعبى الشطرنج الكبار فى ذلك العهد ، دون أن أحرز مزيدا من التقدم فى اللعب . على أننى لم أكن ارتاب فى أننى لن ألبث أن أغدو فى النهاية أقوى منهم جميعا ، وكان هذا — فى رأيى — كافيا

---

(١) يقصد ديوانى الشاعرين « فيرجيل » و « جان باتيست روسو » .

(٢) كان نيسياس من أشهر القادة الاغريق الذين برزوا فى حروب البلوبونيز ، وقد هزم وهلك فى حملة صقلية فى سنة ٤١٣ قبل الميلاد .

لأن يمدنى بمورد للعيش . وكنت كلما استهوتنى فكرة طائشة جديدة ، رحت أتدبرها بنفس الطريقة دائما .. كنت أقول لنفسى : « ان الذى يبرز فى شىء ، يطمئن دائما إلى انه منشود . فلنبرز إذن ، فى أى شىء ، وإذ ذاك أغدو مرغوبا .. إن الفرص سانحة ، وعلى كفاءتى يتوقف ما بقى من الأمر ! » .. ولم يكن هذا التفكير الصبيانى وليد سفسطتى ، وإنما كان نتاج كسلى . فقد كنت فى جزعى من الجهود الضخمة السريعة التى كانت خليقة بأن ترهقنى ، أسعى إلى أن أزين كسلى لنفسى ، وإلى أن أدارى خجلى من نفسى بحجج ملائمة !

وهكذا مكثت ساكنا إلى أن انتهت نقودى . وأعتقد أننى كنت على استعداد لأن أقبع حتى آخر « سو » لدى ، دون أى قلق ، لو لم يوقظنى الأب « كاستيل » ـــ الذى كنت أذهب لزيارته أحيانا ، وأنا فى طريقى إلى المقهى ـــ من سباتى . ولقد كان الأب « كاستيل » مخبولا ، ولكنه كان ـــ برغم هذا ـــ رجلا طيبا . وقد غاظه أن رآنى أبدد وقتى وامكانياتى بهذا الشكل، دون أن أفعل شيئا . فقال لى : « ما دام الموسيقيون ، وما د العلماء ، يأبون أن يغنوابطريقتك ، فعدل من أوتارك ، وجر النساء ، ولعلك تكون ـــ فى هذه الناحية ـــ أكثر توفيقا !.. لقد تحدثت عنك إلى السيدة دى « بوزينفال » ، فاذهب لزيارتها ، واذكر أنك قادم من لدنى !.. انها امرأة طيبة ، يسرها أن ترى شخصا من موطن زوجها وابنها (١) ، ولسوف

---

(١) كانت البارونة دى بوزنيفال بولندية متزوجة من فرنسى .

تلتقى فى دارها بابنتها السيدة دى « بروجلى » ، وهى امرأة زكيــة .. وهناك السيدة « دوبان » ، وهى الأخــرى ممن حدثتهن عنك ، فاحمل اليها مؤلفك ، لأنها تتوق إلى رؤيته ، وسوف تحسن استقبالك ! .. إن المرء لا يســتطيع أن يبرم عملا فى (باريس) إلا بوساطة النساء ، فهن كالمنحنيات ، التى يكون الحكماء بمثابة الخطوط التقاربية (١) لها .. فالفريقان يتقاربان باستمرار ، ولكنهما لا يتماسان أبدا ! » .

وبعد أن أرجأت هاتين المهمتين المتعبتين من يوم إلى آخر ، استجمعت أخيرا شجاعتى، وذهبت لزيارة السيدة «بوزينفال»، فأكرمت وفادتى ، وإذ دخلت السيدة دى « بروجلى » الغرفة، بادرتها قائلة : « ها هو ذا ، يا ابنتى ، السـيد روســو الذى حدثنا عنه الأب كاستيل ! » . فأطرت الســيدة دى بروجلى مؤلفى ، وقادتنى إلى معزفها ، لتريني أنها كانت معنية به . ووجدت أن الساعة قد شارفت الواحدة ، فأردت الانصراف ، غير أن السيدة دى بوزينفــال قالت لى : « انك على مسافة بعيدة من مسكنك ، فامكث ، وتناول غداءك هنا » . ولم أكن بحاجة إلى إلحاح .. وبعد ربع ساعة ، أدركت أن المائدة التى دعتنى إليها كانت مائدة الخدم !.. فقــد كانت السيدة دى بوزينفال طيبة ، ولكنها كانت ضيقة الأفق ، شديدة الاعتداد بعراقة أصلها البولندى ، وليست لديها فكرة تذكر عن الاحترام

---

(١) الخط التقاربى ــ أو التقريبى ــ فى الهندســة ، هو خط مســتقيم يطابق المنحنى تطابقا لا نهائيا .. أى انهما يتقاربان دائما دون أن يتماسا !

الواجب للمواهب . وقد حكمت على ـ فى هـذه المناسبة ـ بمسلكى أكثر منها بملبسى الذى كان ـ برغم بساطته المتناهية ـ لائقا كل اللياقة ، ولا ينم قط عن رجل يؤاكل الخدم .. لا سيما واننى كنت قد نسيت الطريق إلى مائدة الخدم من زمن طويل ، ولم أكن راغبا فى أن أتعلمها من جديد (١) .. وقلت للسيدة دى بوزينفال ـ دون أن أبدى غضبى ـ اننى تذكرت أن لا بد لى من العودة إلى مسكنى لمهمة بسيطة . فاقتربت مدام دى بروجلى من امها ، وهمست فى أذنها ببضع كلمات كان لها تأثير سريع ، إذ نهضت مدام دى بوزينفال لتستبقينى قائلة : « اننى أقصد أن يكون تشريفك إيانا بالغداء .. معنا ! » . ورأيت أن التشبث بالكرامة عمل أخرق ، فمكثت . وإلى جانب ذلك ، كان لطف السيدة دى بروجلى قد ملك قلبى ، وجعلنى ارتاح إليها ، فكنت جد مغتبط بتناول الغداء معها . وداخلنى الأمل فى أنها لن تندم ـ إذا ما عرفتنى جيدا ـ على أنها أولتنى هذا الكرم . ولقد تناول الغداء هناك أيضا ، السيد رئيس (لاموانيون) ، وهو من أعظم أصدقاء الأسرة ، وكان ـ كالسيدة دى بروجلى ـ يألف اللهجة الباريسية الموجزة ، التى تتألف من كلمات صغيرة ، كلها كنايات بسيطة رفيعة .. ولم يكن لجان جاك البائس مجال للتألق فى هذا المضمار ! .. وكنت من حسن الادراك بحيث اننى لم اشأ

---

(١) يعنى « روسو » انه كان قد نسى معاشرة الخدم وارتفع فوق مستواهم ولعلنا نذكر ـ مما جاء فى الجزء الأول ـ انه عمل خادما فترة من الزمن .

أن أتظرف بالرغم من « منيرفا » (١) ، فأمسكت لسانى !.. ما كان أسعدنى لو أننى كنت دائما بهـذه الحكمة ؟.. لقد كنت بهذا جديرا بالا أتردى فى الدرك الذى أجدنى اليوم فيه !

ولقد استأت لما بدوت عليه من ثقل الفهم ، ولعجزى من أن أبرر ـ فى نظر السيدة دى بروجلى ـ ما فعلته هى من أجلى. لذلك لجأت ـ بعد الغداء ـ إلى موردى المعهود . فقد كانت فى جيبى رسالة شعرية ، كتبتها إلى « بريسو » أثناء مقـامى فى (ليون) ، ولم تكن الحرارة تعوز هذه القصـاصة ، فعمدت إلى قراءتها ، واستطعت أن أحمل ثلاثتهم على البكاء . ولقد خيل إلى ـ سواء عن غرور ، أو عن صدق فى تأويلاتى ـ أننى رأيت عينى السيدة دى بروجلى تقولان بنظراتهمـا لأمهـا : « ما رأيك يا ماما ؟!.. أفكنت على خطأ إذ قلت لك إن هـذا الرجل كان أكثر جـدارة بأن يتناول غـداءه معنـا منه مع وصيفاتك ؟ » .. وكنت حتى تلك اللحظـة مثقـل القلب ، ولكننى شعرت بالرضى بعد أن ثأرت لنفسى على هذا النحو . ولقد تمادت السيدة دى بروجلى قليلا فى الرأى الطيب الذى داخلها نحوى ، معتقدة أننى لن ألبث أن أثير ضجة فى (باريس)، وأن أغدو ذا حظوة لدى النساء . ولكى ترشدنى فى هذا المجال الذى كنت غير خبير به ، أعطتنى « مذكرات الكونت ... » ، قائلة : « ان هذا الكتاب مرشـد ستحتاج إليه فى المجتمع ،

---

(١) مينرفا ربة الذكاء والحرب والفنون لدى الرومان . ويشير « روسو » بهذا التعبير الى أنه لم يشأ ان يدعى ما كان بعيدا عن أن يسعفه فيه ذكاؤه

وستحسن صنعا إذا أنت استعنت به بين وقت وآخر ! » .
ولقد احتفظت لأكثر من عشرين عاما ، بهذه النسخة ، معترفا بفضل اليد التى جاءتنى عن طريقها ، وإن كنت كثيرا ما أضحك للرأى الذى لاح أن هذه السيدة قد ارتأته عن مؤهلاتى للظرف والملاطفة . . ومنذ اللحظة التى طالعت فيها هذا الكتاب ، رغبت فى أن أخطب ود صاحبه . وقد حققت الأحداث هذه الرغبة ، فاذا هو الصديق الصادق الوحيد لى بين رجال الادب (١) .

وجرؤت ـ منذ ذلك الحين ـ على أن أطمئن إلى أن السيدة البارونة دى بوزينفال ، والسيدة المركيزة دى بروجلى ـ وقد اهتمتا بأمرى ـ لن تدعانى طويلا بلا مصدر للعيش . ولم أخطىء الحدس ! . . فلنتكلم الآن عن دخولى دار السيدة « دوبان » ، الذى كانت عواقبه أطول مدى وأجلا !

* * *

كانت السيدة « دوبان » ـ كما هو معروف ـ ابنة صمويل برنار ، والسيدة فونتين . . وكن ثلاث أخوات ، من الممكن أن يدعين بالحسان الثلاث : السيدة ديلا توش ـ التى فرت إلى انجلترا مع دوق كينجستون ـ والسيدة دارنى ، عشيقة السيد الأمير دى كونتى ، بل ـ بالأحرى ـ صديقته ،

---

(١) عقب « روسو » ـ فى هامش مذكراته ـ على هذا بقوله : « هكذا ظللت أعتقد طويلا ، وعن اقتناع راسخ ، حتى اننى عهدت اليه ـ منذ عودتى الى باريس باعترافاتى . اذ أن جان جاك الحذر المستريب ، لم يؤمن قط بوجود الغدر والخداع ، الا بعد أن وجد نفسه ضحية لهما » .

الصديقة الوحيدة المخلصة ، وكانت امرأة جديرة بأن تعبد ، للطف وطيبة شخصيتها الفاتنة ، بقدر ما هو لذكائها المستحب، والمرح الـذى لم يكن يفارق طباعهـا .. وأخـبرا ، السيدة « دوبان » ، أجمل الثلاث ، والوحيدة منهن التى لم يكن ثمة عوج يعاب عليها فى مسلكها !.. وكانت جزاء كرم ضـيافة السيد دوبان ، إذ أن أمها منحته اياها ، مع منصب « الملتزم العام » (١) وثروة ضخمة ، عـرفانا لحسن حفـاوته بها فى إقليمه !

وكانت ـــ عندما رأيتها لأول مرة ـــ لا تزال من اجمل نساء باريس . وقد استقبلتنى فى غرفة زينتها ، وكانت ذراعاهـا عاريتين ، وشعرها مهوشا ، وثوبها مهدلا .. وكان مثل هذا الاستقبال الأول جـديدا على ، فلم يحتمله رأسى البـائس ، واضطربت ، وارتبكت .. وموجـز القول اننى شغفت هوى بمدام دوبان !

ولم يلح أن اضطرابى قد أحدث أثرا سيئا ، إذ أنها لم تبد ما ينم عن أنها لاحظته . وفى استقبالها للكتاب ولمؤلفه ، راحت تحدثنى عن مشروعى حديث الملمة به .. وغنت ، وصـاحبت غنائها بالعزف ، واستبقتنى للغـداء ، واجلستنى إلى جانبها حول المائدة . وما كان ثمة ما يدير رأسى أكثر من هذا ، فاذا بى أغدو مجنونا بها !.. وسـمحت لى بأن أتردد عليهـا ، فاستغللت ـــ بل أسأت استغلال ـــ هذا السماح ، إذ أصبحت

---

(١) الملتزم العام : هو الموكل بتحصيل الضرائب .

أذهب إلى دارها فى كافة الأيام تقريبا ، وأتناول الغداء هناك مرتين أو ثلاثا فى الأسبوع ، وكنت أموت شوقا إلى مصارحتها بحبى ، ولكننى لم أجسر على ذلك ، فقد ضاعفت من خجلى الطبيعى عدة أسباب .. كان دخول أى بيت من بيوت الأثرياء المرفهين ، بمثابة باب مفتوح للحظ ، فلم أشأ ـ فى موقفى إذ ذاك ـ أن أتعرض لإغلاق هذا الباب . ثم إن السيدة دوبان كانت ـ برغم لطفها ـ رصينة وباردة ، فلم أجد فى مسلكها شيئا مشجعا يثير جرأتى . وكانت دارها متألقة كأية دار أخرى فى باريس ، فى ذلك الحين ، وملتقى جماعات لم يكن ينقصها سوى أن يقل عددها بعض الشىء لكى تغدو نخبة من كل نوع من علية القوم . فلقد كانت السيدة تحب أن ترى جميع المتألقين : من عظماء ، وأدباء ، ونساء جميلات .. وما كان ليرى عندها سوى الدوقات ، والسفراء ، وذوى الأشرطة الزرقاء (١) .. ومن الممكن اعتبار السيدة الأميرة دى روهان ، والسيدة الكونتة دى فوركالكييه ، والسيدة دى ميربوا ، والسيدة دى برينوليه ، والليدى هيرفى ، بين صديقاتها !.. كما أن السيد دى فونتنيل ، والراهب دى سان بيير ، والراهب ساليه ، والسيد دى فورمو ، والسيد دى بيرنى ، والسيد دى بوفون ، والسيد دى فولتير ، كانوا من أفراد ندوتها ومن رواد مائدتها . ولو أن مسلكها المتحفظ لم يجتذب إليها عددا كبيرا من الشباب ، لكانت الجماعة التى اعتادت الاجتماع فى

---

(١) لقب يطلق على فرسان الطيفة المقدس . على أن من المحتمل أن يكون روسو قد استعمله هنا بمعنى : المبرزين من القوم .

دارها ، صفوة مختارة ، وبالتالى اكثر وقارا !.. وما كان لجان جاك البائس أن يزين لنفسه فكرة أن يتألق كثيرا وسط كل هؤلاء!.. لذلك فاننى لم اجسر على أن أفضى للسيدة بعواطفى، ولكنى لم أعد أطيق صمتا ، فجرؤت على الكتابة . وقد احتفظت بالخطاب يومين ، دون ان تذكر لى شيئا عنه . وفى اليوم الثالث ، ردته إلى مع بضع كلمات تأنيب ، قالتها بلهجة باردة تجمد لها دمى !.. وحاولت أن أتكلم ، ولكن الكلمات ماتت على شفتى ، وخبا وجدى الفجائى مع أملى . وبعد هذا الإعلان الكتابى لحبى ، واصلت العيش بقربها كذى قبل ، دون أن أحدثها عن شىء من عواطفى ، ولو بنظرات عينى !

ولقد ظننت أن حماقتى أصبحت منسية ، ولكنى كنت مخطئا !.. وكان السيد دى فرانكويى ، نجل السيد دوبان ، وابن زوج السيدة دوبان (١) ، يقارب السيدة فى السن ، ويقاربنى . وكان لامع الذكاء ، مليح الهيأة ، يحسن الظهور بمظاهر العظمة . ويقال إنه كان مقربا إلى السيدة دوبان ، لا لشىء إلا لأنها زوجته من امرأة شديدة الدمامة ، ولكنها صافية اللطف ، وعاشت معهما فى وئام تام ، وكان السيد دى فرانكويى يحب المواهب ويتكفل بمساعدة أصحابها ، ومن ثم فان الموسيقى ــ التى كان يلم بها إلماما عظيما ــ كانت وسيلة

(١) أى انه كان ثمرة زواج سابق للسيد دوبان . ويلاحظ أن « دى » قبل الاسم ، معناه أن صاحبه يحمل لقبا ، وهذا يبرر عدم حمل « فرانكويى » لاسم دوبان !

ورباطا بيننا .. ولهذا اعتددت أن ألقاه كثيرا ، فتعلقت به . وقد أوعز إلى — فجأة — بأن السيدة دوبان أصبحت ترى أن زياراتى أكثر مما كان ينبغى ، ورجانى أن أكف عنها !.. ولعل هذه الإشارة كانت فى محلها ، لو أنها صدرت عند ما أعادت السيدة الخطاب إلى . أما وقد صدرت بعد ثمانية أيام — أو عشرة — ودون أى سبب آخر ، فقد لاحت لى غير ذات موضوع. ومما زاد الموقف غرابة ، أن هذا لم يضعف الحفاوة — التى كنت أقابل بها فى دار السيد والسيدة دى فرانكويى — عن ذى قبل ! على أننى خففت من ترددى عليهما ، وكنت موشكا أن أقطع زياراتى تماما ، لولا أن السيدة دوبان — مدفوعة بنزوة لم أتبين إذ ذاك حقيقتها — سألتنى أن أعنى ، لثمانية أيام أو عشرة ، بابنها الذى كان إذ ذاك قد فقد مربيه السابق، وكان من المنتظر أن يبقى وحيدا ريثما يصل المربى الجديد . ولقد قضيت هذه الأيام الثمانية فى عذاب ، لم يكن ليجعله محتملا سوى لذة إرضاء السيدة دوبان!.. إذ كان «شينونسو» المسكين (١) قد أصيب بخبل كاد أن يجر الخزى على الأسرة ، وكان سببا فى موته بعد ذلك ، فى جزيرة (بوربون) . ولقد كنت — أثناء وجودى بجواره — أحول بينه وبين أن يؤذى نفسه أو يؤذى غيره . وما كانت هذه المهمة بالسهلة ، كما أننى لم أكن لأتولاها ثمانية أيام أخرى ، ولو منحتنى السيدة دوبان نفسها فى مقابل ذلك !

* * *

---

(١) « شينونسو » هو اسم ابن مدام دوبان .

وأولانى السيد دى فرانكويى صداقته ، فعملت معه ، وبدأنا نتلقى سويا منهجا فى الكيمياء لدى « رويل » . ولكى اكون على مقربة منه ، تركت نزلى ـ « سان كينتان » ـ وانتقلت للاقامة فى « ساحة التنس » بشارع (فرديلينه) ، الذى كان يفضى إلى شارع (بلاتيير) ، حيث يقيم السيد دوبان . وهناك ، نشأ عن إصابتى ببرد أهملته ، أن وقعت فريسة التهاب رئوى كدت أموت منه . وكثيرا ما كنت أصاب فى شبابى بتلك الأمراض الالتهابية : التهابات البلورة (ذات الجنب) ، والتهابات اللوزتين ـ التى كنت ضحية سهلة لها بوجه خاص ـ وغيرها ، مما لا أرانى بحاجة إلى تسجيله هنا ، وكانت جميعا تدفعنى إلى حيث أرى الموت عن كثب كاف لأن آلف شكله ! . وسنح لى الوقت ـ اثناء نقاهتى ـ للتفكير فى حالى ، وللرثاء لجبنى ، وضعفى ، وكسلى الذى كان ـ برغم ما كنت اكتوى به من نار ـ يتركنى أذبل فى خمول ذهنى على أبواب الفاقة !

وكنت فى اليوم السابق لوقوعى فى المرض ، قد ذهبت لمشاهدة « أوبرا » لروبيه كانت تمثل إذ ذاك ، وقد غاب عنى اسمها . وبالرغم من أن تعنتى فى الحكم على مواهب سواى جعلنى دائما لا أطمئن إلى مواهبى ، فاننى لم أستطع أن أكبح نفسى عن ملاحظة أن الموسيقى كانت باردة ، فاقدة الحرارة ، خلوا من الابتكار والتجديد . وكنت أجرؤ ـ فى بعض الأحيان ـ على أن أقول لنفسى : « يخيل إلى أن بوسعى أن أصنع خيرا من هذا » . . بيد أن الفكرة ـ الباعثة على التهيب ـ التى

داخلتنى عن تلحين « الأوبرا » ، والأهميـــة التى كنت أسمع الاخصائيين يخلعونها على مثل هذا العمل ، ثبطت عزيمتى فى الحال ، وجعلتنى أتضرج خجلا لجراتى على التفكير فى ذلك!.. ثم، أين لى بمن يرضى بأن يزودنى بالأقوال اللازمة لأية «أوبرا»، وأن يتجشم عناء تنسيقها وفقا لهواى ؟.. ولقـــد عاودتنى هذه الأفكار عن الموسيقى والأوبرا ، أثناء مرضى ، فرحت ابان هذيانى أنظم الأغانى والثنائيات والأناشيد الجماعية .. وأوقن اننى نظمت قطعتين أو ثلاثا لفورى ـــ وعفو الخـــاطر ـــ ربما كانت جديرة بإعجاب الأساتذة ، لو أنهم سمعوها تؤدى .. ولو تسنى تسجيل أحـــلام امرىء محموم ، فأية أشياء جليلة وعظيمة قد يتيسر استخلاصها احيانا من هذا الهذيان !

ولقد ظلت موضوعات الموسيقى والأوبرا هـــذه ، تشغلنى اثناء نقاهتى ، ولكن فى توارد أكثر هدوءا . وبدافع من التفكير فى ذلك ـــ بل وبالرغم من نفسى ـــ اعتزمت أن أرضى نفسى ، وأن أحاول وضع « أوبرا » ، بكلامها وموسيقاها ، دون معونة من أحد . ولم تكن هذه أول محاولة لى ، إذ كنت قد ألفت فى (شامبيرى) أوبرا ومأساة ـــأوبرا تراجيدى ـــ بعنوان «ايفيس وأنا كساريت » ، وكنت من حسن الإدراك بحيث رميت بهـــا فى النار !.. كما نظمت فى (ليون) أخرى بعنوان « اكتشـــاف الدنيا الجديدة » ، لم ألبث بعد أن قرأتها على السيد «بورد» : والراهب دى « مابلى » ، والراهب « تروبليه » وغيرهم ، أن انتهيت بها إلى عين المصير ، بالرغم من أننى كنت قـــد كتبت

موسيقى المطلع والفصل الأول ، وعندما اطلع « دافيد » على الموسيقى ، أنبأنى بأنها كانت تحتوى على مقاطع تليق ببونونتشينى(١).

وفى هذه المرة ، أتحت لنفسى وقتا للتفكير فى مشروعى ، قبل أن أمد يدى إلى العمل . ورسمت لفكرة مسرحية بطولية راقصة (باليه) ثلاثة موضوعات مختلفة ، فى ثلاثة فصول مستقلة ، لكل منها لون من الموسيقى مغاير لما للآخرين . ونسجت كل منهما حول غراميات أحد الشعراء ، ثم أسميتها « عرائس الشعر اللطاف » (٢) .. وكان الفصل الأول يدور حول « تاس »(٣) ، وقد صيغت موسيقاه فى أسلوب قوى . أما الفصل الثانى ، فكان عن « أوفيد » ، وكانت موسيقاه رقيقة ، فى حين أطلقت على الفصل الثالث اسم « أنا كريون »، وقد روعى فيه أن يفوح بأنفاس الاطراء والمديح !.. وجربت براعتى ـ فى البداية ـ فى الفصل الأول ، فعكفت عليه بحماس

---

(١) اشتهر بهذا الاسم ثلاثة من الموسيقيين الايطاليين ، كانوا أبا وابنيه ، وقد أقام أصغر الابنين ردحا فى انجلترا ، وكان أكثر الثلاثة شهرة .

(٢) Les Muses Galantes

(٣) تاس : هو الشاعر الايطالى توركاتو تاسو ، ويعتبر من أعظم أصحاب ملاحم البطولة . وقد عاش فى القرن السادس عشر . ولهذا اختار « روسو » طابع القوة للفصل الذى نسجه حوله . أما « أوفيد » ، فكان شاعرا لاتينيا ، اقترن اسمه بالحب والهوى ، برغم ما قاساه فى حياته من شجون ومتاعب ، حتى أنه مات منفيا . أما « أنا كريون » ، فكان شاعرا غنائيا تفوح أغانيه بتمجيد اللهو والطعام واللذة .

مكننى ـ للمرة الأولى ـ من أن أتذوق لذائذ توقد القريحة فى التلحين ! .. وفى ذات مساء كنت أهم بدخول دار « الأوبرا »، وإذا بى أجدنى نهبا للأفكار ، وإذا بها تطغى على ، فرددت نقودى إلى جيبى ، وأسرعت إلى غرفتى وأغلقتها على نفسى ، وارتميت على السرير ، بعد أن أحكمت ستائر النافذة لأحول دون تسرب ضـوء النهار .. وهنـاك ، أسلمت نفسى تماما للالهامات الشعرية والموسيقية ، فوضعت بسرعة ، وفى سبع ساعات أو ثمان ، أروع قسم من الفصل !.. وبوسعى أن أقول إن حبى للأميرة دى « فيرارى » ـ إذ اننى كنت « تاس » إذ ذاك ـ ومشاعرى النبيلة المترفعة إزاء أخيها الظالم ، أتاحت لى ـ لليلة واحدة ـ من المتـع ما كان يفوق مائة مرة ، كل ما كنت خليقا بأن أجده بين ذراعى الأميرة نفسها (١) .. ولم يبق فى رأسى ـ فى الصباح ـ سوى قسط بسيط مما نظمته ولحنته ، ولكن هذا الجزء ـ الذى شوهه الاجهـاد والنعاس تقريبا ـ لم يخفق فى أن يكشف عن قوة المقطوعات التى تبقت كالأطلال !

وفى هذه المرة ، لم أمض بعيدا فى هذا المشروع كثيرا ، نظرا لانصرافى إلى الشئون الأخرى . ولم تكن السيدة دى بوزينفال، والسيدة دى بروجلى ـ اللتين ظللت أزورهما من وقت لآخر ـ قد نسيتانى تماما فى غمرة تعلقى بأسرة دوبان . فقد حدث أن عين السيد الكونت دى مونتيجى ـ الذى كان ضـابطا فى

---

(١) كانت الأميرة أجمل نساء عصرها ، وقد تصور « روسو » أنه « تاس » الذى تدله فى هواها ، وثار على مظالم أخيها !

الحرس ـــ سـفيرا فى (فيينا) . وكان مدينـا بسفارته إلى « بارجاك »(١) الذى كان قد ثابر على مصـاجبته . كمـا أن أخاه ـــ الشيفالييه دى مونتيجى ـــ كان « فارس الكم » للسيد ولى العهد(٢) . وقد كان على معرفة بهاتين السـيدتين(٣) ، وبالراهب « آلارى » ـــ عضو المحفل الفرنسى ـــ الذى كنت أزوره ، فى بعض الأحيان ، كذلك . وإذ علمت السـيدة دى بروجلى بأن السفير كان يبحث عن سكرتير ، رشحتنى لديه . وشرعنا نبحث الأمر ، فطلبت خمسين « لوى » كمرتب ، وهو مبلغ كان قليلا بالنسبة لمنصب يتطلب الحرص على المظهر . ولكنه لم يشأ أن يدفع سوى مائة « بيستول »(٤) كما كان على أن أتكفل بنفقات سفرى ، وكان هذا اقتراحا يدعو للضحك ، ومن ثم فلم يقدر لنا أن نتفق ، وفـاز السيد دى فرانكويى ـــ الذى بذل قصارى وسعه ليحول بينى وبين الرحيل ـــ بمأربه، فمكثت بينما رحل السـيد دى « مونتيجى » مصـطحبا معه سكرتيرا آخر يدعى السيد « فولو » ، كانت وزارة الخارجية هى التى رشحته له . ولكنهما لم يكادا يبلغان (فيينا) ، حتى

---

(١) كان بارجاك هو الخادم الخاص للكردينـال دى فلورى ، الذى كان واسع النفوذ لدى الملك .

(٢) فرسان الكم : طائفة من النبلاء كانوا يجمعون بين التدين والبطولة ، وكانوا يتولون رعاية الأمراء الفرنسيين حتى يتموا تعلمهم .

(٣) السيدة دى بوزينفيل وابنتها .

(٤) كان « اللوى » اذ ذاك ٢٤ فرنكا ، و « البيستول » ١٠ فقط .

اختلفا واشتجرا . وإذ رأى « فولو » أنه سيضطر إلى العمل مع رجل مجنون ، هجره هناك ، ولم يعد لدى السيد دى مونتيجى سوى راهب شاب يدعى دى « بينى » ، كان كاتبا تحت إرشاد السكرتير ، ولم يكن فى مركز يؤهله لأن يملأ المنصب . ومن ثم اضطر السفير إلى أن يلجأ إلى مرة أخرى. وقد أفهمنى أخوه « الشيفالييه » ــ الذى كان موفور الذكاء ــ أن ثمة امتيازات معينة تتصل بمنصب السكرتير ، وبهذا أفلح فى أن يغرينى بقبول الألف فرنك(١) .. كما تسلمت عشرين « لوى » لنفقات رحلتى .. فبادرت إلى السفر !

من سنة ١٧٤٣ إلى سنة ١٧٤٤

وعند (ليون) ، تمنيت أن اتخذ طريق (مون سينى) ، لأزور « ماما » المسكينة ، زيارة عابرة . بيد أننى انحدرت مع نهر (الرون) ، ثم انتقلت بالبحر إلى (طولون) . وكان ذلك بسبب الحرب ، وبداعى الاقتصاد ، وللحصول ــ كذلك ــ على جواز للسفر من السيد دى « ميربوا » ، الذى كان يشرف على الإقليم إذ ذاك ، والذى كنت موفدا إليه بتوصية . وإذ لم يكن بوسع السيد دى مونتيجى أن يستغنى عنى ، فقد راح يكتب لى الرسائل تلو الرسائل ، متعجلا سفرى . ولكن حادثا عاقنى .

كان الطاعون يتفشى إذ ذاك فى (مسينا) . وكان الأسطول البريطانى يرسو هناك ، فزار المركب التى كنت عليها ، وقد

---

(١) يبدو أنه يقصد قيمة المرتب السنوى .

عرضنا ذلك عند وصولنا إلى (جنوا) ــ بعد رحلة طويلة شاقة ــ إلى أن نحتجز تحت المراقبة الصحية ثمانية وعشرين يوما . وترك لنا الخيـــار بين البقاء على ســـطح المركب ، أو فى المعزل الصحى ، الذى أنذرنا بأننا لن نجد فيه شيئا ، اللهم إلا الجدران الأربعة ، إذ لم يكن الوقت قد اتسع لتأثيثه . واختار الجميع البقاء فى السفينة ، ولكن الحر المرهق ، وضيق المكان ، وتعذر التريض على القدمين ، والحشرات ، جعلتنى أفضـــل المعزل . فاقتدت إلى مبنى كبير ذى طابقين . وكان عاريا تماما ، فلم أعثر فيه على نافذة ، ولا منضدة ، ولا سرير ، ولا مقعـــد .. بل ولا كرسى منخفض بلا مسند لأجلس عليه ، ولا حزمة من القش أرقد عليها .. وأحضروا إلى معطفى ، والحقيبة الصغيرة التى تضم ثياب النوم ، وحقيبتى الكبيرتين ، ثم أغلقت دونى أبواب ضخمة ، ذات أقفال هائلة .. وبقيت هناك ، حرا فى أن أتجول وفق هـــواى ، من حجرة إلى أخرى ، ومن طـــابق إلى آخر ، دون أن التقى فى كل مكان بغير العزلة والتجـــرد من الأثاث !

ولم يحملنى كل هذا على أن اندم لاختيارى المعـــزل دون المركب ، بل رحت أدبر أمورى ــ كما لو كنت « روبنصن » (١) جديدا ــ للأيام الثمانية والعشرين ، وكأننى كنت مقبـــلا على الاقامة طيلة العمر ، وكنت أتســـلى ــ فى البداية ــ باصطياد القمل الذى التقطتـــه على المركب . فلما أصبحت نظيفـــا فى

---

(١) يقصد « روبنصن كروزو » .

النهاية ، بفضل تغيير الثياب الداخلية والخارجية ، تحولت إلى تاثيث الحجرة التى اخترتها ، فصنعت حشية بديعة من ستراتى وأقمصتى ، وملاءات من عدة مناشف خطت بعضها إلى بعض، وغطاء من إزارى المنزلى (الروب دى شامبر) ، ووسادة من معطفى الذى لففته ، واتخذت مقعدا من إحدى حقيبتى بعد أن وضعتها على أحد جانبيها العريضين ، ومنضدة من الحقيبة الأخرى بعد أن أقمتها على أحد جانبيها الضيقين ، وأخرجت ورقا ومحبرة ، ونسقت حوالى اثنى عشر كتابا كنت امتلكها ، لتكون مكتبة . وقصارى القول اننى هيأت مقامى تهيئا طيبا حتى اننى كنت فى ذلك المعزل العارى أنعم باقامة تعدل اقامتى فى مسكنى بساحة التنس فى شارع (ديلا فيرديليه) ، فيما عدا الستائر والنوافذ !.. وكانت وجباتى تقدم فى كثير من مظاهر الأبهة ، إذ كان يرافقها جنديان شهرا حربتيهما فى طرفى بندقيتيهما . وكان دهليز السلم بمثابة قاعة مائدتى ، كما كانت عرصة السلم بمثابة مائدة ، فاذا ما أعد الغداء ، دق الذين احضروه ناقوسا ـ أثناء انسحابهم ـ لتنبيهى إلى أنه قد آن لى أن أجلس إلى المائدة .

وعندما كنت انصرف عن القراءة او الكتابة ، او استكمال تاثيث حجرتى ـ بين الوجبات ـ كنت اتمشى فى مقبرة البروتستانت ، التى كانت بمثابة ساحة لمسكنى ، أو أصعد إلى برج يطل على الميناء ، حيث يتسنى لى رؤية السفن فى دخولها وخروجها . وقضيت على هذا النسق أربعة عشر يوما، وكنت قمينا بأن اقضى الأيام العشرين بأسرها دون أن أضجر



واتخذت مقعدا من احدى حقيبتي بعد أن وضعتها على احد جانبيها العريضين ومنضدة من الحقيبة الأخرى .

لحظة ، لولا السيد دى « جونفيى » ــ المبعوث الفرنسى ــ الذى كنت قد تمكنت من أن أرسل إليه خطابا معبقا بالخل ، ومعطرا ، وشبه محترق .. فقد أنقص مدة احتجازى ثمانية أيام ، قضيتها فى داره ، حيث أعترف بأننى وجدت من راحة المقام ما لم أجده فى معزلى .. وقد أبدى لى عطفا قويا ، كما أن سكرتيره « ديبون » كان شابا طيبا ، اصطحبنى إلى بيوت عديدة ــ سواء فى جنوا أو فى الريف ــ حيث كانت التسرية موفورة . وقد وثقت معه روابط المعرفة والتراسل ، التى ظللنا نرعاها ردحا طويلا من الزمن . وما لبثت أن استأنفت رحيلى ــ راضيا مرتاحا ــ مخترقا سهل (لمباردى) . وزرت (ميلان) ، و (فيرونا) ، و (بريسيا) ، و (بادوا) ، ثم وصلت فى النهاية إلى (البندقية) ، حيث كان السفير فى انتظارى ، وهو نافد الصبر !

* * *

ووجدت أكداسا من الرسائل ــ سواء من البلاط الملكى أو من السفراء الآخرين ــ لم يكن فى وسع السفير أن يقرأ ما كتب منها بالشفرة ، برغم إنه كان يملك كافة مفاتيح الشفرة اللازمة لذلك . ولما لم أكن قد عملت قط فى منصب من هذا النوع ، ولا رأيت فى حياتى شفرة حكومية ، فقد خشيت ــ فى البداية ــ أن أرتبك ، ولكننى تبينت أنه لم يكن ثمة ما هو أسهل من ذلك .. وفى أقل من أسبوع ، كنت قد حللت رموز الرسائل جميعا ، إذ أنها لم تكن ــ فى الواقع ــ تستحق عناء .. فقد كانت السفارة القائمة فى البندقية قليلة العمل دائما ، فضلا عن أن مثل هذا الرجل ــ السيد دى مونتيجى ــ لم يكن ممن يتعهد

إليهم بأية مفاوضات . ولقد كان فى حيرة بالغة إلى أن وصلت، فما كان ليعرف كيف يملى رسائله ، ولا كيف يكتب بخط مقروء . ومن ثم فانى كنت عظيم النفع له ، وقد شعر بذلك ، فأحسن معاملتى . وكان ثمة باعث آخر حمله على ذلك ، فلقد تولى أعمال السفارة ـ بعد رحيل سلفه السيد دى فرولاى ، الذى اختبل عقله ـ القنصل الفرنسى ، الذى كان يدعى السيد لوبلون ، ثم واصل إدارتها منذ وصول السيد دى مونتيجى ريثما يدربه على نظام العمل . ولقد جنح السيد دى مونتيجى ـ فى غيرته من أن سواه كان يؤدى عمله ، برغم أنه كان عاجزا عن أدائه بنفسه ـ إلى كراهية القنصل ، فما أن قدر لى أن أصل ، حتى جرده من مهام سكرتير السفارة ، ليكلها إلى . ولما كانت هذه المهام غير منفصلة عن لقب « سكرتير السفارة »، فقد دعانى إلى أن أحمل هذا اللقب . وما أوفد ـ طيلة بقائى معه ـ أحدا سواى بهذه الصفة إلى مجلس الشيوخ أو إلى مندوبيه (١) . والواقع أنه كان من الطبيعى أن يفضل أن يكون فى منصب سكرتير السفارة رجل تابع له ، عن أن يكل هذا المنصب إلى القنصل أو موظف كتابى معين بمعرفة البلاط .

ولقد أدى هذا إلى أن أصبح مركزى جد ملائم ، ومنع أفراد

---

(١) كان من عادة مجلس شيوخ جمهورية البندقية ـ فى ذلك الحين ـ أن يتباحث مع سفراء الدول الأجنبية ، عن طريق مندوبين يوفدهم اليهم ، ومبعوثين يوفدهم السفراء اليه . وقد كان مجلس الشيوخ ـ فى بعض نظم الحكم ـ ذا سلطة تنفيذية . وهكذا كان فى البندقية .

بطانته ، الذين كانوا من الإيطاليين ــ كما كان أتباعه ومعظم خدمه ــ من أن ينازعونى الأولوية فى داره . وقد استغللت بنجاح ما كان لهذا المركز من سلطان ، فى صون حقوقه الديبلوماسية ، وأعنى بذلك حصانة مقره ضد المحاولات التى بذلت مرارا عديدة لانتهاكها ، والتى كان موظفوه ــ من أبناء البندقية ــ لا يحفلون بمقاومتها . ومن ثم فاننى لم أسمح قط للخارجين على القانون باللجوء إلى هذا المقر ، بالرغم من أننى كنت خليقا بأن أجنى من وراء ذلك نفعا كبيرا ، ما كان صاحب السعادة ليتورع عن مقاسمتى إياه ! .. بل إنه جرؤ على أن يستبيح لنفسه حقوق السكرتيرية التى يطلق عليها اسم « أعمال الديوان » . ومع أن الحرب كانت قائمة ، إلا أن هذا لم يعف من إصدار عدد لا بأس به من جوازات السفر ، وكان يدفع عن كل جواز منها ، « سيكان » (١) للسكرتير الذى ينجزه ويصدق عليه . وقد اعتاد كل من سبقونى أن يتقاضوا هذا السيكان من الفرنسيين ومن الأجانب على السواء . بيد أننى وجدت هذا الإجراء غير عادل ، ومع أننى لم أكن فرنسيا، فاننى ألغيته بالنسبة للفرنسيين ، وإن رحت أتقاضى حقى ــ فى غير ما تساهل ــ من كل من عداهم . فلما أرسل لى المركيز سكوتى ــ شقيق الشخص الذى كانت له الحظوة لدى ملكة اسبانيا ــ يطلب يوما جوازا ، دون أن يرسل لى السيكان ، فطالبته به ، وهو اجتراء لم ينسه قط ذلك الإيطالى المفطور على الانتقام . ومنذ أن أصبح هذا الاصلاح الذى أدخلته على رسوم

---

(١) السيكان عملة تتراوح قيمتها بين ٩ و ١٢ فرنكا .

الجوازات معروفا ، لم يعد يتقدم للحصول على جوازات سوى جحافل من منتحلى الجنسية الفرنسية ، الذين كانوا يزعمون ـ فى رطانة محتملة ـ أن هذا من أقليم (بروفانس) ، والآخر من (بيكار) ، والثالث من (بيرجندى) . ولما كنت قد أوتيت سمعا مرهفا ، فانني لم أكن أخدع قط ، وما أظن أن إيطاليا واحدا استطاع أن يسلبنى « سيكانى » ، أو ان فرنسيا واحدا دفعه لى . وكنت من الغباء بحيث أنبأت السيد دى مونتيجى ـ الذى لم يكن يعلم شيئا عن أى شىء ! ـ بما فعلت . فاذا كلمة « سيكان » تجعله يفتح أذنيه ، وبدون أن يبدى لى رأيا بصدد إلغاء الرسم للفرنسيين ، طلب أن أسوى معه الحساب بشأن الآخرين ، واعدا إياى بمنافع فى مقابل ذلك ! .. ورفضت اقتراحه عن احتقار لضعته أكثر منى عن تأثر من أجل مصلحتى ، والح على ، فاذا بغضبى يحتدم ، وقلت فى تحمس شديد : « لا ياسيدى .. أن لسعادتك أن تحتفظ بما هو حق لك ، ودع لى ما هو حقى ، فلن أنزل عن « سو » واحد منه ! » . وإذ رأى أنه لم يكسب شيئا بهذه الوسيلة ، عمد إلى وسيلة أخرى ، ولم يخجل من أن يقول إننى ما دمت أحصل على مكاسب من أعمال ديوانه ، فمن العدل أن أتحمل نفقات هذا الديوان . ولم أشأ أن أجادل فى هذا الأمر ، ومن ذلك الحين أخذت أبتاع من مالى المداد ، والورق ، وشمع الأختام ، وشمع الإضاءة ، والأشرطة ، وما إلى ذلك .. حتى خاتم الدولة الذى أصلحته ، دون أن يدفع من نفقات إصلاحه شيئا ! .. ولم يحل هذا دون أن أعين جزءا صغيرا من ايراد

عملية الجوازات للراهب دى بينى ، الذى كان شـــابا طيبا ، والذى كان أبعد من أن يطلب لنفسه شيئا من هذا القبيل . وإذا كان قد تلطف نحوى ، فاننى لم أكن اقل كرما نحوه ، ومن ثم فقد عشنا معا فى وئام على الدوام .

* * *

ولقد وجدت عملى ـــ إذ مارسته ـــ أقل إرهاقا مما توقعت بالنسبة لرجل عديم الخبرة ، قدر له أن يعمل مع سفير لم يكن يفوقه فى شىء ، بل إنه كان بجهله وعناده يعرقل ـــ وكأنما كان يسر بهذه العرقلة ـــ كل ما كان يلهمنيه الادراك السليم وبعض أضواء المعرفة لأتقن خدمته وخدمة الملك ! . . وكان أكثر أعماله انطواء على ادراكى ، هو ارتباطه بالمركيز دى « مارى » ، سفير أسبانيا ، الذى كان بارعا ، أريبا ، وكان بوسعه أن يقوده من أنفه إلى حيث شاء ، لولا أنه ـــ نظرا لارتباط مصالح التاجين ـ كان يمحضه عادة خير النصح ، فكان الآخر يضيع نفع هـــذا النصح ، إذ كان دائما يدس عليـــه بعض آرائه الخاصة عند التنفيذ !.. وكان الشىء الوحيد الذى اشتركا فى عمله ، هو اغراء البندقيين بالتزام الحياد . وكان هؤلاء لا يكفون عن ادعاء الأمانة فى صون الحياد ، مع أنهم كانوا يمدون الجنود النمسويين ـــ علانية ـــ بالذخائر ، بل وبالمجندين الذين كانوا يزعمون أنهم هاربون من قواتهم . . أما السيد دى مونتيجى ـــ الذى أعتقد أنه كان يبغى إرضاء الجمهورية[1] ـــ فلم يكن يتوانى ، بالرغم

---

(١) حكومة جمهورية البندقية .

من بياناتى عن أن يحملنى على أن أؤكد فى كل رسائله أنها لم تكن تنتهك الحياد إطلاقا . وكان عناد هذا الرجل المسكين وغباؤه يضطراننى إلى أن أكتب وأرتكب ـ فى كل لحظة ـ سخافات كنت مجبرا على أن أكون الوسيط فيها ، ما دامت هذه رغبته ، ولكنها كانت ـ فى بعض الأحيان ـ تجعل أداء واجباتى أمرا لا يطاق .. بل أمرا غير ميسور عمليا !.. مثال ذلك : أنه كان يصر اصرارا مطلقا على أن يكون الشطر الأكبر من رسائله إلى الملك ورسائله إلى الوزير مكتوبا بالشفرة ، برغم أن أيا من هذه أو من تلك لم يكن يشتمل على شىء ما يجعل مثل هذه الحيطة لازمة !.. ولقد أوضحت له أنه لم يكن ثمة وقت كاف بين يوم الجمعة ـ الذى كانت رسائل البلاط تصل فيه ـ ويوم السبت ـ الذى كانت رسائلنا تصدر فيه ـ لكتابة هذه بالشفرة ، ولكتابة الكمية الكبيرة من الرسائل التى كان على أن أعدها ليحملها البريد فى اليوم ذاته . فابتكر لذلك خطة بديعة ، تلك هى أن أعد ـ فى يوم الخميس ـ ردود الرسائل التى يكون مقدرا لها أن تصل فى اليوم التالى !.. ولقد تراءت له هذه الفكرة موفقة ـ بالرغم مما وسعنى أن أقوله عن استحالة ، بل وسخف ، تنفيذها ـ حتى إنه حتم اتباعها ، فلم أكن أخفق قط ، طيلة المدة التى مكثتها معه بعد ذلك ـ فى أن أحمل إليه فى صباح يوم الخميس ، مسودة مصوغة من الكلمات القلائل التى كان يلقيها فى مناسبات عابرة خلال الأسبوع ، والتى كنت أسجلها فى مفكرتى ، ومن بعض البيانات والأخبار البسيطة التى كنت التقطها من هنا ومن هناك ، لأتزود بها فى هذه المهمة العجيبة ! .. أقول إننى لم أخفق قط

فى أن أقدم إليه فى صباح يوم الخميس مسـودة للرسائل التى ينبغى تصديرها فى يوم السبت ، فيما عدا بعض إضافات أو تعديلات كنت أؤديها فى عجلة ، على ضوء الرسائل التى تصل فى يوم الجمعة ، والتى كانت رسائلنا تعتبر ردا لها !

وكانت له نزوة اخرى ، غاية فى الطرافة ، أضـفت على مراسلاته صبغة مضحكة لا سبيل إلى وصفها : تلك هى إرسال كل نبأ إلى مصدره ، بدلا من تركه يأخذ مجراه العادى .. فكان يرسل الانباء الواردة عن البلاط إلى السـيد اميلو (١) ، وتلك الواردة عن باريس إلى السيد دى موريبا ، وتلك المتعلقـة بالسويد إلى السيد دافرينكور ، وتلك الخاصـة ببطرسبورج إلى السيد ديلاشيتاردى .. بل أنه كان يرسل إلى كل منهم أحيانا الأنباء الواردة منه هو بالذات ، والتى كنت أجـرى تعديلات طفيفة عليها !.. ولما كان قد اعتاد أن يلقى نظرة على الرسائل الموجهة إلى البلاط وحدها ـ دون بقية ما كنت احمله إليه ليوقعه ـ فانه كان يوقع الرسائل الموجهة إلى السفراء الآخرين دون أن يقرأها ، مما جعلنى أكثر مقدرة على أن أصوغ هذه الأخيرة وفقا لمزاجى ، أو ـ على الأقل ـ على أن أبدل من الأنباء ، فلا أوجه لكل منهم عين الانباء التى سبق أن ارسلها ! .. بيد أنه كان من المستحيل على أن أصوغ الرسائل الهامة فى أسلوب معقول ، بل اننى كنت أعتبر نفسى سـعيدا ، إذا لم يخطر بباله أن يدخل عليها بضعة أسـطر متعجلة من وحى

---

(١) كان السيد اميلو وزيرا للخارجية ، وكان البلاط هو مقر منصبه .

أفكاره . فقد كان هذا يضطرنى إلى العودة إلى نسخ الرسالة التى زانها بهذه السخافة الجديدة .. السخافة التى كان لابد من تكريمها بنسخها ـ بسرعة ـ بالشفرة ، إذ أنه لم يكن يوقع الرسالة بدونها !.. ولقد راودنى الاغراء عشرين مرة ـ مراعاة لسمعته ـ بأن أنقل بالشفرة شيئا غير الذى قاله ، ولكنى كنت أدرك أن ليس ثمة ما يبيح لى إطلاقا مثل هذا الانحراف عن الأمانة ، فكنت أدعه يهذى على مسئوليته ، قانعا بأن أصارحه برايى ، وبأن أؤدى الواجب المفروض على نحوه !

***

وهذا ما حرصت على أن افعله دائما بأمانة وجلد وحمية كانت تستحق جزاء غير ذاك الذى تلقيته فى النهاية .. كان قد حان لكى أكون ـ ولو لمرة واحدة ـ كما هيأتنى السماء التى أنعمت على بفطرة طيبة ، وكما أهلتنى التربية التى تلقيتها على أيدى أفضل النساء وتلك التى أتحتها لنفسى .. وهذا ما حدث فعلا !. فقد كنت وحيدا بلا أصدقاء ولا ناصحين ، وبلا تجربة ، فى بلد أجنبى ، وفى خدمة أمة أجنبية ، وفى وسط ثلة من الأنذال الذين كانوا يستحثوننى على أن أحذو حذوهم فى سبيل مصلحتهم ، ومن أجل التخلص من عار وجود مثل صالح بينهم .. على أننى بدلا من أن افعل اى شىء من هذا القبيل ، اخلصت الخدمة لفرنسا ـ التى لم اكن مدينا إليها بأى واجب ـ وكنت أكثر إخلاصا فى خدمة السفير فى كل ما كان موكولا إلى ، كما ينبغى أن يقال بحق !.. وإذ لم يكن ثمة ما يؤخذ على فى منصب كهذا ، جد مكشوف للأنظار المتطلعة ، فقد استحققت

وظفرت بتقدير حكومة الجمهورية (١) ، وتقدير السفراء الذين كنا نتبادل معهم الرسائل ، وحب كل الفرنسيين المقيمين في البندقية . ولم يشذ عن ذلك القنصل الذى خلفته ـ للأسف ـ فى المهام التى كنت ادرك أنها من حقه ، والتى جلبت على من المتاعب أكثر مما جلبت من السرور !

وإذ انصاع السيد دى مونتيجى دون تحفظ للمركيز دى « مارى » ـ الذى لم يكن ليهتم بتفصيلات واجبات السفير الفرنسى ـ أهمل هذه الواجبات إلى درجة أنه لم بكن من المحتمل أن يدرك الفرنسيون ـ الذين كانوا فى البندقية ـ أن لفرنسا سفيرا مقيما فى المدينة ، لولاى أنا !.. ولما كانوا دائما يطردون دون ما استماع إلى شكواهم ـ كلما نشدوا حمايته ـ فانهم أصبحوا يزدرونه ، ولم ير واحد منهم قط فى معيته أو على مائدته ، التى لم يكن ـ فى الواقع ـ يدعوهم إليها اطلاقا . وكنت كثيرا ما آخذ على عاتقى أداء ما كان ينبغى على رئيسى أن يؤديه ، وأؤدى للفرنسيين ـ الذين كانوا يلجئون إليه أو إلى أنا ـ كل ما كان فى طوقى من خدمات . ولقد كنت خليقا بأن افعل فوق ما كنت أفعل ، لو اننى كنت فى اى بلد آخر .. ولكننى لم أكن أملك ـ بحكم منصبى ـ أن أقابل أى شخص من ذو« النفوذ ، فكنت كثيرا ما أضطر إلى أن ألجأ إلى القنصل .. وكان لدى القنصل من دواعى الحذر ـ نظرا لاستقراره مع أسرته فى البلد ـ ما كان يمنعه من أن يفعل كل ما كان يهوى

---

(١) حكومة جمهورية البندقية .

.. على أننى كنت أجسر أحيانا ـ عندما أراه صامتا لا يجرؤ على الكلام ـ على الاقدام على تصرفات خطرة ، قدر لى التوفيق فى كثير منها . وإنى لأذكر مغامرة منها ، لا تزال ذكراها تحملنى على الضحك وما أظنه يخطر ببال أحد ، أن رواد المسرح بباريس مدينون لى بكورالين وأختها كاييى، وإن لم يكن ثمة ما هو أصدق من هذا . فلقد تعاقد «فيرونيز» ـ أبوهما ـ على الانضمام وابنتيه إلى الفرقة الإيطالية . وبعد أن تسلم ألفى فرنك لنفقات الرحلة ، لم يسافر وإنما انضم ببساطة إلى مسرح « سان لوك »(١) بالبندقية ، حيث اجتذبت كورالين ـ برغم أنها كانت لا تزال طفلة ـ كثيرا من الناس . فكتب السيد الدوق دى جيفر ـ الأمين الأول للديوان الملكى ـ إلى السفير مطالبا بالأب وابنتيه ، وأسلمنى السيد دى مونتيجى الخطاب ، وكانت كل التعليمات التى زودنى بها ، هى : « انظر هذا الأمر ! » . فذهبت إلى السيد لوبلون ، ورجوته أن يخاطب السيد الذى كان يمتلك مسرح « سان لوك » ، والذى كان من أعضاء مجلس الشيوخ ـ ويدعى ، على ما أظن ، « جستنياتى » ـ فيقنعه بأن يسرح فيرونيز ، الذى كان متعاقدا لخدمة الملك . ولم يكن لوبلون متحمسا للمهمة ، فأساء أداءها ، وتعلل « جستنيانى » بمختلف الحجج ، فلم يسرح فيرونيز . واغتظت .. وكنا فى « الكرنفال » ، فاستقللت زورقا وقد تقنعت ، وذهبت إلى قصر « جستنيانى » . وبهت كل من رآنى فى جندولى

---

(١) أضاف روسو الى هذا قوله : « لست واثقا من أنه لم يكن مسرح « سان صمويل » ، فان الأسماء الصحيحة تغيب عن ذاكرتى تماما » .

وأنا فى ثيابى الرسمية ، إذ أن البندقية لم تر شبيها لهذا العمل من قبل . ودخلت القصر ، وأوحيت بأن يعلن السيد بمقدمى على أننى « السيدة ذات القناع » ، وما أن دخلت عليه ، حتى أزحت قناعى ، وأعلنت اسمى ، فامتقع وجه عضو الشيوخ ، وجمد مشدوها . وإذ ذاك قلت له فى لهجة أبناء البندقية : « سيدى ، يؤسفنى أن أزعج سعادتك بزيارتى ، ولكن فى مسرح « سان لوك » ــ التابع لك ــ رجلا يدعى فيرونيز ، تعاقد على خدمة الملك ، وقد طولبت به دون جدوى . لذلك جئت أطالب به باسم صاحب الجلالة ! » . وأحدث هذا القول ــ على إيجازه ــ أثرا . فلم أكد أنصرف ، حتى هرع صاحبنا إلى محققى الدولة القضائيين ، الذين أوضحوا له الموقف ، ففصل فيرونيز فى اليوم ذاته . وكان أن أوفدت إلى هذا من أنذروه بأنه إذا لم يرحل فى خلال أسبوع ، فسوف أعمل على إلقاء القبض عليه .. ومن ثم رحل !

* * *

وفى مناسبة أخرى ، انقذت ربان سفينة تجارية من مأزق ، بجهودى وحدها ، ودون معونة أى شخص تقريبا . وكان الربان من أبناء (مارسيليا) ، ويدعى « أوليفييه » ، وقد نسيت اسم السفينة ، فقد اشتجر ملاحوه مع « الاسكلافونيين »(١) الذين كانوا فى خدمة الجمهورية . وكان من جراء الشغب الذى ارتكب ، أن احتجزت السفينة

---

(١) أبناء بلاد الكربات .

وفرضت عليها تحفظات بلغ من قسوتها أن أحدا ــ سوى الربان ــ لم يكن يملك أن يصعد إليها أو أن يغادرها دون إذن. ولجأ الربان إلى السفير ، الذى صرفه فى جفاء ، فلجأ إلى القنصل ، ولكنه قال له إن مسألته لم تكن مسألة تجارية ، وأنه لا يملك التدخل . وإذ لم يدر الرجل ما يفعله بعد ذلك ، جاءنى فأوضحت للسيد دى مونتيجى أن عليه أن يسمح لى بأن أرفع مذكرة إلى مجلس الشيوخ . ولست أذكر ما إذا كان قد أذن لى، ولا ما إذا كنت قد قدمت المذكرة ، وإنما أذكر تماما أن المساعى التى بذلتها لم تنته إلى شىء ، وظل التحفظ قائما ، فلجأت إلى عمل حازم قدر له النجاح ، إذ أوردت بيانا عن هذه المسألة فى رسالة إلى السيد دى « موربيا » ، وإن لقيت عناء كبيرا فى إقناع السيد دى مونتيجى بأن يجيز هذا البيان . وكنت أعرف أن رسائلنا كانت تفتح فى البندقية ــ برغم أنها لم تكن تستحق هذا العناء ــ إذ كنت أملك الدليل على ذلك ، فمثلا فى الفقرات التى اعتدت أن أجدها منقولة بالنص فى الصحيفة الرسمية . . وهو لون من عدم الأمانة حاولت عبثا أن أحمل السفير على أن يحتج عليه . وكانت غايتى من الحديث عن هذا الحادث المكدر فى الرسالة ، هى أن أستغل فضول سلطات البندقية ، لكى أرهبهم وأحملهم على أن يطلقوا سراح السفينة . . فإن الربان كان مسوقا إلى الافلاس قبل أن يصدر رد البلاط عن هذه المسألة ، لو أنه اضطر لانتظار هذا الرد . . بل اننى أقدمت على إجراء آخر، إذ زرت السفينة لأستجوب الملاحين ، واصطحبت الراهب « باتيزيل » ــ كاتم اسرار القنصل ــ الذى لم يأت إلا كارها .

فقد كان هؤلاء المساكين جميعا يخشون أن يغضبوا مجلس الشيوخ . ولما لم يكن بوسعنا أن نصعد إلى سطح السفينة ؛ بسبب الحظر المفروض ، فقد بقيت فى جندولى ، وقمت بالتحقيق من هناك ، موجها اسئلتى بصوت مرتفع . وإلى كل الملاحين تباعا ، وقد صغت هذه الأسئلة بحيث تستدعى إجابات فى صالحهم . ولقد حاولت أن أحمل باتيزيل على أن يسألهم وأن يعد التقرير بنفسه ، وهو أمر كان من مهامه ـــ فى الواقع ـــ أكثر مما كان من مهامى ، ولكنه لم يشأ أن يوافق على ذلك اطلاقا ، ولم ينبس بكلمة واحدة ، بل أنه كاد يأبى أن يوقع التقرير بعد أن وقعته أنا . . على أن هذه الخطة ـــ المنطوية على شىء من الجرأة ـــ كانت موفقة للغاية ، فأفرج عن السفينة قبل أن يصل جواب الوزير بوقت طويل . وأراد الربان أن يقدم لى هدية ، فقلت له وأنا أدق كتفه ، دون أن أبدى استياء : « كابتن أوليفييه ، أتظن أن رجلا لا يتقاضى الفرنسيين رسم الجوازات ـــ وهو حق مقرر له ـــ يرضى أن يتقاضاهم ثمن حماية الملك ؟ » . . ورغب الربان فى أن أتناول الغداء معه على سطح السفينة ـــ على الأقل ـــ فقبلت مصطحبا سكرتير السفارة الأسبانية ، المدعو « كاريو » ـــ وكان رجلا ذكيا بالغ اللطف ، غدا بعد ذلك سكرتيرا للسفارة الأسبانية فى باريس، وقائما بالأعمال فيها . . وقد كنت مرتبطا معه بروابط من الود، تماثل تلك التى كانت بين سفيرينا !

ولقد كنت خليقا بأن أغدو سعيدا ، لو أننى عرفت ـــ إذ رحت أفعل كل ما وسعنى من خير ، فى أتم تجرد من المصلحة

الذاتية ـ كيف أدخل قدرا كافيا من النظام والانتباه على كل هذه المسائل الدقيقة ، حتى لا أغدو مستغفلا ، فأخدم الغير على حساب مصالحى !.. ولكن أتفه الأخطاء فى منصب ـ كذاك الذى كنت أشغله ـ لا تمر دون تبعات ، ومن ثم فقد كنت أستنزف كل انتباهى فى الجهد لتفادى أية أخطاء مضادة لعملى.

* * *

ولقد كنت ـ فى كل ما يتعلق بواجبى الرئيسى منظما إلى أقصى درجات النظام ، ودقيقا إلى أقصى درجات الدقة . وفيما عدا بضعة أخطاء اضطرنى التعجل المفرط إلى ارتكابها فى صوغ الشفرة ـ وقد اشتكى منها معاونو السيد اميلو ذات مرة ـ لم يأخذ على السفير ، أو اى امرىء سواه ، اهمالا فى اداء أى واجب من واجباتى ، وهو أمر كان جديرا بالملاحظة بالنسبة لرجل شديد الإهمال وشديد التهور مثلى .. بيد أننى كنت أغفل وأهمل فى تصرفى فى المسائل الخاصة التى كنت آخذها على عاتقى ـ أحيانا ـ فكان حب الانصاف يجعلنى أتحمل دائما اللوم من تلقاء نفسى ، قبل أن يفكر أى امرىء فى أن يشكو منه !.. ولن أذكر ـ فى هذا المجال ـ سوى حادث واحد ، كان له اثر فى رحيلى عن البندقية ، وقدر لى أن أشعر بآثاره ـ بعد ذلك ـ فى باريس !

ذلك أن طاهينا ـ وكان يدعى « روسيلو » ـ أحضر من فرنسا سندا قديما بمائتى فرنك ، كان أحد صناع الشعر المستعار ـ من أصدقائه ـ قد تسلمه من نبيل بندقى يدعى « جانيتو نانى » ، فى مقابل قلنسوات من الشعر المستعار .

وأحضر لى « روسيلو » هذا السند ، ورجانى أن أحاول عمل أى شيء بصدده ، بالإجراءات السليمة . وكنت أعرف ـــ كما كان يعرف هو الآخر ـــ أن العادة التى كانت متبعـــة لدى نبلاء البندقية ، هى ألا يدفعـــوا قط أية ديون تحملوها فى الخارج، ما داموا قد عادوا إلى وطنهم . فاذا بذل أى سعى لقسرهم على الدفع ، أرهقوا الدائن التعس بالارجاء الطـــويل المتـــكرر ، وبالنفقات ، حتى تثبط عزيمته ، ولا يلبث أن يعـــدل ـــ فى النهاية ـــ عن المطالبة ، أو يقبل أية تسوية ضئيلة !. ورجوت السيد لوبلون أن يتحدث إلى « جانيتو » فاعترف هذا بالورقة، ولكنه أبى أن يدفع قيمتها . وبعد كفاح طويل ، وعده بأن يدفع ثلاثة « سيكانات » . فلما حمل إليه لوبلون السند ، لم تكن السيكانات الثلاثة حاضرة ، فلم يكن ثمة بد من الانتظار . . وفى خلال هذه المهلة ، دب الخلاف بينى وبين السفير ، فخرجت من خدمته . وقد تركت أوراق السفارة فى أتم نظام ، ولـــكن سند « روسيلو » لم يوجد بينها قط . وأكد لى السيد لوبلون أنه كان قد رده إلى ، وكنت أعرف أنه من النبل بحيث لا يرقى إليه الشك ، ولكننى عجزت عن تذكر ما جرى لهذا السند . ولما كان جانيتو قد أقر بالدين ، فقد رجوت السيد لوبلون أن يحاول الحصول منه على السيكانات الثلاثة فى مقابل ايصال ، أو أن يستدرجه إلى تجديد السند بنسخة أخرى منه ، ولكن « جانيتو » رفض الأمرين ، إذ علم بضياع السند . . فعرضت على روسيلو السيكانات الثلاثة ـــ من جيبى الخاص ـــ كسداد للسند ، ولكنه أبى أن يأخذها ، وأخبرنى بأن أسوى الأمر مع الدائن الباريسى ، الذى أعطانى عنوانه .ولكن صانع الشعر

المستعار ، طالب بسنده أو بدينه كاملا ، إذ علم بما حدث . فما الذى كنت أضن به ـ فى سورة غيظى ـ فى مقابل العثور على هذا السند اللعين ؟!.. ودفعت المائتى فرنك من مالى ، فى وقت كنت فيه فى أشد الضيق المالى . وهكذا كان ضياع الوثيقة سببا فى حصول الدائن على دينه كاملا ، فى حين أنه لو كان قد تسنى ـ لسوء حظه ـ العثور على السند ، لوجد عناء فى انتزاع العشرة « ايكو » (١) الموعودة من صاحب السعادة جانيتو نانى !

ولقد جعلتنى المقدرة ـ التى استشعرتها فى نفسى ـ على أداء عملى ، مفعما بالميل إليه .. وفيما عدا صحبتى لصديقى « كاريو » ، وللفاضل « التونا » ـ الذى لن البث أن اتحدث عنه ـ وفيما عدا بعض ألوان الترويح البريئة ـ التى تمثلت فى التردد على ساحة سان مارك وعلى المسرح ـ وبعض زيارات كنا نقوم بها سويا فى أغلب الأحيان .. فيما عدا ذلك ، كانت واجباتى هى الأسباب الوحيدة للتسلية والمتعة . ومع أن عملى لم يكن شاقا أكثر مما ينبغى ، لا سيما ازاء العون الذى كنت ألقاه من الراهب دى « بينى » ، إلا أن مراسلاتنا كانت كثيرة جدا ، كما أننا فى فترة حرب ، ومن ثم فلم تكن تعوزنى الشواغل ، بل كنت أقضى شطرا كبيرا من النهار فى العمل ـ فى كافة الأيام ـ كما أننى كنت أعمل ، فى أيام البريد ، إلى منتصف الليل أحيانا . وكنت أكرس بقية الوقت لدراسة المهنة التى شرعت فى ممارستها ، والتى كنت ـ على ضوء البداية

---

(١) العشرة ايكو تعادل فى قيمتها السيكانات الثلاثة .

الناجحة ـــ اعول كثيرا على أن أبلغ فيها منصبا طيبا فيما بعد .. والواقع أنه لم تكن ثمة سوى فكرة واحـــدة عنى لـــدى الجميع ، ابتداء من السفير الذى كان راضيا عن خدماتى رضاء تاما : فلم يشك منها قط .. وما جـــاء كل الغضب ـــ الذى ثار فيما بعد ـــ إلا عن أننى حين ألفيت شكاياتى لا تلقى أذنا سامعة ، طلبت إعفـــائى من العمل . وكان كل ســـفراء الملك ووزرائه ـــ الذين كنا على تراسل معهم ـــ يهنئونه على كفاءة سكرتيره ، وهو ما كان يجب أن يثير اعتزازه ، ولكنه أحـــدث اثرا عكسيا فى رأسه السيء التفكير . وكانت بين هذه التهانىء واحدة بالذات ، تلقاها فى ظرف حرج ، فلم يغتفرها لى قط . وهى جديرة بأن أتكبد عناء شرحها .

وذلك أنه كان قليل المقدرة على مقاومة ما يضايقه ، حتى أنه فى يوم السبت ذاته ـــ وهو يوم ارسال كل الرسائل تقريبا ـــ لم يكن ليقوى على الصبر عن الخروج ريثما ينتهى العمل ، وإنما كان يستحثنى باستمرار متعجلا رســـائل الملك والوزراء ، ليوقعها فى عجلة ، ثم يهرع إلى حيث لم اكن أدرى ، تاركا معظم الرسائل الأخرى بدون توقيع ، مما كان يضطرنى ـــ عنـــدما لا تكون هناك سوى أخبار عادية ـــ إلى أن أصوغها فى قالب نشرات الأخبار .. أما حين تكون هناك مسائل متعلقة بخدمة الملك ، فقد كانت الضرورة تدعو إلى توقيع الرسائل ، فكنت أتولى توقيعها بنفسى . وقد فعلت ذلك بصدد رسالة هامة كنا قد تسلمناها من السيد « فانسان » ، القـــائم بأعمال الملك فى (فيينا) . وكان ذلك فى الوقت الذى سار فيه الأمير لوبكوفيتش ، زاحفا على (نابولى) ، والـــذى قام فيه الكونت دى جـــاج

بتقهقره الذي لا ينسى ، والذي كان أروع عمل عسكرى فى القرن كله ، وكان حديث أوربا . وكان النبأ الذى بلغنا ، هو أن رجلا ـ أرسل إلينا السيد فانسان أوصافه ـ كان قد غادر (فيينا) ، معتزما المرور بالبندقية ، قاصدا ـ متخفيا ـ إلى (ابروتسى) ليعمل على إثارة الناس عند اقتراب النمسويين . ونظرا لغياب السيد دى مونتيجى ـ الذى لم يكن ليهتم بشىء ـ فاننى أرسلت إلى السيد المركيز « ديلوبيتال » هذا النبأ الذى كان فى وقته المناسب ، حتى ليحتمل أن يكون آل « بوربون » مدينين إلى جان جاك المغبون بفضل الابقاء على مملكة نابولى !

وإذ شكر المركيز ديلوبيتال زميله ـ كما كان ينبغى ـ امتدح له سكرتيره (١) والخدمات التى أداها للقضية المشتركة فاذا الكونت دى مونتيجى ـ الذى كان جديرا بأن يلوم نفسه على إهماله فى هذه المسألة ـ يخال انه يلمح لوما خلال هذه التهنئة ، فحدثنى عنها فى استياء . وكنت قد أقدمت على أن أفعل مع الكونت دى كاستيلان ـ السفير الفرنسى فى القسطنطينية ـ ما فعلته مع المركيز ديلوبيتال ، وإن كان النبأ اقل أهمية . وإذ لم تكن ثمة وسيلة لإرسال البريد إلى القسطنطينية سوى الرسل الذين اعتاد مجلس الشيوخ أن يوفدهم من آن إلى آخر إلى « بايله » (٢) ، فقد كان السفير

---

(١) أى « جان جاك روسو » نفسه .

(٢) « البايل » : لقب سفير البندقية فى القسطنطينية .

الفرنسى ينبأ بمواعيد رحيل هؤلاء الرسل ، ليتمكن من الكتابة إلى زميله إذا رأى داعيا لذلك . وكان هـذا الاخطار يصـدر قبل الرحيل بيوم أو اثنين ، ولكن السيد دى مونتيجى لم يكن يلقى اعتبارا كافيا ، ومن ثم فقد كانوا يكتفون باخطاره قبل رحيل البريد بساعة أو اثنتين ، لمجرد مراعاة الشكليات !.. وكان هذا يضطرنى — فى كثير من المرات — إلى أن أعد الرسالة فى غياب السفير . وكان السيد دى كاستيلان يذكرنى — فى رده — بعبارة التكريم ، وكذلك كان السيد دى جونفيى — فى جنوا — يفعل ، فكان كل تعبير عن حسن رأيهما فى شخصى ، سببا لخلافات جديدة ..

* * *

وأعترف بأننى لم أحاول أن أتحـاشى فرصـة التعريف بنفسى ولكننى لم أكن أسعى إلى ذلك فى غير المناسبات اللائقة. وكان يبدو لى أن الانصاف يبيح لى — إذ أحسن الخدمة — أن أطمع فى الجزاء الطبيعى للخدمات الطيبة ، الا وهو التقدير من أولئك الذين كانوا يملكون تقـديرها ومنح الجـزاء عنهـا . ولست أملك أن أقول ما إذا كانت دقتى فى أداء مهامى كانت — فى نظر السفير — سببا مشروعا للشكوى والاحتجاج ، ولكن الذى أملك أن أقوله هو أن هذه الشكوى كانت هى الشـكوى الوحيدة التى اعتاد أن يرددها إلى يوم فراقنا !

وكانت داره — التى لم يكن يحسن إدارتها اطلاقا — مليئة بالسفلة : كان الفرنسيون يلقون هناك أسوأ معاملة ، بينما كانت للإيطاليين المكانة العليـا .. وحتى فيما بين هؤلاء ، كان

المستخدمون الصالحون الذين ألحقــوا منذ وقت طويل بخدمة السفارة ، يطردون فى غير ما إنصاف، وكان من هؤلاء المستشار الأول للسفير ، الذى شغل المركز نفسه فى عهد سلفه الكونت دى فرولاى ، والذى كان يدعى ـــ على ما اعتقد ـــ الكونت « بياتى » ، أو ما يقرب من هذا الاسم .. أما المستشار الثانى ـــ وكان السيد دى مونتيجى هو الذى اختاره بنفسه ـــ فكان شقيا من (مانتوى) ، يدعى « دومينيك فيتالى » ، وقد عهد إليه السفير بشئون داره ، فاستطاع بالتملق وبالشح الخسيس أن يكتسب ثقته ويغــدو أثيرا له ، مما اضر بمن كان قد ظـــل بالدار من أمناء قلائل ، وبالسكرتير الذى كان على راسهم .. وعين الرجل الشريف أمينه ، تثير دائما قلق اللئام . وقد كان هذا وحده كافيا لأن يجعل هذا الرجل يكرهنى ، بيد أن كراهيته كانت ترجع ـــ كذلك ـــ إلى سبب آخر ضاعف منهــا إلى حد كبير . ولا بد لى من أن أبدى هذا السبب ، ولكم أن تدينونى إذا كنت مخطئا !

ذلك أنه كان للسفير ـــ وفقا لتقليد راسخ منذ امد طويل ـــ مقصورة فى كل من المسارح الخمسة . وكان يعين ـــ على مائدة الغداء ، فى كل يوم ـــ المسرح الذى يعتزم الذهاب إليه ، فكنت أنا الذى يليه فى الاختيار، على أن يأخذ المستشارون المقصورات الأخرى . وكنت آخذ ـــ عند انصرافى ـــ مفتاح المقصورة التى

اخترتها . ففى ذات يوم ، لم يكن فيتالى ـــ الذى كان يحتفظ بالمفاتيح ـــ موجودا ، فعهدت إلى ساع كان فى خـــدمتى ، بأن يحضر لى مفتاحى فى دار عينتها له . ولـــكن فيتالى لم يرسل المفتاح ، بل قال إنه قد تصرف فى شأنه . ومما زاد من غيظى ، أن الساعى أدلى بهذا النبأ أمام الملأ . فلما كان المساء ، حاول فيتالى أن يتقدم ببضع كلمات يعتذر بها ، ولـــكننى لم أنصت إليه ، بل قلت له : « تعال غدا أيها السيد ، فقلهـــا فى نفس الساعة ، وفى نفس الدار التى تلقيت أنا الاهانة فيهـــا ، وأمام الناس الذين شهدوها . . والا ، فسوف أطالب بعد غد ـــ ومهما يكن ما يحدث ـــ بأن يغادر أحدنا هذه السفارة ! » . وأفحمته لهجتى الحاسمة ، فجاء إلى الدار فى الساعة المحددة ، واعتذر علانية ، فى صغار يليق به ولكنه راح يرسم خطته على مهل . وبينما كان يبدى لى احتراما بالغا ، راح يعمل على شـــاكلة الإيطاليين (١) ومع أنه لم يستطع أن يحمل السفير على فصلى، إلا أنه اضطرنى إلى أن أستقيل من تلقاء نفسى !

ومن المحقق أن مثل هذا الوغد لم يكن أهلا لأن يعرفنى ، ولكنه عرف عنى ما كان يخدم أغراضه . . عرف أننى كنت من الطيبة واللين بحيث أحتمل المظالم غير المقصودة ، وأننى من الكبرياء بحيث لا أحتمل الاهانات المتعمدة ، وأننى أحب

---

(١) يقصد الدس فى الخفاء ، والنميمة وما اليهما من أساليب .

التواضع والوقار فى المناسبات الملائمة ، وأننى لم أكن أقل حرصا على ما ينبغى لى من تكريم ، منى على أداء ما هو واجب على منه للغير .. وهذا ما استغله ووفق بفضله إلى مضايقتى. فقد قلب السفارة رأسا على عقب ، وأزال منها ما كنت قد بذلته لصون الأصول ، وترتيب المراكز ، والدقة ، والنظام . والبيت إذا خلا من امرأة ، احتاج إلى قواعد للنظام أقسى بقليل مما يحتاج إليه سواه ، فى سبيل التمكين للاحتشام من أن يسوده مقترنا بالكرامة والوقار . أما هذا الرجل ، فانه سرعان ما جعل من دارنا مباءة للخلاعة والفجور ، ووكرا للأنذال والفاسقين . وخلع منصب المستشار الثانى (١) على قواد (٢) مثله ، كان يمتلك دارا للدعارة (٣) فى (كروا دى مالت) ـ صليب مالطة ـ فكان هذان اللئيمان فى وئام تام ، وعلى وقاحة تعادل فجورهما !.. فلم يعد فى الدار ركن واحد يليق برجل شريف ، فيما عدا غرفة السفير وحدها .. بل إن هذه أيضا لم تكن كما ينبغى !

ولما كان صاحب السعادة قد اعتاد ألا يتناول عشاء قط ، فقد كانت تمد لنا ـ المستشارين وأنا ـ مائدة خاصة فى المساء،

---

(١) اذ انه خلف الكونت بياتى فى منصب الأمين الأول .

(٢) فى الاصل الفرنسى ... Maq

(٣) qui tenait b ... public

يجلس إليها الراهب دى بينى والسعاة كذلك . وكان المرء حريا بأن يلقى فى أحقر الحانات خدمة أكرم ، وأدوات للمائدة أنظف ، وطعاما أحسن مما كان يقدم إلينا إذ ذاك ! .. فما كنا لنحظى بغير شمعة واحدة صغيرة سوداء ، وصحاف من القصدير ، وشوكات من الحديد . ولقد كنت خليقا بأن أتحمل ما كان يدور فى السر ، لولا أننى حرمت من جندولى ، فأصبحت الوحيد ـ بين سكرتيرى السفراء ـ الذى يضطر إلى أن يستأجر جندولا أو أن يسير على قدميه . ولم يكن يرافقنى ـ إذا ما أوفدت إلى مجلس الشيوخ ـ سوى خدم صاحب السعادة السفير (١) . وإلى جانب هذا ، كان كل ما يحدث فى السفارة لا يخفى على أهل المدينة ، فقد كان كل موظفى السفير يرفعون عقائرهم بتلك الأنباء . وكان « دومينيك » ـ السبب الأوحد فى كل هذا ـ هو أكثرهم إمعانا فى رفع صوته ! .. فقد كان يعلم أن المعاملة غير الكريمة التى كنا نلقاها ، انما كانت تمسنى أكثر مما تمس سواى . وكنت الوحيد ـ من موظفى الدار ـ الذى يتورع عن الكلام خارجها ، ولكننى كنت أرفع صوتى بالشكوى للسفير .. لا مما كان يجرى فحسب ، بل منه هو نفسه كذلك إذ كان ـ بفضل التحريض الخفى من

---

(١) كان المألوف أن يرافق سكرتير السفارة اذا ما أوفد نائبا عن السفير ، حاجب رفيع الدرجة ومستشاره .

مستشاره الخبيث ـــ يوجه إلى فى كل يوم إهـــانة جـــديدة .
ولما كنت مضطرا إلى الانفاق عن سعة لكى أظهر فى مستوى أقرانى ، وفى مظهر يليق بمنصبى ، فاننى لم استطع أن أدخـــر « سو » واحدا من مخصصاتى ، وكنت إذا ما طلبت من السفير نقودا ، راح يحدثنى عن تقديره وثقته ، وكان هـــذا كاف لأن يملأ جيبى ولأن يمدنى بكل حاجاتى !

* * *

وانتهى هذان الشـــقيان(١) إلى أن عبثا برأس ســـيدهما الذى لم يكن سليم التفكير أصلا ، فقاداه إلى الإفلاس عن طريق استدراجه باستمرار إلى شراء سلع زائفة كانا يقنعانه بأنها تحف أثرية . كما حملاه على أن يستأجر قصرا ـــ فى (برينتا) ـــ بأجر يعادل ضعف قيمته ، واقتسما الفرق مع المالك . وكانت الغرف مبطنة بالقيشانى ، ومزدانة بأعمدة وأركان من أجمـــل أنواع الرخام ، وفقا للطراز الذى كان شائعا فى البلاد . ولقد عمد السيد دى مونتيجى إلى تغطية كل هذه الزخارف ، بألواح من خشب الصنوبر ، متعللا بحجة عجيبة ، هى أن هذا هـــو الذى كان متبعا فى الدور الباريسية ! . . ولحجة أخرى كهذه ، كان هو السفير الوحيـــد ـــ فى البندقية ـــ الذى جرد ســـعاة ســـفارته من السيوف ، وخدمه الخصوصين من العصى . .

---

(١) المستشاران الايطاليان .

هكذا كان الرجل الذى راح يكرهنى ، لمجرد أننى كنت أخدمه بأمانة . ولعله كان صادرا فى ذلك عن تفكير مشـــابه لنفس التفكير الذى حمله على التصرفات السالفة الذكر !

ولقد كنت أحتمل صابرا تصرفاته المهينـــة ، وقســـوته ، وسوء معاملته ، طالما ظللت أراها صادرة عن الطباع التى جبل عليها ، دون أن أحسبها صادرة عن كراهية . ولكننى لم أكـــد أتبين أن الخطة كانت مرسومة لحرمانى من الاعتبار الذى كنت أستحقه بفضل خدماتى الصـــادقة ، حتى عقدت العزم على أن أستقيل من منصبى . وكان أول دليـــل تلقيتـــه على سوء نيته ، هو ذاك الذى حدث بمناسبة مأدبة كان عليه أن يقيمها للسيد الدوق دى مودينى وأسرته ، عنـــدما حلوا بالبندقية . فقد انبأنى بأنه لن يكون لى محـــل فى تلك المأدبة . فأجبتـــه مستاء ـــ ولكن فى غير غضب ـــ بأننى قـــد اعتدت أن أحظى بشرف تناول الغداء على مائدة السفير يوميا ، فاذا أبدى السيد الدوق دى مودينى ـــ عند مجيئه ـــ أننى يجب أن أغيب عن المائدة ، فمن اللائق بكرامة صاحب السعادة (السفير) ، ومن الواجب على ، الا أنصـــاع لهذه الرغبة . فقـــال فى حدة : « ماذا ؟! . . أيطالب سكرتيرى ـــ وهو لم يبلغ مرتبة المستشار ـــ أن يتناول الغداء مع عاهل ، فى حين أن مســـتشارى لن يحضرا المأدبة ؟! » . فأجبت : « أجل يا سيدى ، فان المنصب الذى شرفتنى سعادتك به ، يرفع مقامى ـــ طالما كنت أشغله ـــ

إلى درجة تجعل لى الأولوية حتى على مستشاريك ، أو أولئك الذين يقال عنهم انهم مستشاروك ، ومن ثم فان لى حق الحضور فى مناسبات ليس لهم أن يحضروها . وأنت لا تجهل أن التقاليد الرسمية ، والعرف المتبع من زمن أبعد من أن يذكر ، تحتم على — فى اليوم الذى تحضر فيه التشريعات الرسمية — أن اتبعك فى ثياب التشريفة ، وأن أحظى بحضور مآدب قصر « سان مارك » معك . ولست أدرى كيف لا يجوز للشخص الذى يجلس فى مأدبة عامة مع « الدوج » (١) ومجلس شيوخ البندقية ، ان يجلس مع السيد الدوق دى مودينى بالذات ، إلى مائدة واحدة ؟! » . ومع أن حجتى كانت فوق كل رد ، إلا ان السفير لم يسلم بها . غير أننا لم نجد فرصة لتجديد النزاع . إذ أن السيد الدوق دى مودينى لم يأت للغداء على مائدته قط !

* * *

ومنذ ذلك الحين لم يكف السفير عن مضايقتى ، وعن امتهان حقوقى ، مغتصبا الامتيازات البسيطة التى تتعلق بمنصبى ، فكان يجردنى منها ليخلعها على عزيزه فيتالى . وانى لواثق من أنه لو استطاع أن يجرؤ على إيفاده — بدلا منى — إلى مجلس الشيوخ ، لفعل . وكان يستخدم الراهب دى بينى عادة ، لكتابة خطاباته الخاصة فى حجرة مكتبه ، فعهد

(١) لقب كان يطلق على رئيس الدولة فى البندقية .

إليه بأن يكتب إلى السيد دى موريبا تقريرا عن مسـألة الربان أوليفييه ، لم يذكرنى فيه البتة ، مع أننى كنت الوحيد الذى تدخل فى المسألة .. بل أنه أنكر على شرف التحقيق الرسمى الذى قمت به ـ والذى أرسل إلى السيد دى موريبا نسخة منه ـ وعزاه إلى باتيزيل ، الذى لم ينبس ببنت شفة . فلقد أراد أن يغيظنى وأن يرضى صاحب الحظوة لديه ، دون أن يستغنى عنى برغم ذلك ، إذ شـعر بأنه لم يكن ليعثر على خليفة لى ، بنفس السهولة التى عثر بها على خليفة للسيد دى فولو ـ سلفى ـ الذى كان قد أشاع فى الخارج فكرة صحيحة عنه !.. ولم يكن له غنى عن سكرتير يعرف اللغـة الإيطالية، نظرا لمراسـلاته مع مجلس الشيوخ .. لم يكن فى غنى عن سكرتير قادر على أن يكتب كل رسائله ، ويدبر كل أموره ، دون تدخل منه .. سكرتير يجمع بين المقدرة على أن يخدمه بأمانة ، والهوان الذى يجعله يروق للسـيدين المستشارين المدللين ! .. ومن ثم فقد أراد أن يسـتبقينى وأن يكيدنى فى آن واحد ، بأن يمسكنى بعيدا عن وطنى وعن وطنـه ، دون ما نقود تمكننى من العودة . ولعله كان جـديرا بأن ينجح لو أنه سعى إلى ذلك بمزيد من الحكمة . ولكن فيتالى كان يرى آراء أخـرى ، وكان يبغى حملى على الرحيل ، وقد وفق فى غايته . فما أن تبينت أننى كنت أبدد جهودى ، وأن السـفير كان ينظر إلى خدماتى وكأنها جرائم ، بدلا من أن يحمدها لى..

وأنني لم يعد لي أن أطمع ـ طالما ظللت معه ـ في غير المضايقات في الداخل ، وعدم الانصاف في الخارج .. وأن الأذى الذي كان يحاول أن يلحقه بي قد يفوق في الضرر ما قد أكسبه من رضائه إذا أنا بقيت في خدمته ، نظرا لما كان قد اجتلبه على نفسه من سخط عام .. ما أن تبينت كل هذا ، حتى قررت أن أستأذنه في أن يعفيني من العمل ، مفسحا له الوقت كي يحصل لنفسه على سكرتير . على أنه ظل سادرا في مسلكه ، دون أن يجيب بنعم أو لا . فلما رأيت أن الأمور لم تتحسن ، وأنه لم يتجه إلى البحث عن سكرتير آخر ، كتبت إلى أخيه ، مفصلا كافة البواعث ، راجيا إياه أن يحمل أخاه على تسريحي، مضيفا إلى ذلك أنني لن أمكث في منصبي على أية حال ! .. وانتظرت طويلا ، دون أن اتلقى جوابا . وكنت قد بدأت أشعر بحيرة بالغة ، عندما تسلم السفير ـ أخيرا ـ رسالة من أخيه. ولا بد أنها كانت شديدة اللهجة ، إذ أنني لم أره ـ برغم أنه كان عرضة لأعنف نوبات الغضب ـ في مثل الهياج الذي رأيته فيه إذ ذاك . وبعد سيل من السباب المقذع، لم يعد يدري ما يقول، فاتهمني بأنني بعت أسرار الشفرة . وأخذت أضحك ، ثم سألته في لهجة ساخرة عما إذا كان يظن أن في البندقية بأسرها مغفلا واحدا يرضى بأن يدفع « ايكو » واحدا من أجلها . وجعله هذا الجواب يستشيط حنقا ، فهم بأن يدعو إتباعه لكي يلقوا بي من النافذة ، كما قال . وكنت حتى تلك اللحظة محتفظا بهدوئي ،

ولكنى إزاء هذا التهديد ـ وجدت أن الغضب والعزة قد تملكانى بدورى ، فاندفعت إلى الباب ، وبعد أن دفعت المزلاج الذى يوصده من الداخل ، عدت إليه وقلت فى لهجة رهيبة : « لا يا سيدى الكونت ، لن يتدخل أتباعك فى هذه المسألة، فتكرم بتسويتها فيما بيننا ! » . وهدأ تصرفى ومظهرى من سورته فى الحال ، وتجلت الدهشة والروع على اساريره . فلما رأيته قد تخلى من هياجه ، ودعته بكلمات موجزة ، ثم ذهبت ـــ دون أن أنتظر منه جوابا ـــ ففتحت الباب ، وخرجت ، فاجتزت الحجرة الملحقة بمكتبه فى ثبات ، وسط أتباعه الذين نهضوا كعادتهم ، والذين أعتقد أنهم كانوا اكثر استعدادا لمناصرتى منهم لمناصرته . وبدون أن أعود إلى غرفتى ، هبطت السلم ، وغادرت القصر ، فلم الجه بعد ذلك قط !

* * *

وذهبت لفورى إلى السيد لوبلون ، لأنبئه بما حدث ، فلم يبد دهشه كثيرة ، إذ كان يعرف الرجل ، وإنما استبقانى للغداء . وكان هذا الغداء ـــ برغم التعجل فى إعداده ـــ بهيجا، وقد حضره كل الفرنسيين ذوى المكانة ، الذين كانوا فى البندقية . ولم يكن بينهم فرد واحد فى صف السفير ، فقد روى القنصل حكايتى على الجماعة ، وما أن ألموا بها حتى صاحوا جميعا فى وقت واحد ، ولكن فى غير صالح صاحب السعادة . ولم يكن هذا قد سوى حسابى ، ولا أعطانى « سو » واحدا . ولما كانت كل مواردى لا تتجاوز بضع قطع من فئة «اللوى» ، فقد وجدتنى

فى حيرة من أمر سفرى . وإذا بكل الجيوب تتفتح لى ، فأخذت عشرين « سيكان » من السيد لوبلون ، ومثلها من السيد دى سان سير ، الذى كنت وثيق الصلة به ، وكان يلى القنصل فى المكانة من قلبى . ثم شكرت الباقين ، وبقيت ـــ إلى أن قدر لى الرحيل ـــ مقيما لدى رئيس ديوان القنصلية ، لكى اثبت للرأى العام أن الأمة لم تكن مشتركة فى مظالم السفير . ولقد أهاج هذا أن رآنى موضع تكريم فى محنتى ، بينما كان هو ـــ برغم مركزه كسفير ـــ منبوذا ، ففقد حجاه تماما ، وأخذ يتصرف كالمخبول . وبلغ من غفلته أن قدم إلى مجلس الشيوخ مذكرة لاعتقالى . فلما أنبأنى بذلك الراهب دى بينى ، قررت أن أبقى أسبوعين آخرين، بدلا من أن أبادر إلى الرحيل فى اليوم التالى ، كما كنت أعتزم . وقد درس تصرفى فلقى اقرارا ، كما غدوت موضع تقدير عام . ولم تتنازل الرئاسة حتى بالرد على مذكرة السفير الرعناء ، كما أنبأتنى ـــ عن طريق القنصل ـــ بأن لى أن أبقى فى البندقية ما شئت ، دون أن أزعج نفسى بتصرفات رجل أحمق !. ومن ثم واصلت زياراتى لأصدقائى ، وذهبت لأودع السفير الأسبانى ـــ الذى أحسن استقبالى ـــ والكونت دى فينوكييتى ، وزير نابلى ، الذى لم أجده فكتبت إليه وإذا به يرد بخطاب من ألطف الخطابات . وما لبثت أن رحلت ـــ فى النهاية ـــ غير مخلف ورائى أية ديون ، برغم ضائقتى ، سوى القرضين اللذين ذكرتهما من قبل ، وسوى خمسين « ايكو » كنت مدينا بها لتاجر يدعى «موراندى» ، وقد تكفل « كاريو » بدفعها إليه ، وإن لم أردها إليه قط ، بالرغم من أننا تقابلنا

كثيرا بعد ذلك الحين . أما القرضان اللذان تحدثت عنهما ، فقد سددتهما كاملين بمجرد أن تيسر لى ذلك .

* * *

ولا يجوز أن نترك البندقية دون كلمة عن ملاهى هذه المدينة الشهيرة ، أو ـ على الأقل ـ عن القسط الضئيل منها، الذى قدر لى أن أنعم به أثناء مقامى هناك . ولقد رويت كيف أننى ـ فى شبابى ـ كنت مقلا فى السعى إلى ملذات هذه المرحلة من السن ، أو ـ على الأقل ـ المتع التى توصف بأنها ملذات . ولم أغير من مسلكى هذا فى البندقية ، ولكن مشاغلى ـ التى كانت كفيلة بأن تمنعنى من أى تغير ـ جعلت أسباب التسلية البسيطة ، التى كنت أستبيحها ، أكثر امتاعا . وكانت أولى هذه الأسباب وألطفها هى مصاحبة الأكفاء من الناس : السادة لوبلون ، ودى سان سير ، وكاريو ، والتونا ، وسيد فورلانى[1] نسيت ـ لشدة أسفى ـ اسمه ، ولكنى لا أستطيع أن أذكر لطفه دون أن تتأثر نفسى . ولقد أوتى ـ دون كل من عرفت من الرجال ـ أقرب القلوب شبها بقلبى . ولقد ارتبطنا كذلك باثنين أو ثلاثة من الإنجليز، واسعى الذكاء والمعرفة، مشغوفين مثلنا بالموسيقى . وكانت لهؤلاء السادة جميعا زوجات ، أو صديقات ، أو عشيقات . وكن جميعا ـ تقريبا ـ نساء موهوبات ، تعزف الموسيقى ويدور الرقص فى بيوتهن . وكان

(١) الفورلان اسم يطلق على ابناء منطقة (فريول) ، التى يقع جزء منها ـ الآن ـ فى النمسا ، وجزء آخر فى ايطاليا . وهناك رقصة باسم « فورلان ».

لعب الميسر يدور هناك أيضا ، ولكن فى القليل النادر ، إذ أن ميولنا النزاعة ، ومواهبنا ، وشغفنا بالمسرح ، جعلت هذه التسلية ــ الميسر ــ عقيمة ، فالمقامرة ليست تسلية إلا لأولئك الذين يستبد بهم الضجر ! . . وكنت قد حملت معى من باريس، التحامل الذى خلقه الشعور القومى ضد الموسيقى الإيطالية ، ولكننى كنت قد أوتيت من الطبيعة ذلك الإدراك المرهف الذى لا يمكن لمثل هذا التحامل أن يصمد أمامه . فسرعان ما سرى إلى نفسى ذلك الشغف الذى توحيه الموسيقى الإيطالية إلى أولئك الذين يملكون القدرة على الحكم الصحيح بصددها . وإذ سمعت «الباركارول»(١) تبينت أننى لم أسمع قبل ذلك غناء! . . وسرعان ما أولعت بالأوبرا ولعا جنونيا ، حتى أننى كنت حين أضيق بالثرثرة والأكل واللعب فى المقصورات ــ فى الوقت الذى لم أكن أهفو فيه إلا إلى الانصات ــ أتسلل فى كثير من الأحيان من رفاقى ، لأذهب إلى ناحية أخرى من الدار . وهناك كنت أجلس وحيدا فى مقصورة مغلقة ، وأسلم نفسى للذة الاستمتاع بالأداء ، برغم طوله ، دون أن يزعجنى شىء ، حتى نهاية السهرة . وفى ذات يوم ، استسلمت للنوم ــ فى مسرح سان كريزوستوم ــ فاستغرقت فيه بدرجة لم أنعم بها قط فى فراشى، ولم تقو الألحان الصاخبة ، الرائعة ، على إيقاظى ، ولكن . . من لى بمن يصف الشعور العذب الذى أحدثه فى نفسى النغم الناعم والغناء الملائكى اللذان أيقظانى ! . . وأية يقظة ، وأى

---

(١) اغانى نوتية الجندول .

استغراق ، وأية نشوة تلك التى استشعرتها حين فتحت أذنى وعينى فى آن واحد ! .. كانت أول فكرة واتتنى هى أننى كنت فى الفردوس ! .. كانت تلك المقطوعة الرائعة ، التى لا أزال أذكرها ، والتى لن انساها ما حييت ، تبدأ هكذا :

« استحوذت على الجميلة .. التى أثارت أعماقى »(١) .

ورغبت فى أن أحصل على لحن هذه القطعة ، وقد ظفرت به ، واحتفظت به زمنا طويلا ، ولكنه لم يكن على الورق فى روعته التى كان بها فى ذاكرتى .. كانت الأنغام واحدة ، ومع ذلك فإن اللحن لم يكن واحدا .. لم يكن من سبيل إلى أداء اللحن بالروعة السماوية التى كان يتردد بها فى رأسى ، والتى كان يؤدى بها فى الواقع عندما ايقظنى !

اما الموسيقى التى تعتبر ـ فى رأيى ـ أسمى من موسيقى الأوبرا ، والتى لا مثيل لها فى إيطاليا أو فى بقيـــة العالم ، فهى موسيقى « الاسكوله » .. و « الاسكوله » بيوت خيرية انشئت لتعليم الفتيات الصغيرات اللائى لا موارد لهن ، واللائى تعدهن الجمهورية بعـــد ذلك ، إما للزواج ، وإما للالتحاق بالأديرة . وللموسيقى المكانة الأولى بين المواهب التى تنمى فى هؤلاء الفتيات الصغيرات . ففى يوم الأحد من كل أسبوع ، وفى كنيسة كل من هذه « الاسكولات » الأربع ، تؤدى خلال قداســـات الغروب مقطوعات(١) يشترك فيها عدد كبير من المنشدات وعدد كبير من العازفات ، ويقوم بتأليفها وتلحينها وإدارة ادائها اكبر

---

(١) Conservami la bella che si m'accende il con.

الموسيقيين الإيطاليين .. وهى تؤدى فى المقصـــورات ذات الحواجز المصنوعة من الخشب المتشابك (المعشق كجدران المنابر) . ويقتصر أداؤها على الفتيات اللائى لا تبلغ أكبر واحدة منهن العشرين من عمرها .. وليس بوسعى أن أتصور شيئا ألذ وأعذب وأكثر تأثيرا فى النفس من هذه الموسيقى . فإن دسامة الفن ، وعذوبة الغناء ، وجمال الأصوات ودقة الأداء .. كل ما فى هذه الحفلات الموسيقية البهيجة ، يساهم فى خلق انطباع لا ينسب قطعا إلى « جودة الأسلوب » ، ولكنى أرتاب فى أن ثمة قلبا بشريا فى مناعة منه ! .. ولم يتخل كاريو وإياى قط عن حضور هذه القداسات فى كنيسة « المنديكتـــانى » ، ولم نكن الوحيدين فى ذلك ، فقد كانت الكنيسة دائما تغص بالهواة .. بل ان ممثلى الأوبرا أنفسهم كانوا يذهبون لينموا ذوقهم الغنائى مسترشدين بهذه النماذج الرائعة . وكان الشىء الذى يدفعنى إلى القنوط ، يتمثل فى تلك الجدران الخشبية اللعينة ، التى لم تكن تسمح بمرور شىء سوى الأصوات ، والتى كانت تحجب عنى الملائكة اللائى قد أوتين ـــ ولابد ـــ جمـــالا يليق بهـــذه الأصوات ! .. ولم يكن لى من حديث إلا عن هذا الموضوع ، وقد تحدثت فيه يوما ، فى دار السيد لوبلون ، فقال : « إذا كنت شديد الشوق إلى أن ترى هؤلاء الفتيات الصغيرات ، فمن

---

(١) المتطوعات المقصودة «Motets» وهى متطوعات موسيقية غنائية دينية ، تنظم من التعاليم اللاتينية الخاصة بالطقوس الدينية .

السهل إرضاء شوقك . فإننى من المشرفين على المؤسسة ، وكم أود أن أدعوك إلى وجبة خفيفة[1] معهن ! » .

ولم أتركه يرتاح حتى بر بوعده . وإذ دخلت القاعة التى ضمت هؤلاء الجميلات اللائى طال شوقى إليهن ، استشعرت رجفة عاشقة لم أعهدها من قبل . وقدم السيد لوبلون إلى هؤلاء المغنيات الشهيرات ، اللائى كانت أسماؤهن وأصواتهن هى كل ما عرفته عنهن : « تعالى يا صوفى ! » .. انها بشعة الخلقة ! .. « تعالى يا كاتينا ! » .. إنها ذات عين واحدة! .. « تعالى يا بتينا ! » .. كان الجدرى يشوه وجهها ! .. لم تكد توجد بينهن واحدة تخلو من عيب ظاهر .. وضحك القاسى من المفاجأة العنيفة التى صادفتنى .. على أنه كانت بينهن اثنتان أو ثلاث يبدون مقبولات الشكل ! .. ولم يكن يتقن الغناء إلا مجتمعات (فى كورس) ، فتولانى الأسى . وفى أثناء الوجبة الخفيفة ، رحنا نداعبهن فإذا المرح يفيض بهن ، وإذا الدمامة لا تخلو من بعض آيات البهاء التى تبينت وجودها فيهن . فقلت لنفسى : ما كن ليقوين على مثل هذا الغناء الرائع ، ما لم يكن قد أوتين أرواحا سامية .. وكن كذلك فعلا . وأخيرا ، تغير رأيى فيهن إلى درجة أننى انصرفت وأنا شبه متيم بهؤلاء الدميمات ! .. وجرؤت ــ فى عناء ــ على العودة إلى حضور قداسهن ، وقد تبينت ما طمأننى . وقد ظللت أجد غناءهن عذبا ، وأرى أن أصواتهن كانت تضفى على وجوههن بهاء ،

---

(1) Gouter « تصبيرة » أو وجبة خفيفة بين الغداء والعشاء .



وقدم السيد لوبلون الى هؤلاء المغنيات الشهيرات ، اللاتى كانت أسماؤهن وأصواتهن هى كل ما عرفته عنهن .

حتى أننى كنت أصر ـ ما دمت أسمع غناءهن ـ على أن أتصورهن جميلات ، بالرغم مما كانت تصر عليه عيناى !

والموسيقى ـ فى إيطاليا ـ لا تكاد تتكلف شيئا يذكر ، ومن ثم فان حرمان النفس منها ـ إذا كان لدى المرء ميل إليها ـ لا يكاد يستحق العناء الذى يبذل فى سبيل ذلك . وقد استأجرت معزفا ، وكنت فى مقابل « ايكو » واحد ، أستقدم إلى دارى اربعة أو خمسة من عازفى الموسيقى الغنائية ، أتدرب معهم ـ مرة فى الأسبوع ـ على عزف القطع التى تكون قد استأثرت بأعظم قدر من اعجابى فى « الأوبرا » . وكنت أجرب كذلك عزف بعض الألحان الغنائية التى ضمتها « عرائس الشعر اللطاف »(١) ولقد سألنى أستاذ الموسيقى الايقاعية فى « سان جان كريسوستوم » قطعتين منهما ـ أما لأنه أعجب بهما حقا ، وأما لأنه أراد أن يتملقنى ـ فسرنى أن أسمعهما تؤديان على أيدى فرقته الرائعة ، وأن تؤدى رقصاتهما الصغيرة « بتينا » .. وهى فتاة جميلة لطيفة ، كان يرعاها أسبانى من أصدقائها يدعى « فاجواجا » ، كثيرا ما قضينا السهرات فى داره .

* * *

أما عن النساء ، فليس لرجل أن يعرض عنهن فى مدينة كالبندقية !.. وقد يقال لى : « أليس لديك ما تعترف به فى هذا الصدد ؟ » .. بلى ، فان لدى ما يقال فعلا ، وانى لمقدم على هذا الاعتراف بنفس الصراحة التى اتبعتها فى كل

(١) « الأوبرا » التى كان « روسو » قد الفها فى باريس .

اعترافاتى الأخرى .. ولقد كنت دائما أنفر من البغايا ، بيد أنه لم يكن لدى سواهن فى البندقية ، إذ كان محرما على ولوج معظم البيوت فى المدينة ، من جراء منصبى . ولقد كانت فتيات السيد لوبلون جد لطيفات ، ولكن التقرب اليهن كان أمرا عسيرا ، كما أن احترامى لأبيهن وأمهن كان أعظم من أن يسول لى مجرد التفكير فى اشتهائهن !

ولقد كنت خليقا بأن اميل كل الميل إلى شابة تدعى الآنسة دى « كاتاليو » ، كانت ابنة مندوب ملك بروسيا . ولكن كاريو كان يهواها ، حتى أنه كان يسعى إلى الزواج منها .. ولقد كان ميسور الحال ، فى حين أننى لم أكن أملك شيئا .. كان مرتبه مائة « لوى » ، أما أنا فلم أكن اتقاضى سوى مائة « بيستول » . وبغض النظر عن أننى ما كنت لأستبيح أن اسطو على صيد صديقى ، فانى كنت ادرك ان ليس لرجل خالى الوفاض أن يقدم على التقرب إلى الحسان ، إينما يكن .. ولو كان فى البندقية ! .. ولم أكن قد فقدت عادتى المشئومة ، وأعنى بها استبدال الحاجات التى أصبو إليها . ولما كنت جد مشغول إلى درجة لا تدع لى سبيلا إلى الشعور الملح بالحاجات التى يخلقها الجو المحيط بى ، فاننى عشت فى هذه المدينة عاما تقريبا ، وأنا محتفظ بما كان لى — فى باريس — من طهر وحكمة .. كما تركتها بعد ثمانية عشر شهرا دون أن أقرب الجنس اللطيف فيما عدا مرتين ، وبسبب المناسبتين غير العاديتين اللتين سأذكرهما فيما يلى :

ولقد اتاح لى أولاهما السيد الشريف فيتالى (١) ، بعد انقضاء فترة على الاعتذار الذى اجبرته على ان يقدمه لى فى اكمل صيغة رسمية . فقد دار الحديث حول المائدة عن ملاهى البندقية ، فأخذ السادة يعتبون على عدم اكتراثى بأشد هذه الملاهى حرارة ، ويطنبون فى إطراء رقة الغوانى البندقيات ، قائلين ان ليس فى العالم من يضارعهن . وقال دومينيك إننى خليق بأن أتعرف إلى ابدعهن طرا ، وانه يرجو أن يقدمنى إليها، واننى سأطرب لمعرفتها . وانطلقت أضحك لهذا الاقتراح المحرج ، فاذا بالكونت بياتى ــ وكان كهلا وقورا ــ يقول فى صراحة لم أكن أتوقعها من إيطالى ، إنه يؤمن بأننى أعقل من أن أدع عدوى يقودنى إلى دار غانية. والواقع أننى لم أستشعر ميلا ، ولا تأثرت بإغراء ، ولكننى انتهيت بالرغم من ذلك ــ وبدافع من إحدى النزوات المتناقضة التى لم أكن أملك أن أفهمها ــ إلى أن تركت عدوى يقودنى ، على النقيض من إملاء ميولى، وقلبى ، وعقلى ، بل وإرادتى .. كنت منساقا له لمجرد الضعف والخجل من ابداء عدم الثقة به ، أو بلسان تلك البلاد :

Per non Parer Troppo Coglione (٢) ولقد كانت « البادوانا » (٣) التى ذهبا إليها ذات وجه لا باس بحسنه بل إنه كان جميلا ، ولكن جماله لم يكن من الطراز الذى يروق لى.

---

(١) واضح أن « روسو » يسخر من « فيتالى » اذ يصفه بانه شريف .

(٢) عبارة ايطالية معناها : « لكى لا ابدو مفرط الغباء » .

(٣) الغانية ، أو المومس .

وتركنى دومينيك فى دارها ، فأرسلت فى طلب بعض المثلوجات « آيس كريم » ، وسألتها أن تغنى لى ، ثم تهيأت ـ بعد نصف ساعة ـ للانصراف ، تاركا على المنضدة « دوكا »(١) ، ولكنها فى عزة نفس غريبة ـ أبت إطلاقا أن تقبل المبلغ دون أن تكون قد أدت ما يقابله .. وفى غباء ـ لا يقل غرابة ـ أرضيت عزة نفسها ! .. وعدت إلى القصر وأنا موقن من أننى أصبت بمرض خبيث ، حتى أن أول ما فعلت هو أن أرسلت فى طلب طبيب لأطلب منه بعض الأدوية . وليس ثمة ما يعادل الغم الذى عانيته طوال ثلاثة أشهر ، دون ما علة حقيقية ، ودون ظهور أية علامة تبرره . فما كنت لأتصور أن من الممكن مغادرة أحضان مومس دون ما ضرر ! .. بل إن الطبيب نفسه تجشم كل عناء يمكن تصوره ، لكى يطمئننى ، فلم يوفق إلا إلى اقناعى بأننى كنت مخلوقا على نمط خاص ، لا يجعلنى أصاب بالعدوى بسهولة . ومع أننى قد أكون أقل من أى رجل آخر تعرضا لهذا الخطر ، إلا أن عدم تأثر صحتى البتة من هذه الناحية بالذات ، يبدو لى دليلا على أن الطبيب كان مصيبا ! .. على أن هذا الرأى لم يجعلنى متهورا قط ، وإذ كنت قد أوتيت فعلا هذه الميزة الطبيعية ، فان فى وسعى أن أقول أننى لم أسىء استغلالها !

* * *

أما مغامرتى الأخرى ، فمع أنها كانت مع غانية كذلك ، إلا أنها كانت من نوع جد مختلف ، سواء فى أصلها أو فى نتائجها .

---

(١) عملة ذهبية كانت قيمتها تتراوح بين ١٠ و ١٢ فرنكا .

فلقد ذكرت أن الكابتن أوليفييه ـ الربان ـ قد دعانى إلى الغداء على ظهر سفينة ، وأننى اصطحبت سكرتير السفارة الأسبانية . وكنت أتوقع أن تحيينا المدافع ، فاذا البحارة يستقبلوننا مصطفين، ولكن قطعة واحدة من الذخيرة لم تشعل، مما غاظنى كثيرا ، بسبب كاريو ، الذى رأيته مستاء . والواقع أن التحية بطلقات المدافع ـ على السفن التجارية ـ كانت تؤدى لأناس لا يعادلوننا مقاما بالتأكيد ، كما أننى كنت أخالنى جديرا بشىء من التميز من الربان . ولم استطع أن أخفى ما كان بنفسى ، فقد كان ذلك أمرا مستحيلا دائما . ومع أن الغداء كان بديعا ، وقد أدار أوليفييه الأنخاب فى إكرام رائع ، فاننى بدأت المأدبة وأنا منحرف المزاج ، ومن ثم فقد أكلت قليلا وتكلمت أقل !

وعند احتساء النخب الأول ، توقعت تصفيقا على الأقل ، ولكن شيئا من هذا لم يحدث . . وضحك كاريو ـ الذى قرأ ما فى خاطرى ـ إذ رآنى اغمغم كالطفل . وفى ثلث الغداء ، رأيت جندولا يقترب ، وإذا الربان يقول لى : « لعمرى ! . . خذ حذرك يا سيدى فها هو ذا العدو ! » فسألته عما كان يعنى ، وإذ ذاك أجاب بدعابة . ورسا الجندول بجوار السفينة ، فرأيت فتاة باهرة الجمال ، بالغة الرشاقة ، فى ثياب مغرية ، تغادره . . وفى ثلاث قفزات كانت فى الغرفة . ورأيتها تستقر إلى جوارى ، قبل أن أفطن إلى أن ثمة مكانا قد أعد لها ! . . وكانت فاتنة بقدر ما كانت رشيقة . . سمراء فى العشرين من عمرها، على الأكثر ! . . ولم تكن تتكلم بغير اللغة الإيطالية ، وكانت

لهجتها وحدها كافية لأن تدير رأسى . وفيما كانت تأكل وتتكلم، أخذت ترمقنى ، ثم تفرست فى لحظة ، وما لبثت أن صاحت : « يا للعذراء الطيبة ! .. آه ! ما أطول الوقت الذى انقضى يا عزيزى بريمون دون أن أراك ! » .. وارتمت فى أحضانى، والصقت فمها بفمى ، واحتضنتنى حتى كادت تزهق أنفاسى !.. وراحت عيناها الواسعتان السوداوان ــ على غرار العيون الشرقية ــ ترميان قلبى بشواظ من لهب . ومع أن المفاجـــأة أحدثت شيئا من الاضـــطراب فى البداية ، إلا أن غـــريزتى الشهوية سرعان ما تملكتنى ــ بالرغم من الحضور ــ إلى درجة أن الفاتنة نفسها اضطرت إلى أن تكبح جماحى ، إذ أننى ثملت ، أو بالأحـــرى جننت ! .. فلمـــا رأتنى قـــد بلغت الدرجة التى كانت ترجوها ، خففت من عناقها ، ولكنهـــا لم تخفف من فورة عواطفها .. حتى إذا راق لها أن تبدى لنـــا السبب الحقيقى أو الزائف لهذا النزق قالت لنا اننى كنت أشبه السيد دى بريمون ، مدير جمرك توسكانى ، إلى درجة يصعب معها التمييز بيننا .. وأنها كانت ــ ولا تزال ــ متيمة بهـــذا السيد دى بريمون ، وأنها كانت قد هجرته لحماقتها .. وأنها قد اختارتنى بديلا عنه ، فشاءت أن تهوانى ، لأن هذا كان يروق لها ، وأن من الواجب ــ للسبب ذاته ! ــ أن أحبها ، طالما ظل هذا يلائمها ، فاذا ما هجرتنى فجأة ، وجب أن أحتملهـــا صابرا ، كما كان يفعل عزيزها بريمون ! .. واستولت على كما لو أننى كنت ملك يمينها ، فعهدت إلى بقفازيها ، ومروحتها، وحزامها ، وقلنسوتها .. وراحت تأمرنى بأن أذهب إلى هنا أو هناك ، وأن افعل هذا أو ذاك ، وأنا أطيعها !.. وقالت لى

أن أذهب فأصرف جندولها ، لأنها كانت راغبة فى اســتخدام جندولى ، فصدعت !.. وأمرتنى بأن أغادر مكانى ، وأن أرجو « كاريو » بأن يحل فيه محلى ، لأنها كانت تريد أن تتحدث إليه، ففعلت !. . وتحدثا طويلا ، فى صوت جد خفيض ، فتركتهما يفعــلان .. ونادتنى ، فخففت إليها ، فقالت لى : « أســمع يا جانيتو .. لست أريد البتة أن أكون محبوبة على الطــريقة الفرنسية ، إذ ليس من ورائها طائل فى الواقــع .. ففى أول لحظة تشعر فيها بالضجر ، لك أن تمضى عنى . ولكن ، لا تمكث بين بين .. إننى أنذرك ! » .

وذهبنا بعد الغداء لمشاهدة مصنع الزجاج فى (مورانو) ، فابتاعت كثيرا من التحف الصغيرة ، التى تركتنا ندفع ثمنها فى غير كلفة .. ولكنها كانت ـــ فى كل مكان ـــ تجود بما يفوق بكثير كل ما أنفقنا . وكان من الواضح ـــ من الاستخفاف الذى كانت تبعثر به نقودها ، وتحملنا على أن نبعثر نقودنا ـــ أنها لم تكن تقيم للمال وزنا .. وأعتقد أنها عندما كانت تطلب أجرا لنفسها، لم تكن تصدر فى طلبها عن جشع بقدر ما كانت تصدر عن زهو . فقد كانت تطرب للأجر الذى يدفع فى مقابل المتع التى تجود بها!

وفى المساء ، ذهبنا إلى دارها . وفيما كنا نتحدث ، لمحت مسدسين على منضدة الزينة ، فقلت لها وأنا أتناول أحدهما : « آه ! آه !.. هاكم مصيدة للذباب من نوع جديد .. هل من سبيل إلى معرفة فيم تستخدم ؟ .. إننى أعــرف أن لديك أسلحة أخرى ، أقوى فتكا من هذا ! » .. وبعد بضع مداعبات من هذا القبيل ، قالت لنا فى غرور أرعن ، زادها فتنة : «عندما أتكرم على أولئك الذين لا أحبهم ، فاننى أتقاضاهم ثمن الضجر

الذى يسببونه لى ، وليس هناك ما هو أعدل من هذا ! .. على أننى وإن احتملت عناقهم ، فلست أحب إطلاقا أن أحتمل إهاناتهم .. ولن أخطىء إصابة أول رجل ينتقص من شأنى!».

وعند انصرافى ، اتفقنا على الموعد الذى أوافيها فيه ، فى اليوم التالى .. ولم أدعها تنتظر ، ووجدتها فى « ثوب الخلوة »(١) .. وهو ثوب مكشوف ، أكثر من أن يوصف بأنه خليع ، غير معروف إلا فى الدول الجنوبية ، ولن أمتع نفسى بوصفه ، برغم أننى أذكره تماما ! .. كل ما سأقوله هو أن كميه وفتحة عنقه كانت مطرزة بخيط حريرى ، مزدان بكرات صغيرة فى لون الورد . وقد بدا لى أن هذا كان يضاعف من تورد بشرتها الرائعة الجمال . وقد تبينت فيما بعد أن هذا الزى كان من المستحدثات الرائجة فى (البندقية) ، وأنه كان ذا تأثير جد فاتن ، حتى أننى لأعجب من أنه لم ينتقل قط إلى فرنسا . ولم تكن لدى أدنى فكرة عن الغواية التى كانت فى انتظارى .. لقد تحدثت عن مدام دى « لارناج » ، وأنا فى تلك النشوات التى تنقلنى إليها ذكراها فى بعض الأحيان ، ولكن .. لشد ما كانت عجوزا ، ودميمة ، وباردة الحس ، إذا قيست بحبيبتى « جولييتا » ! .. ولا تحاولوا أن تتصوروا مفاتن ومحاسن هذه الفتاة الساحرة ، فلسوف تظلون بعيدين كل البعد عن الحقيقة ! .. إن عذارى الأديرة أقل نضرة ، وحسان الحريم أقل حيوية ، وحوريات الجنة أقل جاذبية !.. أبدا ما حظى قلب

---

(١) Investito di confidenza

وحواس إنسان فان بمثل تلك المتعة الحلوة !.. آه ! ليتنى عرفت كيف أتذوقها فى أتم كمالها للحظة واحدة ، على الأقل !.. لقد تذوقتها حقا ، ولكن دون ما افتتان ، إذ أننى أفسدت كل الملذات .. قتلتها وأنا غير حافل ، كما ينبغى أن يقال . لا ، ان الطبيعة لم تخلقنى قط للاستمتاع ، وإنما بثت فى رأسى الفاسد سم هذه السعادة التى لا سبيل إلى وصفها ، والتى غرست فى قلبى شهوة الشوق إليها !

* * *

وإذا كان فى حياتى ظرف واحد يعبر تمام التعبير عن فطرتى ، فهو هذا الذى أوشك أن أرويه . ان القوة التى أذكر بها ــ فى هذه اللحظة ــ الغاية المنشودة من كتابى ، لتجعلنى أطرح عنى الحياء الكاذب الذى يمنعنى من أن أحققها . فعليك أيها الراغب فى معرفة دخيلة قلب إنسان ــ أيا كنت أنت ــ أن تتجلد إذ تقرأ الصفحتين أو الثلاث التالية ، فسوف تعرف فيها جان جاكَ روسو معرفة تامة !

لقد كنت ألج غرفة الغانية ، وكأننى ألج معبدا للحب والجمال .. وكنت أخال أننى أبصر القداسة فى شخصها ، فما كنت لأعتقد أن بوسعى أن أحظى بالانفعالات التى ألهمتنيها ما لم أحترمها وأقدرها . ولم أكد أعرف ــ خلال محاولات التقارب والتآلف الأولى ــ نعم مفاتنها وعناقها ، حتى تولانى الخوف من أن أفقد ثمارها مقدما ، ومن ثم فقد تقت إلى التعجيل باقتطافها . وفجأة ، أحسست ــ بدلا من النيران التى كانت تكوينى ــ ببرودة قاتلة تسرى فى عروقى ، وخذلتنى ساقاى ،

فجلست وأنا أرى نفسى موشكا على الاغماء ، ورحت أبـــكى كالطفل !

ترى منذا الذى يستطيع أن يحدس سبب دموعى وما كان يجرى فى رأسى فى هذه اللحظة ؟.. كنت أقول لنفسى : « إن هذه الحسناء التى أجدها فى متناولى هى أروع نتاج الطبيعـــة والحب .. فالروح والجسد فى أكمل آياتهما .. وإنها لطيبـــة وكريمة كما انها جميلة وبديعة .. وخليق بالعظماء والأمراء أن يكونوا عبيدا لها ، كما يجدر بصولجانات الملك أن تكون عنـــد قدميها .. ومع ذلك ، فها هى ذى تعسة ، تجوب الطرقات ، فى خدمة كل إنسان .. لقد نفض أحد ربابنة السفن التجارية يديه منها ، فجاءت وألقت بنفسها على رأسى .. على أنا الذى كانت تعرف أنه لا يملك شيئا .. أنا الذى لم يكن بوسعها ان تعرف فضائله ، ولا كانت هذه الفضائل شيئا يذكر فى نظرها ! .. ان ثمة شيئا يجل عن الادراك ، فى هـــذا . فاما أن قلبى يخدعنى ويزيغ حواسى ويجعلنى مطية مومس لا قيمة لها ، وإما أن ثمة عيبا خفيـــا لا أدريه ، يهدم مفعول مفاتنها ، ويحيلها قميئة فى نظر أولئك الذين كانوا خليقين ـــ لولا ذلك ـــ بأن يتناحروا فى سبيل الظفر بها » .. وشرعت ابحث عن هـــذا العيب فى استغراق عجيب ، دون أن يخطر لى البتة أن للفسق والعهر نصيبا فى ذلك . فإن نضرة بشرتها ، وإشراق محياها، واسنانها التى كان بياضها يبهر البشر، وحلاوة أنفاسها ، والجو العام المحيط بشخصها والموحى بالنظافة .. كل هذا محا هذه الفكرة تماما من ذهنى . وإذ كنت لا أزال فى شك من حالى ـــ

منذ زياراتى لبيت البغى « البادوانا » ـ فقد وسوست لنفسى بالخوف من أننى لم أكن فى صحة تجعلنى أهلا لها ، واقتنعت كل الاقتناع بأن يقينى من هذا لم يكن زائفا !

ولقد أهاجتنى هذه الخواطر ـ التى جاءت فى حينها المناسب ـ إلى الدرجة التى أبكتنى . أما « جولييتا » ـ التى كان هذا المنظر جديدا عليهـا ولا ريب ، فى مثل تلك الظـروف ـ فقد بهتت لحظة ، ولكنها بعد أن تمشت فى ارجاء الحجرة ، ومرت أمام مرآتها ، أدركت الحقيقة ، كما أكدت لها عيناى أن هـذا الأسى التهوسى لم يكن من النفور فى شىء . ولم يكن عسيرا عليها أن تبرئنى منه ، وأن تمحو الحياء الطفيف . ولكننى إذ هممت بأن انطرح متهالكا على هذا النحر الذى بدا وكأنه كان يسمح ـ للمرة الأولى ـ ليد رجل وفمه بأن يمساه ، لمحت أنها لم تؤت سوى حلمة ثدى واحـدة . وضربت جبهتى براحتى ، وتفرست ، فخيل إلى أننى أرى أن هذه الحلمة لم تكن على غـرار الأخرى فى الشكل . وإذا بى أنقب فى ذهنى عن تعليل لوجود حلمة شوهاء ، ولما رحت أقلب الفكر ، اقتنعت بأن لهذه الظاهـرة علاقة بعيب طبيعى واضح .. وتجلى لى ـ كوضح النهار ـ أننى لم أكن أحتضن بين ذراعى أجمل حسـناء كان بوسعى أن أتصورها ، وإنما كنت أضم نوعا من المسخ . كنت أضم نفاية الطبيعة ، والرجال ، والحب . وذهبت فى غبائى إلى حد أن أحدثها عن هـذا العيب ، فتلقت الأمر ـ فى البداية ـ على محمل الدعابة ، وقالت فى مرحها وفعلت أشياء كانت كفيلة بأن تميتنى هياما ، ولكنها حين رأت بقيـة من قلق لم أقو على

إخفائها ، إذ بها تتضرج خجلا ــ فى النهاية ــ فتعتدل ، وتسوى ثيابها .. ثم سارت ــ دون أن تنبس بكلمة واحدة ــ فجلست لدى نافذة مخدعهـــا . ورغبت فى أن أجلس إلى جوارهـــا ، فغادرت مكانهـــا وجلست على أريكة ، ثم نهضت بعد لحظة وتمشت فى الحجرة وهى تزفر ، وقالت فى لهجة قاسية ، مهينة: « جانيتو » .. دع النساء ، وادرس العلوم الرياضية » !

وقبل أن أبرحها ، سألتها موعدا آخر كى ألقـــاها فى اليوم التالى ، فأرجاته إلى اليوم الثالث ، وأردفت ــ وهى تبتسم ابتسامة ساخرة ــ اننى ولا بد بحاجة إلى الاستجمام . وقضيت هذا الوقت متوعك المزاج ، ملىء القلب بمفاتنها وحســنها ، شاعرا بحماقتى ، لائما نفسى ، متحسرا على اللحظـــات التى أسأت استغلالها ــ والتى كان فى يدى ، أنا وحدى ، أن أجعلها أعذب لحظات حياتى ــ مترقبا بأشد الوان نفاد الصبر اللحظات التى أستطيع فيها أن أعوض ما فاتنى .. ولكننى ظللت ــ مع ذلك ــ قلقا بالرغم من نفسى ، لا أدرى كيف أوفق بين مفاتن هذه الفتاة الرائعة ، وبين فحش حالها .. وهرعت ، بل طرت إلى دارها فى الموعد المحدد . ولست أدرى أكانت هذه الزيارة خليقة بأن تضاعف من إرضاء طباعها الحادة .. كان غرورها ــ على الأقل ــ قمينا بأن يجد فى الزيارة عملا يتملقه ، ومن ثم رحت أستمتع ــ سلفا ــ بغبطة ما كنت أعتزمه من أن أريها ، بكل الوسائل ، اننى كنت أعرف كيف أصلح أخطائى . ولكنها أعفتنى من هذا العناء . فان نوتى الجندول ــ الذى أوفدته إلى دارها ، عندما رسونا ــ عاد إلى بنبأ رحيلها فى اليـــوم السابق

إلى (فلورنسا) . وإذا كنت لم أشعر بمدى حبى لها عندما كانت بين ذراعى ، فقد شعرت به فى قسوة إذ فقدتها ! .. ولم يفارقنى قط ندمى المهتاج .. ولقد استطعت أن أتعزى عن فقدها ـــ وهى التى كانت موفورة اللطف وموفورة الفتنة فى عينى ـــ ولكنى أعترف بأننى لم أستطع البتة أن أهون على نفسى الفكرة التى راودتنى من أنها لم تحمل معها عنى سوى ذكرى مهينة زرية !

* * *

هاتان هما قصتاى الوحيدتان ، فإن الشهور الثمانية عشر التى قضيتها فى البندقية لم تخلف لى مزيدا أرويه ، اللهم إلا غراما لم يتجاوز أن يكون مجرد .. مشروع ! فلقد كان «كاريو» مشغوفا بالنساء ، وقد سئم الذهاب دائما إلى دور فتيات كن على علاقات بسواه، فساورته نزوة أن تكون له بدوره عشيقة . ولما كنا لا نفترق ، فقد اقترح على مشروعا لم يكن نادر المثال فى البندقية : أن نقتنى فيما بيننا عشيقة ! .. ولقد وافقت على ذلك ، وبقى أن يجد غانية نطمئن إليها .. وبحث كثيرا ، حتى اهتدى إلى فتاة صغيرة ، فيما بين الحادية عشرة والثانية عشرة من العمر، كانت أمها الخسيسة تسعى لكى تبيعها . وشاهدناها معها ، فاهتز قلبى إشفاقا إذ رأيت تلك الطفلة . . كانت شقراء، وادعة كالحمل ، لا يظن من يراها أنها إيطالية . وكانت نفقات المعيشة فى (البندقية) زهيدة ، فأعطينـــا الأم بعض المال ، وتكفلنا بأن نعول الفتاة . وكان لها صوت رخيم ، فوهبناها معزفا صغيرا ، واستأجرنا لها مدرسا ليلقنها الغناء ، كى نهيىء

لها وسيلة للعيش وكان كل هذا لا يكاد يكلف كلا منا قطعتين من فئة « السيكان » فى الشهر ، وقد كان كفيــلا بأن يوفر علينــا نفقات أخرى . ولكنه كان بمثابة البذر الذى لن يؤون حصاده إلا بعد أمد طويل ، إذ لم يكن ثمة بد من أن ننتظر حتى تنضج الفتـــاة ! .. على أننا كنا قانعين بأن نتردد على الدار(١) ، فنقضى أمسياتنا فى لعب وثرثرة بريئين مع هذه الصبية ، فننعم بلهو قد يكون أنسب وافضل مما كنا نحظى به لو أننا نلنا منهــا وطرا .. وكم هو صحيح أن أشد ما يجذبنا إلى النساء لا يمت إلى الفسق بقدر ما يمت إلى لون خاص من المتعة يستمد من الاقامة بالقرب منهن .. ولقد تعلق قلبى بالصغيرة « انجوليتا » فى شغف جنــونى ، ولكن هــذا الميل كان ابويا !.. ولم يكن لشهواتى اثر يذكر فى ذلك ، فبقدر ما اخــذ حبى ينمو ، راح احتمال السماح لهذه الشهوات بأن تكون ذات سلطان عليــه يتضاءل .. وكنت اشعر بأننى خليق بأن استبشع أن امس هذه الفتاة ــ إذا ما أدركت سن البلوغ ــ كما لو أن هذا العمل كان فاحشة مرذولة !.. وكنت أرى مشاعر كاريو الطيب تتخذ عين الاتجاه ، دون أن يفطن .. كنا قد دبرنا لأنفسنا ــ دون أن نتكبد عناء التفكير فى الأمر ــ متعا لا تقل عذوبة عن تلك التى كنــا قد فكرنا فيها من قبل ، وإن اختلفت عنها . وانى لواثق من أننا كنا زاعمين بأن نظل حاميين للفتاة ، لا مفسدين لها ، مهما كان يحتمل أن يصير إليه جمالها إذا ما كبرت . على أن نكبتى(٢)

---

(١) كانت الصبية تقيم مع أمها ، ويتكفل روسو وصديقه بنفقاتها .

(٢) يقصد خلافه مع السفير ومبارحته البندقية .

وقعت بعد ذلك بقليل ، فلم تدعنى أساهم فى هذا العمل الطيب، ولم يعد لى من نصيب فى هذه المسألة اللهم إلا ميول قلبى . . فلنعد الآن إلى رحلتى :

كان أول ما فكرت فيه بعد مغادرتى دار السيد دى مونتيجى، هو أن أعود إلى (جنيف) ، أملا فى أن تؤدى بعض الظروف السعيدة إلى إزاحة العقبات وتمكينى من الانضمام إلى « ماما » المسكينة(١) . ولكن الضجة التى أحدثها شجارى مع السفير، وحماقته التى حملته على الكتابة عن ذلك إلى البلاط ، جعلتانى أقرر الذهاب إلى البلاط بنفسى لأقدم حسابا عن مسلكى ، ولأرفع شكواى ضد هذا الرجل المجنون . وكتبت إلى السيد دى « تييل » ـــ القائم بالشئون الخارجية مؤقتا ، عقب وفاة السيد «اميلو» ـــ عن قراره ، ثم بارحت البندقية فى أعقاب رسالتى مباشرة ، فاتخذت طريقى مارا ببيرجامى ، و (كومى)، و (دومو دوسولو) ـــ وعبرت ممر (سيمبلون) . وفى (سيون)، أبدى لى السيد دى «شينيون» ـــ القائم بأعمال فرنسا ـــ ألف مظهر من مظاهر الود . وكذلك فعل السيد ديلا كلوزير ، فى (جنيف) . وهناك ، جددت التعارف مع السيد دى جوفكور ، الذى اضطررت لأن أتقبل منه بعض المال . واجتزت (نيون) دون أن أرى أبى ، ولم يكن هذا العمل ليعفينى من ألم قاس اختلج به فؤادى ، ولكنى لم أكن أملك أن أحمل نفسى على أن أظهر أمام زوجة أبى ، بعد ما أصابنى من سوء الطالع ، إذ كنت

---

(١) يقصد مدام دى فاران طبعا !!

موقنا من أنها ستلقى الذنب على دون أن تسمع قولى . ولقد لامنى «دوفيار» الكتبى ــ وكان صديقا حميما لأبى ــ على هذا الخطأ لوما شديدا ، فذكرت له السبب . ولكى نصلح الخطأ ، استأجرت محفة ورحلنا معا إلى (نيون) ، فهبطنا فى فندق . وانطلق «دوفيار» بحثا عن أبى ، الذى لم يلبث أن جاء مهـــرعا فاحتضننى .. وتناولنا العشاء معاً . وبعد أن قضينا سهرة كانت جد ممتعة لفؤادى ، عدت فى صباح اليوم التـــالى إلى (جنيف) مع دوفيار ، الذى ظللت دائما أذكر له بالعرفان ، ما بذله من فضل فى هذه المناسبة !

* * *

ولم يكن طريق (ليون) هو أقصر الطرق لغايتى ، ولكننى رغبت فى أن أمر بالمدينة ، لأتحرى عن حيلة خسيسة من حيل الســـيد دى مونتيجى . إذ أننى كنت قد اجتلبت من باريس صندوقا صغيرا ضم صديرية وشيت حوافها بالذهب ، وبضعة أزواج من أساور الأقمصة المزركشة ، وستة أزواج من الجوارب الحريرية البيضاء ، ولا شىء أكثر من ذلك . واستجابة لاقتراح عرضه على السيد دى مونتيجى نفسه ، ضممت هذا الصندوق ــ أو بالأحرى ، هـــذه العلبة ــ إلى متاعه . ولكنه فى كشف حساب الصيدلى ــ الذى أراد حملى على قبوله فى مقابل مرتبى ، والذى كتبه هو بيـــده ــ ذكر أن هذه العلبة ، التى أسماها «طردا» ، كانت تزن أحد عشر قنطارا ، وتقاضانى لذلك عن نقلها أجرا هائلا . واســـتطعت التحقق ــ بفضـــل الســـيد بوى ديلاتورا ، الذى أوصاه بى السيد روجان خاله ــ من سجلات

جمارك ليون ومارسيليا ، أن «الطرد» المزعوم لم يكن يزن سوى خمسة وأربعين رطلا ، وأن أجر النقل لم يدفع إلا عن هـذا الوزن . وقد أضفت هذا البيان الرسمى إلى ذكريات السيد دى مونتيجى . وعدت إلى باريس مزودا بهذه الوثائق وبكثير من أمثالها ، وأنا متلهف على استغلالها . ولقد صادفت ـ خلال هذه الطريق الطويلة ـ مغـامرات صغيرة فى (كومى) ، باقليم (فاليه) ، وفى بقاع أخرى . ولقد رأيت ـ فيما رأيت ـ جزر (بوروميه) التى كانت جديرة بأن توصف . ولكن الوقت كان يمر سراعا ، وكان الجواسيس يضيقون على النطاق ، ومن ثم فقد كنت مضطرا إلى أن انجز ـ فى سرعة وبأسوأ حال ـ رحلة كانت تتطلب سـعة من الوقت والطمأنينة ، الأمـر الذى كان يعوزنى . وإذا قدر للعناية أن ترعانى وأن تتيح لى ـ أخيرا ـ أياما أكثر سكينة وطمأنينة ، فلسوف أخصص هذه الأيام لإعادة صوغ هـذا المؤلفة ـ إن استطعت ـ أو لأضيف إليه جزءا مكملا ، أشعر بأنه محتاج إليه كل الاحتياج[1] .

وكان ضجيج قصتى قد سبقنى ، فما أن وصلت إلى باريس حتى الفيت كل امرىء ـ سواء من الرسميين أو من العامة ـ قد استنكر حماقات السفير . وبالرغم من هذا ، وبالرغم من صيحة الرأى العـام فى البنـدقية ، وبالرغم من الأدلة غـير المدحوضة التى قدمتها ، فاننى لم أستطع أن أظفر بالانصاف ! .. بل إن الأمر لم يقتصر على أننى لم أفز بإرضاء ولا بتعويض،

---

(١) عقب «روسو» على ذلك بقوله : «ولقد عدلت الآن عن هذا المشروع».

وإنما تركت — فوق هذا — تحت رحمة السفير ، فيما يتعلق بمرتبى ، وذلك لمجرد اننى لم أكن فرنسيا ، فلم يكن لى الحق فى أن أستجير بالدولة ، ومن ثم فقد كانت المسألة شخصية ، لا تخص سوانا نحن الاثنين ! .. كان كل امرىء يقرنى على اننى أهنت وأوذيت ونكبت ، وعلى أن السفير كان معتوها ، قاسيا ، ظالما ، وأن المسألة كلها كانت عارا باقيا له . ولكن ، ماذا بعد كل هذا ؟!.. لقد كان هو السفير ، أما أنا فلم أكن سوى السكرتير .. وكان النظام الصالح — أو ما يطلق عليه هذا الاسم — يقتضى ألا أنال أى انصـــاف ، فلم أنل شـــيئا منه ! .. ولقد خيل إلى اننى بالشكايات المستمرة ، وبإظهار هذا الأحمق أمام الملأ بما كان يستحق أن يظهر به ، قد أستطيع أن اضطرهم إلى أن يطلبوا إلى أن أعقل لسانى ، وهو عين ما كنت أرتقبه ، إذ أننى كنت قد صممت على الا اطيع حتى أظفر بالانصاف . بيد أنه لم يكن ثمة وزير للخارجية إذ ذاك . ولقد تركت أصرخ ، بل اننى لقيت تشجيعا على ذلك ، ووجدت من ردد صراخى ، ولكن القضية ظلت دائما عند هذا الحد ، حتى سئمت — فى النهاية — أن أظل دواما على حق دون أن أنال إنصافا ، فثبطت عزيمتى ، وبقيت على حالى !

وكان الشخص الوحيد الذى أساء استقبالى ، والذى كان أقل الناس إصغاء لشكاتى ، هى السيدة دى بوزينفال . فقد كانت لفرط اعتزازهـــا بالامتيازات المترتبة على الجاه وســـمو المكانة ، لا تملك أن تفهـــم أن من الممكن لســـفير أن يسىء إلى سكرتيره . وقد كان مسلكها فى اســـتقبالى مطابقا لهـــذه

النعرة الباطلة . ولقد غاظنى هذا ، حتى أننى كتبت إليها — بعد مبارحتى دارها — خطابا لعله أشد وأعنف خطـــاب كتبته فى حياتى ، ولم أذهب إلى دارها بعد ذلك قط ! .. ولقد أكرم الأب كاشيل وفادتى ، ولكننى لمحت — خلال تملقه الجـــزويتى — أنه كان يتبع فى أمانة مبدأ من أعظم مبادىء المجتمع .. ذلك هو: التضحية دائما بالأضعف من أجل خاطر الأقوى ! .. ولكن شعورى المتأجج بعدالة قضيتى ، وكبريائى الفطرية ، لم يدعانى اطيق هذا التحيز صابرا . فكففت عن زيارة الأب كاســـتيل ، وبالتالى زيارة الجيـــزويتيين الذين لم أكن أعــــرف من بينهم سواه ! .. وإلى جانب هذا ، فان روح الجور والدس لدى زملائه ، كانت تختلف عن صلاح الأب هيميه الطيب ، مما جعلنى أشعر بنفور من اجتماعهم ، حتى اننى — منذ ذلك الحين — لم أر أحدا منهم ، اللهم إلا الأب بيرتييه ، الذى قابلته مرتين أو ثلاثا لدى السيد دوبان ، إذ كان يعمل معه بكل ما فى وســـعه على تفنيد آراء مونتسكيو !

فلنختتم — إلى غير رجعة — ما بقى لدى من قول عن السيد دى مونتيجى ! .. لقد كنت اقول له — فى منازعاتنـــا — إنه لا يليق به أن يستخدم سكرتيرا ، وإنما الأليق به أن يستخدم أحد كتبة المحامين . ولقد أخذ برأيى هـــذا ، واســـتخدم — كخليفة لى — كاتب محام حقا ، فلم يلبث أن سرق منه ، فى أقل من عام ، عشرين ألف أو ثلاثين ألف ليبرة . ولقد فصله وزج به فى السجن ، وفصل مستشاريه فى عاصـــفة من الفضـــيحة والتشهير ، وتشاجر فى كل مكان ، وتلقى من الاهانات ما كان

الخادم يربأ بنفسه أن يتلقاه ، وانتهى — بفضل حماقاته — إلى أن استدعى ، وفصل من منصبه وأقصى إلى الريف ! .. وكان من الواضح أن مسألتى لم تكن منسية بين المسائل التى وجه إليه اللوم بشأنها فى البلاط . وعلى أية حال ، فقد أوفد إلى — بعد قليل من اعتزاله العمل — وكيل أعماله كى يسوى حسابى ويدفع لى نقودى ، التى كنت فى حاجة ماسة إليها ، إذ كانت ديونى فى (البندقية) ، ديون شرف — إذا جاز أن نسميها كذلك يوما — وكانت تثقل قلبى بالهم . فانتهزت الفرصة لتسديدها ، بما فى ذلك سند « جانيتو ناتى » . ومن ثم أخذت ما قدم لى ، ودفعت كل ديونى . ومع أن هذا خلفنى معدما — كما كنت من قبل — إلا أننى تخففت من عبء كان قد أصبح أثقل من أن أحتمله . ومنذ ذلك الحين لم أسمع كلمة عن السيد دى مونتيجى حتى موته ، الذى علمت به من صوت الشعب (١) .. فليرحم الله هذا الرجل المسكين !.. لقد كان فى صلاحيته لمهنة السفير لا يفضلنى فى صلاحيتى — فى صباى — لمهنة المحاماة(٢) . على أنه كان فى يده — هو وحده — أن يسلك مسلكا شريفا فى الاستعانة بى ، وأن يكفل سرعة ارتقائى إلى المنصب الذى كان الكونت دى جوفون قد رسم لى الطريق إليه — فى صباى — والذى استطعت بالاعتماد على نفسى فقط أن أصل إليه فى سن متقدمة !

---

(١) يقصد الصحافة .

(٢) ذكر روسو فى الكراسة الأولى من اعترافاته أن اباه كان يريده على أن يكون محاميا ، ولكنه لم يفلح فى فترة التدريب .

ولقد خلفت عدالة شكاياتى ، وعدم جدواها ، بذور السخط فى نفسى على نظمنا المدنية الحمقـــاء ، التى تضحى بفضلها المصلحة العامة والعدالة الحقة ، لغير ما مصـــلحة واضـــحة أعرفها . بل إنها لتهدم فعلا كل نظام ومصلحة ، ولا تؤدى إلا إلى أن تخلع شرعية السلطة العامة على ما ينال الضعيف من ظلم ، وما يبديه القوى من جور !.. ولم يمنع هذه البذور من أن تنمو إذ ذاك ــ كما ترعرعت فيما بعد ــ سوى أمـــرين : أولهما أن المسألة كانت شخصية لا تتعلق بسواى ، والمصلحة الشخصية ــ التى لم تؤد قط إلى أى شىء عظيـــم أو نبيل ــ لا يمكن أن تنتزع من قلبى قط تلك الخفقات القدســـية التى لا يمكن لغير أنقى حب للعدالة والجمال أن يثيرها فيه .. أما الثانى فهو سحر الصداقة الذى سكب على غضبى شعورا ناعما خفف من حدته وهدأ من سورته . إذ كنت قد تعرفت فى البندقية على شخص منأبناء منطقة خليج(بسكاى)، كان صديقا لصديقى كاريو ، وكان جديرا بصداقة كل رجل شريف . وكان هذا الشاب اللطيف ــ الذى أوتى كل المواهب وكافة الفضائل ــ قد شرع فى جولة فى ربوع إيطاليا ، لينمى فى نفسه الميل إلى الفنون الجميلة . وإذ خيل إليه أنه لم يعد ثمة مزيد يحصله ، هم بالعودة إلى وطنه مباشرة ، فأخبرته بأن الفنون ليست سوى مجرد تسلية لعبقرى مثله خلق لكى ينمى العلوم . وأشرت عليه بأن يرحل إلى باريس ، فيقضى فيها ستة أشهر فى سبيل ذلك.

وقد صـــدقنى وأخـــذ بنصـــيحتى ، ومن ثم فانه رحـــل إلى باريس .. وكان فى انتظارى عنـــدما عدت إليها .. وكان

مسكنه أكثر اتساعا من حاجته ، فعرض على أن أشاطره إياه ، وقبلت . وقد وجدته مليئا بالتحمس لفروع المعرفة العليا . ولم يكن من شيء يسمو على قوى إدراكه ، فكان يستوعب ويهضم كل شيء بسرعة تدعو إلى العجب . ولكم شكر لى أن هديته إلى هذا الغذاء لعقله الذى كان يتحرق ظمأ إلى المعرفة، دون أن يدرى كنه هذا الظمأ ومبعثه !.. أية كنوز غنية بالأنوار والفضائل وجدتها فى هذه النفس القوية ! .. لقد شعرت بانه الصديق الذى كنت أصبو إليه ، فغدونا وثيقى الصلة . ولم تكن مشاربنا واحدة ، فكنا دائما فى جدال .. ولم نكن نتفق قط على أمر واحد ، إذ كان كل منا عنيدا . ومع ذلك فقد كنا لا نطيق فراقا . ومع أننا كنا نتعارض دون انقطاع. إلا أن كلا منا لم يكن يتمنى أن يكون الآخر غير الذى كانه !

كان « ايناسيو ايمانويل دى التونا » من أولئك الأفراد النادرين ، الذين لا تنجبهم سوى أسبانيا ، وقلما تستأثر بهم من أجل مجدها الخاص . ولم تكن له تلك النعرات القومية العنيفة ، المألوفة لدى قومه ، كما أن فكرة الثأر كانت من البعد عن ذهنه بمثل ما كانت الرغبة فيه بعيدة عن قلبه . وكان أسمى نفسا من أن يحقد ، وكثيرا ما سمعته يقول فى هدوء مفرط ، إنه ليس فى وسع الإنسان الفانى أن ينال منه . وكان ميالا إلى النساء فى غير لين أو ضعف ، فكان يلاعب النساء وكأنهن أطفال صغار .. وكان يلهو مع عشيقات أصدقائه ، ولكنى لم أر له يوما عشيقة قط ، ولا عرفته يشتهى أن تكون له واحدة . كانت نيران الفضيلة المتأججة فى قلبه لا تدع مجالا قط للواعج الشهوة !!

ولقد تزوج هذا الشاب عقب أسفاره ، ومات فى ريعان الشباب ، مخلفا أطفالا . وانى لأومن ـ ايمانى بوجودى ـ بأن زوجته كانت المرأة الأولى ، والوحيدة ، التى أذاقته ملاذ الحب ! . . ولقد كان فى ظاهره تقيا كأى أسبانى آخر ، أما فى باطنه فكانت تقواه كتقوى الملائكة . وفيما عداى ، كان هو الشخص المتسامح الوحيد الذى رأيته فى حياتى ، فما سأل امرءا عن آرائه الدينية ، وما كان ليعنيه كثيرا أن يكون صديقه يهوديا ، أو بروتستانتيا ، أو تركيا(١) ! ، أو متعبدا ، أو زنديقا ، ما دام هذا الصديق أمينا شريفا . وبقدر ما كان عنيدا، جامد الرأس إزاء آراء ضئيلة الأهمية ، فانه كان يتراجع بمجرد أن يتحول الجدل إلى الدين ، أو حتى إلى الأخلاق ، وكان يمسك لسانه ، أو يكتفى بأن يقول : « لست مسئولا إلا عن نفسى ! » . ومن الأمور التى تجل عن التصديق ، أن يتسنى الجمع بين سمو روحى كهذا وعقل يعنى بأدق التفصيلات . فقد كان يقسم يومه بالساعات ويحدد ـ مقدما ـ استخدام كل ساعة ، بل كل ربع ساعة وكل دقيقة ، ويتبع هذا التقسيم بدقة بالغة ، إلى درجة أنه كان ـ إذا دقت الساعة وهو فى منتصف إحدى العبارات ـ يغلق الكتاب دون أن يتم العبارة ! . . وكان بين كل هذه الأقسام ـ التى اعتاد أن يقسم إليها يومه ـ ما هو مخصص للدرس ، وما هو للتأمل ، وما هو للحديث ، وما هو للعبادة ، وماهو لقراءة مؤلفات « لوك » ، وما هو لتلاوة التسابيح ، وما هو للزيارات ، وما هو للموسيقى،

---

(١) يستعمل « روسو » لفظ « تركى » كمرادف لمسلم .

وما هو للرسم .. ولم يكن لأى لهو ، أو أى إغراء ، أو أية مجاملة مجال للتدخل فى هذا النظام ، اللهم إلا إذا كان واجبا لا بد من أدائه ! .. وعندما أعطانى بيان تقسيمه الوقت - عسى أن أتبعه - طفقت أضحك ، حتى انتهيت بدموع الاعجاب !.. ولم يكن يثقل على الغير اطلاقا ، ولا يحتمل أن يثقل عليه الغير ، وكان حازما مع أولئك الذين كانوا يحاولون مضايقته فى أدب . وكان حار المزاج ، ولكن فى غير عبوس . فكثيرا ما رأيته منفعلا ، ولكنى لم اره قط مغضبا . ولم يكن ثمة ما يفوق مرحه وبشاشته ، وكان ينصت إلى الفكاهة ويحب ان يتفكه ، وكان فى ذلك لامع البديهة ، أوتى موهبة فى قصائد الهجاء . فاذا ما استثاره أحد ، انقلب صارخا صاخبا ، حتى ليسمع صوته على بعد .. ولكن الابتسامة كانت تسرى على أساريره ، أثناء صياحه ، وكان - فى غمرة انفعاله - يطلق بعض الملح فيحمل الجميع على الضحك . ولم يكن بدين الجسم، كما أنه لم يؤت سيماء الأسبانيين .. كانت بشرته بيضاء ، وخداه ممتلئين ،وشعره بنيا فاتحا ، يكاد يقرب من الصفرة ، وكذلك كان طويل القوام ، متين البنيان ، ذا جسد جدير بأن يأوى روحه !

هذا الشخص الذى أوتى قلبا يشبه رأسه حكمة وعقلا ، كان على بصيرة بالناس ، وقد كان صديقا لى .. وهذا كل ما أقول لمن هو ليس من أصدقائى . ولقد توثقت صلتنا ، حتى لقد فكرنا فى أن نقضى عمرينا معا ، فأذهب - بعد سنوات - إلى (اسكويشيا) لأعيش معه فى ضيعته . ولقد دبرت جميع

اجزاء هذا المشروع ـ فيما بيننا ـ فى اليوم السابق على رحيله.
ولم يعد ينقصنا سوى ذلك الذى لا يملكه الإنسان لنفسه فى مشروعاته ، مهما يحسن تدبيرها .. فلقد قدر للأحداث بعد ذلك ـ وأعنى مصائبى ، وزواجه ، وموته فى النهاية ـ أن تفرق بيننا إلى الأبد ! .. وما أجدر المرء بأن يقول إنه لا نجاح إلا للخطط السوداء التى يدبرها اللئام .. أما المشروعات البريئة التى يدبرها الطيبون ، فانها لا تكاد تتحقق قط !

* * *

ولما كنت قد تذوقت متاعب العمل فى خدمة الغير ، فقد عقدت العزم على الا اعرض نفسى لذلك مرة اخرى . ذلك اننى رايت أن خططى الطموحة التى أغرتنى الظروف بتدبيرها كانت تنقلب رأسا على عقب بمجرد مولدها ، وثبطت رغبتى فى العودة إلى مهنة بدأتها بمثل هذا النجاح ، ولكننى ـ رغم ذلك ـ طردت منها .. ومن ثم فقد آليت على نفسى الا التحق ثانية بخدمة أحد ، وأن أظل مستقلا ، فأستغل مواهبى التى كنت قد بدأت ـ أخيرا ـ اقدر مداها ، والتى كنت ـ حتى ذلك الحين ـ لا أنظر إليها إلا فى تواضع . لذلك استأنفت العمل فى « الأوبرا » التى كنت قد انصرفت عنها نظرا لرحيلى إلى (البندقية) . ولكى افرغ إليها فى أقصى هدوء ممكن ـ عقب رحيل « التونا » ، فقد عدت إلى الإقامة فى فندقى القديم ـ « سان كينتان » ـ الذى كان يقع فى حى منعزل ، يبعد قليلا من (لوكسمبورج) ، فكان لذلك اكثر ملاءمة ـ لتمكينى من العمل فى هدوء ـ من المسكن القائم فى شارع

(سانت أنوريه) الصاخب . وهناك وجدت فى انتظارى السلوى الحقيقة التى أذاقتنيها السماء فى شقوتى ، والتى كان لها وحدها فضل تمكينى من أن أتحمل تلك الشقوة . ولم تكن هذه السلوى معرفة عابرة ، ومن ثم فلا بد لى من الإقدام على بعض الاسهاب فى بيان الطريقة التى نشأت بفضلها .

فلقد أوتينا فى الفندق مضيفة جديدة من (أورليان) ، اختارت للعناية بالغسيل فتاة من بلدها ، فيما بين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين من عمرها ، كانت تتناول الطعام معنا ، شأنها فى ذلك شأن المضيفة . وكانت هذه الفتاة ـ المسماة تيريز لافاسير ـ من أسرة طيبة ، فقد كان والدها مراقب العملة فى أورليان ، وكانت أمها تاجرة . وكان الأبوان كثيرى العيال . ولما كفت دار سك النقود ـ فى أورليان ـ عن العمل ، وجد الأب نفسه على قارعة الطريق ، بلا عمل . . فى حين أن الأم أفلست ، وتخبطت فى أعمالها ، وانتهت إلى التخلى عن تجارتها ، فجاءت إلى باريس مع زوجها وابنتها التى أخذت تعول ثلاثتهم من عملها !

وعندما رأيت هذه الفتاة على المائدة للمرة الأولى ، أخذت بمسلكها المحتشم ، وزادتنى دهشة نظراتها الوثابة اللطيفة ، التى بدت لعينى ـ إذ ذاك ـ نادرة المثال . وكانت الثلة التى تجتمع حول المائدة تضم ـ إلى جانب السيد دى بونفون ـ عدة من القساوسة الايرلنديين والجسكونيين ، وبعض أفراد آخرين على شاكلتهم . وكانت مضيفتنا نفسها زعيمة الفوضى فى حياتنا ، فى حين أننى كنت الوحيد الذى اعتاد أن يتكلم وأن

يتصرف فى وقار واحتشام . ولقد عاكسوا الفتاة المسكينة ، فتوليت الدفاع عنها ، فاذا بالساخرين ينقلبون على . ولو أننى لم أحس بميل طبيعى نحو الفتاة المسكينة ، لكان الشعور بالاشفاق ، بل والمعارضة ، كفيلا بأن يخلق هذا الميل ، فقد كنت أعجب بالاحتشام فى الأقوال والأفعال ، لا سيما لدى الجنس الآخر . ومن ثم غدوت جهارا نصير الفتاة . ورأيت أنها قد تأثرت بعطفى ، وأن نظراتها أخذت تطفح بعرفان لم تكن تجرؤ على البوح به ، مما كان يزيدنى لباقة وطلاقة لسان!

ولقد كانت شديدة الخجل ، وكذلك كنت أنا . وسرعان ما نمت الرابطة التى لاح أن هذا التشابه فى الطباع كان خليقا بأن يعوقها ! .. وأهاج ذلك مضيفة الفندق ــ إذ لاحظته ــ فاذا بمسلكها الفظ يزيد من تطور علاقاتى مع الصغيرة التى لم يكن لها سواى نصير فى الدار ، ومن ثم فانها كانت ترمقنى فى أسى إذا خرجت ، وتتنهد فى ارتياح إذا ما عاد حاميها !.. وما لبث تجاوب قلبينا وتشابه طباعنا أن أحدثا أثرهما المعتاد !.. فقد خيل للفتاة أنها رأت فى شخصى رجلا شريفا ، ولم تكن مخطئة فى ذلك .. ولقد خيل إلى أننى أرى فيها فتاة مرهفة الحس ، بسيطة ، خالية من الخلاعة ، ولم أكن ــ بدورى ــ مخطئا فى ذلك ! .. ولقد أنبأتها ــ منذ البداية ــ بأننى لن أهجرها قط ، ولن أتزوجها إطلاقا ! .. وكان الحب ، والاحترام ، والاخلاص الصادق هم رسل فوزى ، وذلك لأن قلبها كان رقيقا ، أمينا ، مما جعلنى سعيدا دون ما حاجة إلى أن أكون جريئا !

ولقد أدى خوفها من أن أستاء إذا لم أجد لديها ما كانت

تعتقد أننى أنشده ، إلى تأخير هنائى أكثر من أى شىء آخر . ورأيت أنها كانت مضطربة مرتبكة قبل أن تسلمنى نفسها ، مشوقة إلى أن تمكننى من أفهمها، دون أن تجرؤ على الايضاح بنفسها . وإذ كنت بعيدا من أن أحدس السبب الحقيقى لحرجها ، فاننى عزوته إلى سبب جد خاطىء ، وجد مهين لشخصها وأخلاقها . فقد اعتقدت أنها كانت ترمى إلى أن تنبهنى إلى أن صحتى قد تتعرض للأخطار ، وأوقعنى هذا فى كثير من الحيرة ، التى لم تصدنى عنها ، ولكنها سممت هنائى أياما عديدة . وإذ عز على كل منا أن يفهم الآخر ، فان أحاديثنا فى هذا الصدد كانت ألغازا وأحاجى تدعو إلى أكثر من الضحك؛ حتى لقد كانت الفتاة موشكة أن تظننى معتوها ، كما أننى كنت لا أكاد أعرف لنفسى رأيا فيها . وأخيرا تصارحنا . واعترفت لى ــ وهى باكية ــ بزلة وحيدة تعرضت لها وهى تغادر مرحلة الطفولة، وكانت ثمرة جهلها ودهاء الشخص الذى أغواها . وما أن فهمتها حتى صحت فى اغتباط : « البكارة !.. جميل أن ترتجى فى باريس ، وفى سن العشرين !.. آه ! يا تيريزى ، اننى لجد سعيد بأن أحظى بك حكيمة سليمة ، ولا أجد فيك ما لم أكن أنشده ! » .

* * *

ولم أكن أسعى فى البداية لغير العبث ، ولكننى ما لبثت أن تبينت أننى وجدت أكثر من ذلك ، وأننى أوتيت زميلة ! .. فان قليلا من الألفة مع هذه الفتاة الرائعة ، وقليلا من التأمل فى موقفى ، جعلانى أشعر أننى ــ فى الوقت الذى لم أكن أفكر فيه

فى غير ملذاتى ــ قد خطوت خطوات كثيرة فى تدعيم هنائى . كان لا بد لى من عاطفة محتدمة تحتل محل طموحى الخابى ، فتملأ فؤادى . وقصارى القول أننى كنت بحاجة إلى خليفة لماما .. ولما كنت مضطرا إلى الا اعاود العيش معها قط ، فقد بات من المحتوم ان أبحث عمن تعيش مع تلميذها ، وعمن أجد لديها من البساطة ورقة القلب ما كانت تجده لدى . وكان لا بد لى من نعيم الحياة الخاصة وألفة المعاشرة ، لتعوضنى عن المهنة اللامعة التى كنت قد نبذتها .. كنت إذا ما خلوت بنفسى وحيدا ، أشعر بقلبى خاويا ، لا يمكن أن يملأه سوى مخلوق آخر .. وكان القدر قد حرمنى من تلك التى خلقتنى الطبيعة من أجلها ، أو أقصانى عنها على الأقل . ومن ذلك الحين ظللت وحيدا ، إذ أننى لم أعرف فى حياتى قط وسطا بين كل شىء أو لا شىء[١] . ولقد وجدت فى تيريز العوض الذى كنت بحاجة إليه ، فعشت بفضلها سعيدا بقدر ما سمحت تطورات الأحداث !

ورغبت ــ فى البداية ــ فى أن أشكل ذهنها ، فبددت فى ذلك جهودى ، إذ ظل ذهنها كما صاغته الطبيعة ، ولم يكن للثقافة والتعليم تأثير عليه . ولست أخجل إطلاقا من أن أعترف بأنها لم تتعلم البتة كيف تجيد القراءة ، وإن لم يكن ثمة بأس بكتابتها . وعندما انتقلت للسكنى فى شارع (نيف ديه بيتى شاب) :

---

(١) يريد أن يقول أنه اعتاد أن ينال كل شىء ، أو ألا ينال شيئا على الإطلاق !!



ورغبت — فى البداية — أن أشكل ذهنها ، فبددت فى ذلك جهودى اذ ظل ذهنها كما صاغته الطبيعة ، ولم يكن للثقافة والتعلم تأثير عليه .

كانت هناك ــ أمام نوافذى فى فندق بونشـــارتران ــ ساعة اضطررت إلى أن أقضى أكثر من شــهر فى تدريب تيريز على تعرف الوقت عليها . ومع ذلك فانهـــا لا تكاد ــ حتى الآن ــ تحذق ذلك . ولم تستطع يوما أن تذكر أشهر السنة الاثنى عشر بترتيبها الطبيعى ، كما أنها لم تعرف رقما واحدا ، برغم كل العناء الذى تجشمته كى أعلمها الأرقام . فهى لا تستطيع أن تعد النقود ، أو أن تحسب ثمن أى شىء .. أما الكلمات التى تستخدمها فى الكلام ، فكثيرا ما تكون نقـــائض ما تريد قوله بالذات ! .. ولقد أعددت مرة قاموسا لتلك العبارات ، كى اسرى عن مدام « لوكسمبورج » ، فإذا أخطاؤها تذيع فى المجتمع الذى كنت أعيش فيه . بيد أن هذه الفتاة كانت مستشارا رائعا فى المناسبات العصيبة ، برغم ضيق عقلها إلى هذا الحد ، أو برغم غبائها إن شئتم ! .. وكثيرا ما كانت ترى فى المحن التى كنت أجدنى فيها ــ فى سويسرا أو إنجلترا أو فرنسا ــ ما لم اكن اراه أنا نفسى ، فكانت تمحضنى من النصح خير ما ينبغى أن أتبع ، وكانت تنتزعنى من أخطار كنت أندفع إليها كالأعمى .. وفى حضور أرقى السيدات ، وفى محضر العظماء والأمراء ، كانت مشاعرها وآراؤها الجيدة وإجاباتها ومسلكها تنتزع لها التقدير العام ، وتجتلب من التهانىء ـ لطيف خصالها ـ ما كنت اشعر بصدقها !

والعاطفة ــ فى قرب المحبوب ــ تغذى العقل كما تغذى الفؤاد ، فلا يعود ثمـــة داع للبحث عن الأفـــكار فى أى مكان آخر ! .. ولقد عشت مع تيريز فى خير ما كنت خليقا بأن أعيش

فيه مع أجمل عبقرية فى الكون . ولقد حاولت أمها ـ التى كانت تفخر بأنها تربت فى الماضى مع المركيزة دى مونبييو ـ أن تدعى رجاحة العقل ، ورغبت فى أن تتكفل بتوجيه عقل ابنتهـا ، فأفسدت بحيلها بساطة تعاشرنا . ودفعنى الغيظ من هـذه المضايقة إلى أن اتغلب ـ بعض الشىء ـ على الحياء الأحمق الذى لم أكن أجرؤ معه على الظهور مع تيريز أمام الملأ، فأصبحنا نقوم معا بنزهات قصيرة فى الريف ، حيث كنا نتناول وجبات بسيطة كانت تلذ لى . ولقد تبينت أنها كانت صادقة فى حبها إياى ، فضاعف هذا من حنانى . ولقد عوضتنى هذه الألفة الناعمة عن كل شىء ، ولم يعد المستقبل يشغلنى ، أو بالأحرى انه أصبح لا يشغلنى إلا كامتداد للحاضر ، إذ اننى لم أعـد اشتهى سوى أن أطمئن إلى بقاء هذا الحاضر !

وأدت هذه العلاقة إلى أن أصبحت كل الملاهى الأخـرى نفايات عقيمة ، فلم أعد أغادر مسكنى إلا لأذهبَ إلى تيريز ، وبات مسكنها مقري تقريبا . ولقد صارت هذه الحياة المنعزلة عظيمة النفع لعملى ، حتى أن « الأوبرا » التى كنت عاكفا على تأليفها ، اكتملت ـ كلاما وموسيقى ـ فى أقل من ثلاثة أشهر. ولم تبق سوى بعض ألحان تكميلية وبعض ألحان لتصـحب المناظر . وقد ضايقنى هذا كثيرا ، فعرضت على « فيليدور » أن يتولاه فى مقابل نصيب من الربح ، فجاء مرتين ، وأضـاف بعض الحشو إلى الفصل الخاص بالشاعر « أوفيد » ، ولكنه لم يستطع أن ينصرف إلى هذا العمل ـ الذى كان يتطلب مثابرة ـ فى مقابل ربح بعيد وغير مضمون . ومن ثم فإنه لم يعـد ، وأكملت عملى بنفسى .

وإذ اكتملت « أوبراى » ، آن لى أن أحصل من ورائها بعض الدخل، وكان هذا ــ فى حد ذاته ــ « أوبرا » أخرى ، أشد عناء ! .. فليس من سبيل إلى بلوغ غاية فى باريس ، إذا كان المرء يعيش فى عزلة . ولقد فكرت فى أن أستعين بالسيد ديلابوبلينيير ، الذى قدمنى إليه جوفكور فى داره ، عند عودتى من جنيف . وكان السيد ديلابوبلينيير هو نصير[1] رامو ، إذ كانت السيدة ديلا بوبلينيير تلميذة هذا المتواضعة ، المتفانية فى الطاعة ، ومن ثم فقد كان « رامو » هو المطر والصحو[2] فى هذا المنزل ، كما ينبغى أن يقال ! .. ولقد ظننت أنه قد يغتبط بأن يساند عملا من ابتكار أحد تلاميذه ، فرغبت فى أن اريه مؤلفى ، ولكنه أبى أن يراه ، قائلا إنه لم يكن يستطيع أن يقرا مقطوعات ، إذ أن هذا كان يتعبه كل التعب . وعقب لابوبلينيير على ذلك بأن فى الوسع حمله على الإصغاء ، وعرض أن يجمع موسيقيين لأداء بعض القطع ، ولم اكن أرجو أفضل من هذا .. ووافق « رامو » وهو يزمجر ، ودون أن يكف عن أن يردد أن الألحان التى يضعها رجل لم ينشأ فى جو موسيقى ، وإنما تعلم الموسيقى بنفسه دون ما عون ، لابد وأن تكون شيئا بديعا !.. وأسرعت أنسخ أدوار خمس أو ست من أحسن المقطوعات ،

---

(١) النصير المقصود هنا ، هو الرجل ذو الجاه والمال ، الذى يرعى أديبا أو فنانا ويبذل له يد العون .

(٢) تعبير فرنسى معناه أن يكون الشخص ذا حظوة ومكانة ، بحيث يغضب أهل البيت لغضبه ويسرون لسروره . ويقابله فى التعبير الدارج عندنا ما يقال من أن شخصا هو « الكل فى الكل » .

وتهيأ لى اثنا عشر من العازفين ، بينما تولى الغناء البرت ، وبيرا ، والآنسة بوردونيه . وما أن بدأ لحن الافتتاح ، حتى رمى « رامو » ـ باطنابه فى المديح ـ إلى الإيحاء بأن اللحن ما كان ليمكن أن يكون من تاليفى . ولم يدع مقطوعة تمر دون أن يبدى امارات البرم ونفاد الصبر . ولكنه لم يلبث أن عجز عن تمالك نفسه عند سماع أغنية بصوت « كونترتينور » ـ كان أداؤها قويا محكما ، والموسيقى المصاحبة لها رائعة ـ فخاطبنى فى خشونة ذهل لها الجميع مستنكرين ، وأعلن أن جزءا مما سمع كان من عمل رجل أفنى فى الفن عمره ، فى حين أن الباقى من عمل جاهل لم يكن على إلمام بالموسيقى ذاتها ! .. ومن الصحيح أن مؤلفى كان غير متناسق وعلى غير قاعدة ، ومن ثم فقد كان رفيع القيمة فى بعض أجزائه ، وعقيما فى بعض آخر ، شأن العمل الذى يقوم به كل امرىء لا يرقى بنفسه إلا بمعونة بعض ومضات من العبقرية ، دون ما سند من العلم . وزعم « رامو » انه لم يكن يرى فى شخصى سوى سارق صغير ، لم يؤت أية موهبة ولا أى ذوق ! .. ولكن العازفين ، ورب الدار ـ بوجه خاص ـ لم يشاركوه رأيه . ولقد سمع السيد دى «رشيليو» ـ الذى كان يكثر إذ ذاك من زيارة رب الدار ، والسيدة دى بوبلينيير ، كما هو معروف ـ بحديث مؤلفى ، فرغب فى أن يسمع « الأوبرا » بأكملها ، معتزما أن يعمل على عرضها فى البلاط إذا راقت له . ومن ثم مثلت « الأوبرا » ـ بكامل ما كانت تتطلب من مغنيين وموسيقيين ـ على نفقة الملك ، فى دار السيد بونيفال ، الموكل بالحفلات الملكية . وقام « فرانكير » بالإخراج .. ولقد كانت النتيجة مدهشة ، حتى أن السيد الدوق دى

« ريشيليو » لم يكف عن الصياح والتصفيق . وفى نهاية أغنية جماعية ــ فى الفصل الخاص بتاس ــ نهض وجاءنى فصافحنى قائلا : « هذا هو اللحن الذى يشجى ، يا سيد روسو ! .. ما سمعت قط أجمل منه ، وإنى لأود أن أقدم هذه التحفة فى فرساى ! » . ولم تنبس السيدة دى بوبلينيير ــ التى كانت حاضرة ــ بكلمة واحدة . أما « رامو » ، فبالرغم من أنه دعى، إلا أنه لم يشأ أن يحضر .

وفى اليوم التالى ، استقبلتنى مدام بوبلينيير ــ فى غرفة زينتها ــ استقبالا شديد الجفوة ، وتعمدت أن تحط أمامى من شأن مؤلفى ، وقالت لى إنه بالرغم من أن بعض الوميض الزائف قد بهر السيد دى « ريشيليو » ، إلا انه قد ثاب إلى نفسه ، ونصحتنى بالا أعول كثيرا على أوبراى !.. وأقبل السيد الدوق بعد قليل ، فتحدث إلى بلهجة تخالف ذلك تماما ، إذ أطرى مواهبى ، وبدا مصرا على أن يعمل على عرض مؤلفى على مشهد من الملك . وقال : « ليس هناك ما لا يمكن اجازته فى البلاط ، سوى الفصل الخاص بتاس ، فعليك أن تكتب فصلا غيره ! » . وكانت هذه العبارة وحدها حافزا دفعنى إلى أن أذهب إلى دارى ، فاحتبس نفسى . وفى غضون ثلاثة أسابيع ، استطعت أن أضع فصلا يحل محل فصل « تاس » ، وكان موضوعه «هيسيود(١) يتلقى الالهام من إحدى عرائس خياله» .

---

(١) هيسيود : كان شاعرا اغريقيا تناول الحياة بالبحث والتحليل ، محاولا أن يضع دستورا اخلاقيا يكفل المحبة والسلام . وقد قدم « كتابى » ــ فى العدد ٥٥ ــ سيرته وملخصا لاعظم رسالاته : « الأيام والأعمال » .

واهتديت إلى طريقة خفية مكنتنى من أن أدس فى هذا الفصل قسطا من تاريخ مواهبى وقصة الغيرة التى راق لرامو أن يكرم بها هذه المواهب . ولقد كان فى هذا الفصل الجديد سمو أقل جبروتا وأكثر تمسكا وإحكاما مما كان فى الفصل الذى كان يدور حول « تاس » . وكذلك كانت الموسيقى أروع وأرقى ، ولو أن الفصلين الآخرين كانا معادلين لهــذا ، لقدر للأوبرا أن تعرض بنجاح . بيد أن مشروعا آخر عرض لى ـ فيما كنت أقوم بصقل الفصل وتنقيحه ـ فأرجأت أداء هذه المسرحية !

من سنة ١٧٤٥ إلى سنة ١٧٤٧

أقيمت فى (فرساى) ــ فى الشتاء الذى أعقب معركة دى فونتينو ــ حفلات كثيرة ، كان بينها عدة أوبرات عرضت فى مسرح الـ « بيتيت ايكورى » . وكان بين هذه مسرحية فولتير، التى كانت تحمل اسم « أميرة نافار »، والتى نظــم رامــو موسيقاها . وقد عدلت وبدل اسمها إلى « أعياد رامير » . وقد تطلب تغيير الموضوع عدة تحويرات فى الأغانى والرقصات التى كانت فى « الدراما » السابقة ، سواء من حيث التركيب الشعرى أو التركيب الموسيقى . واستدعى هذا البحث عن شخص يؤدى هــذه الغاية المزدوجــة ، إذ أن فولتير كان ــ إذ ذاك ــ فى (اللورين) ، وكذلك كان رامو . وكانا منهمكين معا فى أوبرا « معبد المجد »(١) ، فلم يكن فى وسعهما أن يعنيا بالتحويرات المنشودة . ومن ثم فإن السيد دى ريشيليو تذكرنى ، وعرض

---

(١) Temple de Gloire

على أن اقوم بالمهمة .. ولكى أحسن تبين ما ينبغى عمله ، أرسل إلى كلا من الشعر والموسيقى على حدة . ولم اشأ ـــ قبل كل شيء ـــ أن أمس الفاظ المسرحية دون موافقة المؤلف ، فكتبت إليه فى هذا الصدد ، رسالة جد أمينة ومحترمة ـــ فى الوقت ذاته ـــ وفقا لما كان يتطلبه الظرف . وها هو ذا رده ، الذى يوجد الأصل الخطى له ، فى ملف الأوراق « أ » ، رقم (١) :

« ١٥ ديسمبر سنة ١٧٤٥.

« إنك لتجمع يا سيدى بين موهبتين كانتا ـــ حتى اليوم ـــ منفصلتين دائما . وهما سببان كافيان لحملى على أن أقدرك وان أسعى إلى أن أحبك . وإننى لفى هم من أجلك ، إذ تستخدم هاتين الموهبتين فى عمل غير جدير بهما كل الجدارة . فمنذ بضعة أشهر ، طلب إلى السيد الدوق دى ريشيليو ـــ طلبا جازما ـــ أن أعد ، فى لمح البصر ، مسودة صغيرة غير دقيقة ، لبضعة مناظر تافهة وناقصة ، تتمشى مع أغـــان ورقصـــات لا تلائمها إطلاقا . وقد صدعت برغبته بحذافيرها ، ورحت اعمل فى سرعة فائقة، ودون ما إجادة . ثم ارسلت هذه المسودة التعسة إلى السيد الدوق دى ريشيليو ، وأنا موقن من انه لن يستخدمها ، ومن اننى لن اضطر إلى تصحيحها . ولحسن الحظ انها بين يديك ، فلك أن تفعل بها كل ما تشاء ، إذ أننى قـــد اقصيتها تماما عن ذهنى . ولست أرتـــاب فى أنك ستفتح كل الأخطاء التى لابد من أن تكون قد أفلتت منى فى تعجل تأليف التصميم البسيط ، وأنك قد ملأت كل نقص !

« وإنى لأذكر أن من السهوات التى تنم عن طيش ، اننى نسيت أن أوضح فى هذه المناظر ــ التى تربط بين الأغانى والرقصات ــ كيف تنتقل الأميرة فجأة من سجن إلى حديقة أو قصر . وإذ لم يكن الشخص الذى أقام الحفلات لتكريمها ساحرا ، وإنما كان سيدا أسبانيا ، لذلك يبدو لى أنه لا ينبغى أن ندع للسحر مجالا . فأرجو أن تتكرم يا سيدى باعادة النظر فى هذا الجزء الذى لا أحتفظ له بأكثر من فكرة مهتزة . وانظر ما إذا كان من الضرورى أن تفتح أبواب السجن ، وأن تنقل أميرتنا من هذا السجن إلى قصر جميل مذهب ومصقول ، يعد من أجلها . . إننى لأعرف تمام المعرفة أن الأمر كله زرى للغاية ، وأنه ليس مما يليق بأى كائن مفكر أن يحمل هذه التفاهات على محمل الجد ، ولكن . . بما أن علينا الا نسبب من الأشياء إلا أقل ما يستطاع ، فمن الواجب أن نبذل من العقل قدر المستطاع ولو كان ذلك فى أوبرا غنائية راقصة رديئة .

« إننى أدع لك وللسيد بالو كل شىء ، وأعتقد أننى لن ألبث أن أتشرف بأن أقدم لك آيات شكرى عما قريب ، وبأن أؤكد لك يا سيدى ، إلى أى مدى يشرفنى أن أكون ... الخ » .

ولا يعجبن المرء لما فى هذا الخطاب من أدب جم ــ إذا قيس بخطابات فولتير نصف المهذبة التى كتبها لى بعد ذلك الحين ــ فقد كان يظننى ذا حظوة كبيرة لدى السيد دى ريشيليو ، فحمله الرياء المرن على أن يبدى كثيرا من الاعتبار للوافد الجديد على البلاط ، ريثما يزداد معرفة بمدى مكانته !

* * *

وإذ حصلت من السيد دى فولتير هذا السلطان ، وأعفيت من كل اعتبار لرامو ــ الذى لم يكن له من هدف سوى الإساءة إلى ــ فاننى عكفت على العمل ــ ولم ينقض شهران حتى كانت مهمتى قد انجزت . ولم يكن الشعر سوى مهمة بسيطة ، إذ كان همى الأوحد هو أن أتفادى أن يكون تباين الأسلوب ملحوظا ، ومن حقى أن أعتقد أننى قد وفقت . أما مهمتى ــ فى الناحية الموسيقية ــ فقد تطلبت مزيدا من الوقت والجهد ، فضلا عن أننى اضطررت إلى أن أؤلف عدة قطع للمقدمات ، منها اللحن الافتتاحى ، وكل ألحان الإلقاء الغنائى(١) التى تكلفت بهـا فوجدتها بالغة الصعوبة ، إذ كنت مضطرا إلى أن أربط نغمات سيمفونية وصوتية متباينة الطبقات ، بقليل من السطور ــ فى كثير من الأحيان ــ وبوساطة أنغام سريعة جدا . ذلك لأننى عقدت عزمى على ألا أغير أو أعـدل لحنـا واحـدا ، حتى لا يتهمنى رامو بإفساد ألحانه الأصلية . ولقد وفقت فى هـذا الالقاء الغنائى . فكانت النبرات واضحة ، مليئة بالقوة ، رائعة فى تناسق نغماتها ، بوجه خاص . ولقد أدى التفكير فى هذين العظيمين اللذين حظيت بشرف الاشتراك معهما ــ على هـذا النحو ــ إلى رفع روحى المعنوية ، وبوسعى أن أقول إننى فى هذا العمل الذى لم يكن لى من ورائه حمد ولا مجد ، والذى لم يكن مقدورا للرأى العام ذاته أن يعلم بفضلى فيه ــ حافظت دائما على مثلى ومستواى !

---

(١) العبارات التى تلقى بالغناء ، دون أن تكون شعرا موزونا .

ولقد أجريت التجارب على المسرحية ـ بالشكل الذى نقحتها إليه ـ فى مسرح « الأوبرا » الكبير . ووجدتنى الوحيد الحاضر من المؤلفين الثلاثة . فقد كان فولتير متغيبا ، فى حين أن رامو لم يحضر ، أو لعله تعمد أن يتوارى . وكانت كلمات المناجاة(١) الأولى مفعمة بالأسى وهذا مطلعها :

« ألا أيها الموت تعال ، فاختم تعاسات حياتى ! » .

وكنت مضطرا إلى أن أضع موسيقى تتمشى معها ، ومع ذلك فإن هذه الفاتحة هى التى خصتها السيدة ديلا بوبلينير بنقدها، إذ اتهمتنى ـ فى تحامل ـ بأننى وضعت لحنا جنائزيا . وبدأ السيد دى ريشيليو بأن يسأل ـ فى إنصاف ـ عمن كتب كلمات المناجاة، فأطلعته على المخطوط الذى كان قد أرسله إلى، والذى أثبت أنها من وضع فولتير . فقال : « ان المخطىء ـ فى هذه الحال ـ هو فولتير وحده » . وظل كل ما فعلت معرضا ـ خلال التجربة ـ لاستهجان السيدة ديلا بوبلينير ، ولانصاف السيد دى ريشيليو . على أننى ما لبثت أن تبينت أن التحامل كان شديد الوطأة ، فقد أشير علىّ بتنقيح عدة أشياء فى مؤلفى ، كان لابد من استشارة السيد رامو بشأنها . وأكربنى أن تكون هذه هى النتيجة ، بدلا من الاطراء الذى كنت أرتقبه ، والذى كنت جديرا به يقينا . فعدت إلى بيتى بقلب مثقل . . وسقطت مريضا ، وقد هدنى الإعياء ، وراح الأسى ينهشنى . . وظللت ستة أسابيع لا أقوى على الخروج !

---

(١) المونولوج : وهو الحديث الفردى الذى يلقيه المرء لنفسه .

وارسل رامو ـــ الذى وكلت إليه التعديلات التى اشارت إليها السيدة ديلا بوبلينيرا ـــ يطلب إلى افتتاحيـــة « أوبراى » الكبرى ، ليضعها فى مكان تلك التى وضعتها . وفطنت ـــ لحسن الحظ ـــ إلى الحيلة ، فرفضت . ولم يكن قد بقى على موعد تقديم المسرحية الأخرى أكثر من خمسة أيام أو ستة ، فلم يكن لديه وقت لتأليف افتتاحية ، واضطر إلى أن يترك تلك التى كنت قد وضعتها من قبل . . وكانت على النسق الإيطالى ، ومن نوع كان جديدا تمام الجدة على فرنسا ، فى ذلك الوقت . ومع ذلك فإنه لقى استساغة ، وسمعت من السيد دى « فالـــاليت » ـــ رئيس ديوان الملك ، وزوج ابنة السيد موسار ، وكان قريبا وصديقا لى ـــ أن هواة الفن أبدوا كل الرضى عن مؤلفى ، وأن الرأى العام لم يستطع أن يفرق بينه وبين إنتاج رامو . غير أن هذا اتخذ من الإجراءات ـــ بالتواطؤ مع السيدة ديلا بوبلينير ـــ ما يحول دون معرفته أننى قد ساهمت فى تلك القطعة . فعلى الكتب(١) التى توزع على النظارة ، والتى تثبت فيها دائما أسماء

---

(١) يقصد الكتاب الذى يشتمل على برنامج الحفلة وموجز التمثيلية . ومما يذكر أن هذا الكتاب لم يحمل اسم مؤلف الحوار ، ولا مؤلف الموسيقى . وانما أورد فقط اسم « لافال » مؤلف « الباليه » . وقد عرضت التمثيلية فى (فرساى) فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٧٤٥ ، اى بعد سبعة أيام فقط من اليوم الذى كتب فيه « فولتير » رسالته . وقد ذكر « روسو » ـــ فى الفترة السابقة ـــ أن « رامو » طلب افتتاحية « عرائس أحلام الشعراء » قبل هذا العرض بخمسة أيام ، فكأنه أنجز التعديلات فى حوالى يومين !

المؤلفين ، لم يذكر سوى اسم فولتير . وآثر رامو إغفال اسمه على أن يرى اسمى مقترنا به !

وما أن تمكنت من مغادرة دارى ، حتى رغبت فى زيارة السيد دى ريشيليو . ولكن الفرصة كانت قد فاتتنى ، إذ أنه كان قد رحل إلى (دنكرك) ، حيث كان عليه أن يشرف على رحيل الحملة التى كانت موجهة إلى ايقوسيا (اسكتلندا) . ولما عاد، قلت لنفسى ـ لأبرر كسلى ـ إن المناسبة قد انقضت . وبما أننى لم أعد أراه منذ ذلك الحين ، فقد أضعت على نفسى التكريم الذى كان مؤلفى يستحقه .. التكريم الذى كان جديرا بأن يدره على . ومن ثم فإن وقتى ، وعملى ، وحزنى ، ومرضى والنقود التى كلفنيها .. كل هذا تكبدته دون أن يعود على بـ « سو » واحد ، بل ودون أى تعويض . ومع ذلك فقد اعتدت دائما أن أرى أن السيد دى ريشيليو كان ميالا بطبعه نحوى ، وكان يحسن الظن بمواهبى ، ولكن نحسى والسيدة ديلا بوبلينير حالا دون كل نتيجة لحسن طويته !

وما أستطعت قط أن أفهم سر كراهية هذه المرأة التى كنت أغصب نفسى على إرضائها ، والتى اعتدت أن أثابر على أن أبدى لها مجاملتى . ولقد شرح لى « جوفكور » الأسباب ، فقال: « هناك ـ أولا ـ صداقتها لرامو ، الذى كان يحظى علنا برعايتها ، والذى لم يكن يحتمل أية منافسة .. وفوق ذلك ، كان ثمة ذنب جوهرى يصمك فى نظرها ، ولن تغتفره لك أبدا .. ذلك هو أنك جنيفى ! » .. وهنا بين لى أن الراهب « هوبير » ـ الذى وفد هو الآخر من (جنيف) ، والذى كان

صديقا صدوقا للسيد ديلا بوبلينيير ـ كان قد بذل قصارى وسعه ليصده عن الزواج من هذه المرأة التى كان يعرفها تمام المعرفة ، والتى حرصت ـ بعد الزواج ـ على أن تولى كل جنيفى كراهية لا سبيل إلى مغالبتها . وأردف جوفكور قائلا : « ومع أن لابوبلينيير يكن لك ودا ـ أنا موقن منه ـ إلا أنه ليس لك أن تعتمد على مؤازرته ، فهو مدله فى هوى زوجته ، وهى تكرهك .. وأنها لخبيثة ، ماكرة .. ولن يكون لك شأن فى هذا المنزل » . وأدركت ما كان يرمى إليه !

* * *

ولقد أدى لى جوفكور هذا خدمة أخرى ـ حوالى ذلك الوقت ـ كنت فى حاجة ماسة إليها . فلقد فقدت أبى الفاضل، وقد ناهز الستين من عمره . ولم أشعر بقسوة هذا المصاب كما كنت خليقا بأن أحس بها فى الماضى ، عندما لم تكن الضائقات تشغل بالى بمثل ما كانت تشغله فى هذه الآونة . إذ أننى لم أحاول قط ـ خلال حياته ـ أن أطالب ببقية تركة أمى التى كان يحصل دخلها البسيط . أما بعد موته ، فلم يداخلنى تردد بهذا الشأن ، ولكن عدم توفر دليل قضائى على وفاة أخى كان عقبة أخذ جوفكور على عاتقه عبء إزاحتها ، وقد أزاحها فعلا بفضل مساعى المحامى « دى لولم » . ولما كنت فى حاجة ملحة إلى هذا المورد الضئيل ، وكانت المسألة محوطة بالريب ، فقد رحت أنتظر نبأ حاسما فى صبر نافد وتلهف . وفى ذات مساء ، وجدت ، إذ أبت إلى مسكنى ـ الرسالة التى كان منتظرا أن تشتمل على هذا النبأ ، فتناولتها لأفضها ، وأنا

أرتجف فى لهفة خجلت منها فى سريرتى ، وقلت لنفسى فى ازدراء: « وبعد ؟ ! .. أينساق جان جاك لسلطان المصلحة الخاصة والفضول إلى هذه الدرجة ؟ » .. ووضعت لفورى الرسالة على رف المدفأة ، ثم خلعت ثيابى ، واويت إلى فراشى فى هدوء، فحظيت بنوم يفوق ما اعتدت .. ثم صحوت فى اليوم التالى متأخرا ، دون أن أعود إلى التفكير فى الرسالة . وفيما كنت أرتدى ثيابى ، لمحتها ففضضتها فى غير تعجل ، ووجدت فيها حوالة مالية . وساورتنى كثير من الأفكار السارة ـ فى آن واحد ـ ولكن بوسعى أن اقسم أن أقواها جميعا كانت تلك التى نبهتنى إلى انتصارى على نفسى . وأستطيع أن اذكر عشرين من أمثال هذه المناسبة فى حياتى ، ولكنى لا أجد وقتا لكى أروى كل شىء . ولقد أرسلت قسطا بسيطا من هذه النقود إلى « ماما » وأنا أبكى حسرة على الأوقات السعيدة ، التى كنت فيها على استعداد لأن ألقى بكل شىء عند قدميها ! .. كانت كل رسائلها توحى بضيقها . ولقد أرسلت لى أكواما من الوصفات والأسرار التى كانت تزعم أن بوسعى أن أجمع بها ثروة لى ولها. ولقد كان مجرد التفكير فى فاقتها يعصر قلبى ويضيق افق عقلى. وكان القليل ـ الذى اعتدت أن أرسله إليها ـ يقع فى أيدى الأنذال الذين كانوا يحيطون بها ، دون أن تنتفع بشىء منه . فجعلنى هذا أكره أن أشرك هؤلاء التعساء فيما كانت تمس إليه حاجتى ، لا سيما بعد المحاولات غير المجدية التى بذلتها لانتزاع « ماما » من قبضاتهم ، مما سيرد ذكره فيما بعد .

وانساب الوقت ، وانسابت النقود معه . وكنا اثنين ، بل أربعة .. بل أننا كنا سبعة أو ثمانية ، كما يحسن أن يقال .

ذلك لأنه بالرغم من أن « تيريز » كانت زاهدة فى أية مصلحة شخصية ، إلى درجة لا يكاد يكون لها مثيل ، إلا أن أمها لم تكن على شاكلتها . فما أن رأت أحوالها تتحسن قليلا ــ بفضل رعايتى ــ حتى استدعت كل أسرتها لتشاطرها الغنيمة . فإذا بالأخوات ، والأبناء ، والبنات ، والأحفاد يفدون جميعا ، ما عدا ابنتها الكبرى ، التى كانت متزوجة من مدير عربات النقل فى (انجير) .. وأصبح كل ما أفعله من أجل تيريز ، يتحول بفضل أمها إلى هؤلاء النهمين . ولما لم أكن جشعا ، ولا كنت مستذلا لشهوة مستعرة ، فاننى لم أرتكب أية حماقات . بل إننى فى اغتباطى بأن أعول تيريز ــ فى حياة لا بأس بها ، خالية من الترف، ولكنها فى وقاء من الحاجة ــ أقررتها على أن تسلم أمها كل ما كان بوسعها أن تكسبه من عملها . ولم أكن اقتصر على ذلك .. ولكننى استسلمت للقدر الذى كان يتعقبنى .. ففى الوقت الذى كانت فيه « ماما » ضحية لأنذالها ، كانت تيريز ضحية لأسرتها ، ولم يكن بوسعى أن أقدم اى عون يعود بالنفع على تلك التى كنت أقصد نفعها فى الحالين . ولقد كان من العجيب أن صغرى بنات السيدة لوفاسير ــ وهى الوحيدة التى لم تحظ بصداق من أهلها ــ هى الوحيدة التى راحت تعول أباها وأمها .. وأن هذه المسكينة ــ بعد أن ظلت طويلا تتلقى الصفعات من إخوتها وأخواتها ، بل ومن أبناء هؤلاء ــ أصبحت فريسة لنهبهم ، دون أن تملك لسرقاتهم دفعا يفوق ما كانت تملك من مقاومة لصفعاتهم من قبل . ولم يكن بين ابناء اخوتها سوى واحدة فقط ، تدعى « جوتون ليدوك » ، كانت على قدر من اللطف ورقة الطبع، برغم ما كان يفسدها من قدوة الآخرين ودروسهم .

ولما كنت كثيرا ما أراهم مجتمعين ، فقد أصبحت أطلق عليهم ما يطلقه بعضهم على بعض من القاب ، فأنا أنادى ابنة الأخ بيا ابنة أخى ، والعمة بيا عمتى . وأصبح الفريقان يناديانني بياعمى .. ومن هنا نشأ اسم « العمة » الذى أنادى به تيريز باستمرار ، والذى يردده أصدقائى فى بعض الأحيان ، على سبيل المداعبة !

***

ومن المعقول أننى لم أضيع لحظة واحدة ــ فى مثل هــذا الموقف ــ دون أن أحاول أن انتزع نفسى منه ، وإذ حدســت أن السيد دى ريشيليو قد نسينى ، ولم أعد آمل فى شىء من ناحية البلاط ، بذلت بضع محاولات لقبول تقــديم أوبراى فى باريس . ولكننى صادفت عقبات كان تذليلها يتطلب وقتا ، فى حين أن حاجتى كانت تزداد شدة يوما بعد يوم . ولقد أشير على بأن أقدم تمثيليتى الهزلية الصغيرة « نارسيس » على مسرح الإيطاليين « أوزيتاليان » . فقبلت التمثيلية ، وظفرت بالتردد على المسرح دون مقابل ، مما سرنى كثيرا . ولكن هذا كان غاية ما فى الأمر إذ أننى لم أوفق قط إلى أن أحملهم على إخراج المسرحية . حتى إذا ضقت بمداهنة الممثلين الفكاهيين، انصرفت عنهم . ولجأت فى النهـاية إلى الحيلة الأخيرة التى بقيت لى ، والتى كان يجب أن تكون الوحيدة الجديرة بأن تتبع . ففيما كنت أتردد على دار السيد ديلا بونلينير ، ظللت بعيــدا عن دار السيد دوبان . ومع أن ربتى الدارين كانتا على بعض صلات القربى ، إلا أنهما لم تكونا على وئام ، ولم تتزاورا قط .

بل لم تكن بين الدارين اية صلة ، وإنما كان « ثيريو » هو الوحيد الذى اعتاد أن يتردد على هذه وتلك . وقد وكل إليه أمر السعى إلى حملى على العودة إلى دار السيد دوبان .

وكان السيد فرانكويى ماضيا ـ فى تلك الأثناء ـ فى دراسة التاريخ الطبيعى والكيمياء ، وقد أعد لنفسه غرفة للدراسة . وأظنه كان يطمع فى عضوية محفل العلوم ، وكان يرغب ـ فى سبيل ذلك ـ فى أن يضع كتابا ، وقد خطر له أننى أستطيع أن أكون ذا نفع فى هذا الصدد . وكان للسيدة دوبان ـ من ناحيتها ـ رأى مشابه فى شخصى ، كما أنها كانت تفكر فى أن تؤلف كتابا . ومن ثم فقد ودا أن يستأجرانى لأكون أشبه بسكرتير يتقاسمانه . وكان هذا هو الهدف من مساعى ثيريو . فطلبت ـ كعربون ـ أن يستخدم السيد دى فرانكويى نفوذه ونفوذ « جيليو » من أجل تجربة إخراج تمثيليتى فى الأوبرا ، فوافق . وأجريت عدة تجارب لإخراج « عرائس الشعر اللطاف » فى « المخزن »(١) فى بادىء الأمر ، ثم انتقلت التجارب إلى المسرح الكبير . وحضر التجربة الكبرى كثير من الناس ، وحظيت كثير من المقطوعات بتصفيق شديد . على أننى شعرت أثناء الأداء الموسيقى ـ الذى أساء « ريبيل » الاشراف عليه ـ بأن هذه التمثيلية لن تلقى قبولا ، بل إنها لن تكون معدة للعرض دون تعديلات كبيرة . وعلى هـذا فاننى سحبتها دون ما إيضاح ، ودون أن أعرض نفسى لسماع رفضها . ولكننى رأيت بجلاء ،

---

(١) القسم الذى كانت تحفظ فيه المناظر المسرحية وثياب التمثيل .

ومن عدة بوادر ، أن التمثيلية ما كانت ستجاز ، ولو كانت فى أكمل حال . ذلك لأن السيد دى فرانكويى كان قد وعـد حقا بأن يهيىء السبيل لتجربتها ، ولكنه لم يعد بأن يضمن قبولها . وقد بر بوعده تماما . ولقد كان يخيل إلى دائما ـ فى هـذه المناسبة وفى كثير غيرها ـ بأنه ومدام دوبان لم يكونا حريصين على أن يدعانى اكتسب شهرة محققة فى المجتمع . ولعل ذلك كان راجعا إلى خوفهما من أن يظن ـ عندما تظهر مؤلفاتهما ـ أنهما قد شحذا مواهبهما على محك مواهبى . ومع ذلك ، فإن السيدة دوبان كانت دائما مقتصدة فى رأيها عن كفاءتى ، ومن ثم فإنها لم تستخدمنى قط إلا لأكتب ما كانت تمليه على ، أو لأقوم لها بأبحاث علمية بحتة ، ومن ثم فإن هذا الظن ـ فيما يتعلق بها ـ قد يكون جائرا !

من سنة ١٧٤٧ إلى سنة ١٧٤٩

أدى هذا الفشل الأخير إلى تثبيط عزيمتى تماما ، فهجرت كل أمل فى الرقى والمجد ، ولم أعد أفكر فى مواهبى الحقيقية أو الموهومة ، التى لم تعد على بطائل ، بل كرست وقتى وجهدى لكسب قوتى وقوت تيريزى ، بالشكل الذى راق لذانك اللذين تكفلا بتمكينى من ذلك . ومن ثم فاننى تفرغت تماما للسـيدة دوبان والسيد دى فرانكويى . ولم يدفعنى هذا الى سعة من العيش موفورة . . فإن المرتب الذى تقاضيته فى العامين الأولين ـ وكان ثمانمائة أو تسعمائة فرنك سنويا ـ كان لا يكاد يوفر لى حاجاتى الأولية . إذ اننى كنت مضطرا إلى الإقامة على مقربة منهما ، فى حجرة مؤثثة ، بحى من الأحياء التى تتطلب نفقات

كثيرة ، كما كنت أدفع إيجار مسكن آخر ، فى الطرف الأقصى لباريس ، عند نهاية شارع (سان جاك) ، حيث كنت أذهب لتناول العشاء فى كل مساء تقريبا ، مهما تكن حال الطقس . وسرعان ما ألفت عملى الجديد ، بل إننى بدأت أميل إليه فاهتممت بالكيمياء ، وتلقيت دروسا عدة مع السيد دى فرانكويى ، لدى السيد رويل . ورحنا نسود أكداسا من الورق بما كنا نكتبه فى هذا العلم ، سواء عن صواب أو عن خطأ ، برغم أننا لم نكد نلم بمبادئه الأولية ! . ولقد ذهبنا ـــ فى سنة ١٧٤٧ ـــ لقضاء الخريف فى (تورين) ، فى « شاتو دى شينونسو » ، القصر الملكى القائم على نهر الشير ، والذى شيده هنرى الثانى من أجل ديانا دى بواتيير .. التى لا تزال الحروف الأولى من اسمها ترى منقوشة هناك . وكان هذا القصر قد آل إلى السيد دوبان ، بوصفه المشرف العام على الأراضى الزراعية للملك . ولقد استمتعنا كثيرا بالاقامة فى هذا المكان البديع ، وازددنا سمنة ، حتى أننى أصبحت بدينا كالرهبان ! .. ونعمنا بقدر كبير من الموسيقى ، كما أننى ألفت عدة ثلاثيات غنائية(١) ، زاخرة بالقوة وبالتناسق النغمى ، وسوف أتحدث عنها فى « الملحق » إذا قدر لى أن اكتبه . كذلك كنا نقوم بتمثيل بعض المسرحيات الفكهة ، واستطعت ـــ فى خمسة عشر يوما ـــ أن أؤلف واحدة ، من ثلاثة فصول ، أسميتها «الخطبة المتهورة»(٢) ،

---

(١) قطع غنائية يشترك فى أدائها ثلاثة أشخاص .

(٢) l'Engagement Téméraire

وهى موجودة بين أوراقى ، ولا تمتاز بغير مرحهـا المفرط . ووضعت هناك بعض مؤلفات صغيرة أخرى ، منها قصيدة بعنوان « درب سيلفيا »(١) ، عن درب فى المتنزه الذى كان يمتد على ضفاف نهر (الشير) . على أن هذا لم يصرفنى عن دراساتى الكيمياوية ، ولا عن العمل الذى كنت أؤديه للسيدة دوبان .

وبينما كنت ازداد سمنة فى شينونسو ، كانت تيريزى المسكينة تتضخم فى باريس بشكل آخر ، حتى إذا عدت ، وجدت « المؤلف » الذى كنت بدأته ، قد تقدم بدرجة لم أكن أتصورها(٢) . وقد دفع بى هذا ـ نظرا لموقفى ـ إلى حيرة بالغة ، لولا ان زملاء المائدة أمدونى بالحيلة الوحيدة التى كان بوسعها أن تخرجنى من المازق . وهى من البيانات الدقيقة التى لا أملك أن أبوح بها فى بساطة ، لأنى قد أضطر ـ إذا أقدمت على اى إيضاح ـ إلى أن ألتمس لنفسى المعاذير ، أو إلى أن أدين نفسى ، وما أرانى راغبا فى أن أفعل هذا أو ذاك!

ففى أثناء إقامة « التونا » فى باريس ، اعتدنا أن نتناول وجباتنا على مقربة من مسكننا ، بدلا من أن نأكل فى أحد المطاعم . فكنا نتردد على السيدة لاسيل ، بالقرب من ممر « الأوبرا » . . وكانت زوجة حائك ، تقدم أطعمة غير شهية،

---

(١) لم يلبث القصر أن آل الى مالك هدم هذا الدرب الذى اذاع روسو شهرته ، والذى كان يجتذب زوار فرنسا من الاجانب .

(٢) من المفهوم انه يعنى أن علاقته بتيريز أثمرت جنينا .

ولكن مائدتها كانت قبلة الطاعمين ، نظرا لمن كانوا يجتمعون حولها من رفاق طيبين موثوق بهم . فما كان لأى مجهول أن يلج المكان ، بل كان لا بد من أن يقدمه واحد ممن اعتادوا تناول الطعام هناك . وكان « الكوماندور دى جرافيل » ممن استقروا هناك . وهو شيخ ماجن ، موفور الظرف والذكاء ، ولكنه بذىء اللسان .. وقد اجتذب حوله ثلة من الشباب الطائش الذكى ، تألفت من ضباط من فرق الحرس والفرسان .. وكان « الكوماندور دى تونان » حامى كل فتيات الأوبرا ، وقد اعتاد أن يحمل إلى المكان — فى كل يوم — كافة أنباء هذا الوسط العابث .. أما السيدان « دوبليسى » — وكان «بكباشى» محالا على الاستيداع ، وشيخا طيبا حكيما — و « انسيليه »(١) — وكان من ضباط الفرسان — فقد فرضا قدرا من النظام على

---

(١) عقب « روسو » على هذا بقوله : « الى هذا الانسيليه أهديت تمثيلية فكهة صغيرة من تأليفى ، بعنوان « أسرى الحرب » ، وضعتها بعد النكبات التى نزلت بالفرنسيين فى بافاريا وبوهيميا ، ولم أجرؤ اطلاقا على أن أعترف بها ، أو أن أعرفها . وكان ذلك لسبب واحد ، هو أن الملك ، وفرنسا ، والفرنسيين ، لم يحظوا — فيما أحسب — بأفضل ولا أصدق من الاطراء الذى اشتملت عليه هذه التمثيلية . ولما كنت جمهوريا وناقدا صريحا للحكومة ، فاننى لم أجسر على أن أعترف باننى مادح أمة كانت كل مبادئها متعارضة مع مبادئى . واذ كنت أشد أسى لمصائب فرنسا من الفرنسيين أنفسهم ، فقد خشيت أن تؤخذ على محمل الملق والجبن ، امارات الحب الصادق ، الذى ذكرت — فى الجزء الأول من اعترافاتى — عهده وسببه ، والذى كنت استحيى من ابدائه ! »
(وقد ورد ذكر ذلك فى الكراسة الخامسة) .

هؤلاء الشبان . كذلك كان يتردد على المكان تجار ، وماليون ، ومتعهدون بتوريد الأغذية . . ولكنهم كانوا مؤدبين ، أمناء ، من المبرزين فى حرفهم ومهنهم . وكان السيد دى بيس والسيد دى فوركاد بين هؤلاء الذين نسيت أسماءهم . وقصارى القول إن المرء كان يرى هناك أناسا محترمين من جميع الأنواع فيما عدا الرهبان وذوى الأوشحة(١) الذين لم يقع عليهم بصرى هناك إطلاقا ، فقد كان ثمة اتفاق على عدم تقديم أحد منهم. وكانت هذه المائدة ، على ازدحامها ، جد مرحة فى غير صخب، كثيرة الثرثرة فى غير بذاءات . فما كان القائد (الكوماندور) الشيخ لينسى البتة ـــ بكل قصصه الماجنة ـــ الأدب الذى ألفه فى البلاط ، فلم تكن تخرج من فمه إطلاقا أية كلمة بذيئة لا تغتفرها له النساء . وكانت لهجته دستورا للمائدة كلها ، فكان كل أولئك الشبان يروون مغامراتهم الغرامية فى كثير من التحرر والكياسة . ولم تكن قصص الفانيات لتغيب عن المائدة، إذ كان ثمة مورد لها جد قريب ، فقد كان الممر الذى يفضى إلى دار السيدة لاسيل ، يؤدى كذلك إلى حانوت السيدة دوشات، وهى تاجرة أزياء ذائعة الصيت ، كانت تستخدم ـــ إذ ذاك ـــ فتيات موفورات الجمال ، اعتاد السادة أصحابنا أن يسعوا إلى مجاذبتهن الحديث ، بعد الغداء . وكان بوسعى أن أتسلى كما كان يفعل الآخرون ، لو أننى كنت أكثر جرأة مما أنا . إذ أننى لم أكن بحاجة إلى أكثر من أن ألج الحانوت ، كما كانوا يفعلون ، ولكننى لم أجسر . أما السيدة لاسيل ، فقد ظللت

---

(١) يقصد المحامين .

أذهب لتناول الطعام لديها فى كثير من الأحيان ، عقب رحيل « التونا » . وهناك ، سمعت فيضا من الحكايات المسلية ـ كما اقتبست تدريجيا المبادىء التى ألفيتها مستتبة هناك ـ دون المقاييس الخلقية ، والحمد للسماء ! .. فمن أشراف أوذوا ، إلى أزواج خدعوا ، إلى نساء استخفتهن الغواية ، إلى أطفال ولدوا فى الخفاء .. كل هذه كانت موضوعات عادية مألوفة هناك . وكان ذلك الذى يساهم أكثر من سواه ، فى زيادة عدد سكان ملجأ اللقطاء ، هو أكثر الناس نصيبا من الإعجاب . ولقد أصابتنى عدوى هذا كله ، فصغت طريقة تفكيرى على نسق تلك التى رأيتها سائدة بين قوم ظرفاء ، ومفرطى الأدب بوجه عام ! .. وقلت لنفسى : « ما دام هذا هو العرف السائد فى البلاد ، فللمرء أن يتبعه إذا ما أقام فيها »! .. وهذه هى الحيلة التى كنت انشدها . فاعتزمت ـ فى اغتباط ـ أن انتهجها ، دون اية هواجس من ناحيتى أو تردد .. وكل ما كان على أن أتغلب عليه ، هو مخاوف تيريز ، التى كابدت فى حملها على انتهاج الوسيلة الوحيدة لانقاذ شرفها ، كل ما فى الدنيا من عناء ! .. ولقد انضمت لى أمها التى كانت تخشى التورط فى طفل جديد . وانصاعت تيريز فى النهاية ، فاخترت مولدة (داية) حكيمة ، مأمونة ، تدعى الآنسة « جوان » ـ كانت تقيم عند (رأس سان أوستاش) ـ لنعهد إليها بهذه الوديعة . فلما آن الأوان ، نقلت تيريز ـ بمعرفة أمها ـ إلى دار الآنسة جوان ، لتضع حملها ، وذهبت إلى هناك عدة مرات لأزورها ، وحملت إليها رمزا مزدوجا نقش على بطاقتين ، لتوضع إحداهما فى ثياب الطفل ، على أن



وحملت اليها رمزا مزدوجا نقش على بطاقتين ، لتوضع احداهما في ثياب الطفل ، على أن تودعه القابلة (الداية) ادارة ملجا اللقطاء .

تودعه القابلة (الداية) إدارة ملجأ اللقطاء ، بالطريقة المعهودة .. وفى العام التالى ، تكررت المضايقة ، وتكرر العلاج ، فيما عدا الرمز الذى أغفل ! .. ولم يعد ثمة تفكير فى الأمر — من ناحيتى — لا ولم يكن ثمة انصياع يفوق انصياع الأم ، التى أطاعت وهى تتنهد . ولسوف تبدو تباعا كل التغييرات التى أدت هذه الطريقة إلى فرضها على أسلوبى فى التفكير ، وعلى مصيرى كذلك . أما الآن ، فلنلزم هذه المرحلة الأولى ، إذ أن معقباتها — التى كانت من القسوة بقدر ما كانت متوارية غير ظاهرة — لن تلبث أن تضطرنى إلى العودة إليها كثيرا .

* * *

ولسوف أذكر هنا واقعة أول تعارف بينى وبين السيدة « ديبيناى » ، التى كثيرا ما سيتردد اسمها فى هذه المذكرات. كان اسمها الآنسة ديسكلافيل ، ثم تزوجت من السيد « ديبيناى » ، نجل السيد « دى لاليف دى بيلجراد » ، الذى كان مديرا عاما للأراضى الزراعية. . ولقد كان الزوج موسيقيا، على شاكلة السيد دى فرانكويى . كذلك كانت هى الأخرى موسيقية ، وقد خلق الولع بهذا الفن ودا عظيما بين هؤلاء الأشخاص الثلاثة . وقدمنى السيد دى فرانكويى إلى السيدة ديبيناى ، فكنت أتناول العشاء معها فى بعض الأحيان . وكانت لطيفة ، ذكية ، موهوبة ، خليقة بأن ينشد المرء ودها حقا . على أنها أوتيت صديقة — تدعى الآنسة « ديت » — كانت تعتبر خبيثة ، وكانت تعاشر الشيفالييه دى فالورى ، الذى

لم يكن حسن السمعة ، وأعتقد ان صحبة هذين الشخصين قد اساءت إلى السيدة دبيناى ، التى حبتها الطبيعة بسجية غلابة ، وصفات رائعة تخفف من ، أن تتوازن مع نزواتها . ولقد اوحى إليها السيد دى فرانكويى قسطا من الود الذى كان يكنه نحوى ، وصارحنى بصلاته بها ، ولهذا السبب فاننى ما كنت لأتحدث عن هذه الصلات هنا ، لولا أنها أصبحت معروفة إلى درجة أنها لم تعد خافية على السيد دبيناى !.. كذلك آثرنى السيد دى فرانكويى باعترافات عجيبة من هذه السيدة ، لم تذكرها لى بنفسها إطلاقا ، ولم يخطر ببالها البتة أننى كنت على علم بها . فاننى لم أفتح فمى — ولن أفتحه — بالحديث فى هذا الموضوع ، إليها أو إلى أى امرىء آخر(١). ولقد ادت كل هذه الاعترافات — من كل من الطرفين — إلى الزج بى فى موقف جد حرج، لا سيما إزاءالسيدة دى فرانكويى، التى كانت تعرفنى خير معرفة ، فلم تفقد ثقتها بى بالرغم من توثق صلاتى بغريمتها . ولقد عمدت ـ بقدر ما كان بوسعى ـ إلى مواساة هذهالسيدة البائسة، التى لم يبادلها زوجها — دون ما شك — ما كانت توليه من حب . وكنت أصغى إلى هؤلاء الثلاثة ، كل على حدة ، وأصون أسرارهم بأقصى وفاء ، دون أن يقدر قط لأى من ثلاثتهم أن ينتزع منى شيئا من أسرار الاثنين الآخرين ، ودون أن أخفى عن كل من المرأتين ودى لغريمتها!..

---

(١) لم تعد اعترافات السيد دى فرانكويى لروسو سرا خافيا على أحد. فان المذكرات التى نشرت باسم دبيناى تبين لنا أنها أصيبت بعدوى مرض خبيث، من زوجها .. وانها نقلت هذا المرض الى عشيقها ، الذى قدر له ان يموت به!

ولقد حاولت السيدة دى فرانكويى أن تفيد منى فى أمور كثيرة، فقوبلت برفض بات .. كما أن السـيدة ديبيناى ارادت ان تحملنى ـ ذات مرة ـ رسالة إلى فرانكويى ، فلم تقابل برفض مشابه فحسب ، بل إننى صارحتها كذلك بجلاء تام ، بأنها لم تكن بحاجة إلى أكثر من أن تعرض على مثل هذا الأمر ـ مرة ثانية ـ إذا شاءت أن تقصينى عن دارها إلى الابد ! .. ومن الواجب أن أنصف السيدة ديبيناى ، فإنها كانت أبعد من أن تبدى استياء من مسلكى ، بل إنها تحدثت عنه إلى فرانكويى بأبلغ تقـدير ، ولم يقل ترحيبهـا بى بعده ، عما اعتادت أن تستقبلنى به قبله . وهكذا استطعت أن أمضى موفقا وسـط العلاقات العاصفة بين هؤلاء الأشخاص الثلاثة الذين كنت أعتمد عليهم فى معاشى ـ إلى حد ما ـ والذين كنت أكن لهم صادق الميل .. واستطعت أن احتفظ ـ إلى النهاية ـ بودهم، وتقـديرهم ، وثقتهم ، إذ رحت أتصرف فى رفق ومجاملة ، يرافقهما ـ دائما ـ استقامة وحزم . وبالرغم من غبـائى وحماقتى ، فإن السيدة ديبيناى كانت تميل إلى أن تصطحبنى إلى الحفلات اللاهية التى كانت تقام فى (لاشيفريت) ، فى قصر على نهر (سان دنيس) ، من أملاك السيد دى بيلجراد . وكان ثمة مسرح هناك ، كثيرا ما أخرجت عليه مسرحيات . وقد عهد إلى بأحد الأدوار ، فظللت استذكره ستة أشـهر ـ دون انقطاع ـ ومع ذلك فاننى لم استغن عمن راح يهمس إلى بعباراته من البداية إلى النهاية ، أثناء التمثيل ! .. وبعد هذه التجربة ، لم يعرض على أى دور !

وفى تعرفى بالسيدة دبيبناى ، حظيت كذلك بمعرفة الآنسة دى بيلجراد ، التى لم تلبث أن أصبحت كونتة هودينو . وكانت أول مرة رأيتها فيها ، فى اليوم السابق على زواجها . وقد حدثتنى طويلا(١) ، بتلك الألفة الساحرة التى فطرت عليها . وألفيتها مفرطة فى اللطف ، ولكننى كنت أبعد من أن أرى انه كان مقدرا لهذه الشابة أن تشكل هدف حياتى يوما ، وأن تجرنى ـــ عن براءة ودون إدراك أو قصد ـــ إلى الحضيض الذى أعيش فيه اليوم !

ومع أننى لم أتحدث عن « ديدرو » منذ عودتى من البندقية، ولا عن صديقى السيد «روجان» ، إلا أننى لم أهمل أيا منهما ، بل ان روابط الود أخذت تزداد توثقا بينى وبين الأول ـــ بوجه خاص ـــ يوما بعد يوم . وكما أننى أوتيت «تيريز»، فقد أوتى هو «نانيت» ، وكانت هذه ناحية أخرى من نواحى التقارب بيننا . ولكن الفارق كان فى أن تيريزى ، وإن ماثلت نانيته فى حسن الشكل ، إلا أنها كانت أرق مزاجا والطف شخصية منها، وقد خلقت لترتبط برجل محترم .. أما فتاته فكانت سليطة، «زفرة» اللسان ، لا تبدى أمام أنظار الغير ما يخفى سوء التربية . ولقد تزوجها ـــ مع ذلك ـــ وكان هذا عملا طيبا منه،

---

(١) استعمل « روسو » هنا تعبيرا غير شائع فى الفرنسية ، لذلك استعملنا فى الترجمة « حدثتنى » بدلا من « تحدثت الى أو معى » !

إذا كان قد وعدها بالزواج . أما أنا ، فلم أكن بحاجة إلى أن أحذو حذوه ، إذ أنني لم أبذل مثل هذا الوعد إطلاقا !

ولقد اتصلت كذلك بالراهب دي « كونديللاك » ، الذي لم يكن أفضل مني حالا في الأدب ، ولكنه كان مهيئا لأن يصير إلى ما أصبح اليوم عليه . ولعلني كنت أول من أبصر كفاءته ، وقدره حق قدره . ولاح أنه كذلك ارتاح إلي ، وعندما احتبست نفسي في غرفتي بشارع (جان سان دنيس) — على مقربة من «الأوبرا» — لأضع الفصل الذي ضمنته أوبراي عن «هيسيود»، اعتاد أن يفد في بعض الأحيان ، فيتناول الغداء معي، وحيدين، وكنا نتقاسم النفقات . ولقد كان يعمل — إذ ذاك — في كتابه : « رسالة في أصل المعرفة البشرية »، الذي كان أول مؤلفاته . فلما فرغ منه، تمثلت الحيرة في العثور على كتبي يتكفل بنشره . إذ أن أصحاب المكتبات الباريسية يعاملون كل مبتدىء في صلف وجفاء . وكان علم ما وراء الطبيعة غير شائع — إذ ذاك — ومن ثم فإنه لم يكن موردا لموضوع جذاب . ولقد تحدثت إلى « ديدرو » عن « كونديللاك » ومؤلفه ، وحملته على أن يتعرف إليه . ولقد خلقا لكي يتوافقا ، فسرعان ما تآلفا . وأغرى « ديدرو » الكتبي «دوران» على أن يقبل مخطوط الراهب ، فتسلم هذا العالم الكبير بما وراء الطبيعة ، في مقابل كتابه الأول ، مائة «ايكو» ، وكان في هذا إيثار له وتكريم ما كان من

المحتمل أن يلقاهما لولاى ! .. ولما كنا نحن الثلاثة(١) نقيم فى أحياء متباعدة جدا ، فإننا كنا نجتمع مـرة فى الأسبوع ، فى (الباليه رويال) ، فنذهب لتناول الغداء معا فى فندق (البانييه فلورى) . ولا بد أن هذه المادبة الصغيرة الأسـبوعية كانت محببة إلى ديدرو كثيرا ، إذ أنه لم يتخلف عنها قط ، وهو الذى كان يخفق دائما فى أن يذكر مواعيده الأخرى . ولقد رسمت ـ فى تلك اللقاءات ـ خطة نشرة دورية تسمى « الساخر »(٢)، على أن نكتبها بالتعاقب ، ديدرو وأنا . ولقد وضعت الخطوط الأولى للعدد الأول ، فادى هذا إلى أن أتعرف إلى «داليمبير»، الذى حدثه ديدرو عن النشرة . غير أن أحداثا ـ لم تكن منظورة ـ اعترضت طريقنا ، فظل المشروع عند هذا الحد .

وكان هذان المؤلفان(٣) قد اضطلعا بوضع «قاموس محيط»، قصد به ـ فى البداية ـ أن يكون نظيرا مترجما لموسـوعة « تشامبرز » ، وقريب الشبه من « قاموس جيمس الطبى » الذى كان ديدرو قد فرغ من ترجمته . ولقد رغب ديدرو فى أن يشركنى فى بعض أجزاء مشروعه الثانى ، فاقترح على أن اضطلع بالقسم الموسيقى. وقد قبلت، وأديت مهمتى فى عجلة،

---

(١) الراهب وديدرو وروسو .

(٢) Le Persi Fleur

(٣) ديدرو وداليمبير .

وفى غير إجادة ، خلال الأشهر الثلاثة التى حددها لى ، كما حددها لكافة المؤلفين الذين قدر لهم أن يشتركوا فى هذا المشروع . على اننى كنت الوحيد الذى كان قد اكمل عمله فى الموعد المعين ، فأسلمته مخطوطى ، الذى كنت قد عهدت بنسخه إلى احد وصفاء السيد دى فرانكويى ، ويدعى ديبون، فكتبه بخط حسن ، ودفعت له فى مقابل ذلك ــ من جيبى الخاص ــ عشر قطع من فئة «الايكو» ، لم يقدر لى قط أن أستردها . إذ أن ديدرو كان قد وعدنى ــ باسم الناشرين ــ بقسط من الأرباح ، لم يعد إلى محادثتى بشأنه مرة اخرى ، ولا فاتحته انا بصدده !

ولقد تعطل مشروع « الموسوعة » هذا بسبب سجنه . واجتلب عليه كتابه « أفكار فلسفية » بعض مضايقات لم تؤد إلى نتيجة ما . ولكن الأمر اختلف بالنسبة إلى كتابه « رسالة عن العميان » ، الذى لم يشتمل على ما يستحق النقد فيما عدا بعض مسائل شخصية رأت السيدة « دوبريه دى سان مارو» والسيد « ريومير » أن فيها ما يمسهما ، ومن ثم فقد سجن ديدرو ــ من أجلها ــ فى سجن (فانسين) . ولن يصف شىء مدى التباريح التى أحدثتها فى نفسى محنة صديقى . فاذا بخيالى المكتئب ــ الذى اعتاد دائما أن يضخم المحن ــ يجمح فى انزعاجه ، إذ خيل إلى أن ديدرو قد يمكث هناك طيلة عمره ، فكدت اجن لذلك ، وكتبت إلى السيدة دى بومبادور، أناشدها

إطلاق سراحه ، أو العمل على أن أحبس معه . ولم أتلق ردا ما من خطابى ، إذ أنه كان جد بعيد عن المعقول ، فلم يحدث اثرا . ولست أدعى لنفسى فخر أن يكون خطابى قد ساهم فيما حدث بعد ذلك ، من تخفيف متاعب السجن على ديدرو المسكين . على أنه لو كان قد قدر لهذا الحبس أن يستمر فترة أخرى بنفس القسوة ، فلست أشك فى أننى كنت أموت كمدا وقنوطا ، تحت أسوار ذلك السجن اللعين .. وحتى إذا كان خطابى قد أحدث مفعولا يسيرا ، فانني لم أوله أهمية تذكر ، حتى أننى لم أتحدث عنه إلا لنفر قليل من النـــاس .. ولم أتحدث عنه إلى ديدرو نفسه البتة !

الكراسة الثامنة

سنة ١٧٤٩

خليق بى أن أقف قليلا إذ انتهت الكراسة السابقة . فمع الكراسة الحالية ، تبدأ أصول السلسلة الطويلة من المحن التى ألمت بى .

لم يفتنى ـــ أثناء ترددى على دارين من ألمع دور باريس ـــ أن أعقد بعض صلات التعارف ، برغم قلة لباقتى . فتعرفت ـــ فيمن تعرفت إليهم لدى السيدة دوبان ـــ إلى الأمير الشاب وريث إمارة (ساكس جوتا) ، وإلى مربية البارون دى تون، كما تعرفت لدى السيد ديلا بوبلينير إلى السيد دى سيجاى ، صديق البارون دى تون ، وكان معروفا فى عالم الأدب بالنسخة البديعة التى كانت لديه من ديوان « روسو »(١) . ولقد دعانا البارون ـــ أقصد دعا السيد سيجاى وإياى ـــ إلى قضاء يوم أو اثنين فى (فونتناى ـــ سو ـــ بوا) ، حيث كان الأمير يمتلك دارا ، فذهبنا .. وفيما كنا نمر بفانسين ، شعرت بقلبى يتمزق ، إذ رأيت السجن . ولمح البارون آثار ذلك على وجهى. وعند العشاء ، تحدث الأمير عن سجن « ديدرو » ، فعمد البارون ـــ ليحملنى على الكلام ـــ إلى اتهام السجين بالنزق.. وهو عين ما بدر منى فى غلظتى إذ انبريت للدفاع عنه ! . ولقد اغتفر لى هذا الاندفاع ، باعتبارى رجلا أنساق لعاطفته

(١) الشاعر جان باتيست روسو .

نحو صديق تعس ، واتخذ الحديث وجهة أخرى . وكان ثمة اثنان من الألمان الملحقين بخدمة الأمير ، أحدهما يدعى «كلبفيل» ، وهو رجل جم الذكاء ، كان فى ذلك الحين قسا راعيا للأمير ، وغدا فيما بعد مربيا له ، خلفا للبارون .. أما الآخر ، فكان شابا يدعى السيد « جريم » ، كان يتكفل بالقراءة للأمير ، ريثما يتسنى له الحصول على منصب آخر . وكان تواضع ملبسه ينم عن شدة حاجته إلى ذلك .

ومنذ تلك الليلة ، بدأت بينى وبين كلبفيل رابطة لم تلبث أن تطورت إلى صداقة . أما صلتى بالسيد جريم ، فلم تصل إلى هذا الحد بمثل هذه السرعة ، إذ أنه لم يكن يحاول أن يظهر ، بل كان بعيدا كل البعد عن حب الظهور الذى خلعه عليه الثراء فيما بعد .. ولقد دار الحديث عند الغداء ـ فى اليوم التالى ـ عن الموسيقى ، فأجاد الخوض فيه . وقد ابتهجت حين علمت أنه يحسن المصاحبة على المعزف ، فقضينا اليوم فى موسيقى ، على معزف الأمير ، ومنذ ذلك الحين بدأت تلك الصداقة التى كانت جد لطيفة فى أولها ، وجد نكدة فى آخرها ، والتى سأكثر من الحديث عنها فيما بعد .

وإذ عدنا إلى باريس ، علمت بالنبأ المفرح .. بأن ديدرو قد غادر « الزنزانة » ، وأنه منح قلعة ومتنزه (فانسين) كسجن له ـ اعتمادا على وعد شرف منه ـ وسمح له بأن يستقبل أصدقاءه . ولكم شق على الا أستطيع أن أهرع إليه فى التو ! .. فلقد تأخرت يومين أو ثلاثة ، لدى السيدة دوبان ، بسبب واجبات لم يكن ثمة مفر منها .. وبعد ثلاثة أو أربعة

قرون من التلهف ، طرت لأرتمى بين ذراعى صـــديقى ! ..
ويا لها من لحظة جلت عن الوصف ! .. ولم أجده وحيدا ، بل
كان معه « داليمبير » وأمين صندوق كنيسة « سانت شابيل»
.. وإذ دخلت ، لم أر فى المكان سواه ، ولم أفعل ســوى أن
قفزت ، وأن صرخت .. والصقت وجهى بوجهه ، وضممته
بشدة دون كلام سوى كلام دموعى وعبراتى .. كنت أختنق
شوقا وطربا ! .. وكانت أولى حركاته أن تخلص من عناقى،
واستدار نحو رجل الكنيســـة قائلا : « أترى يا سيدى كيف
يحبنى أصدقائى ؟ » .. وإذ كنت غارقا فى انفعالاتى ، فاننى
لم أر من هذا المسلك سوى جانبه الطيب ، ولكننى اذ أفكر
فيه أحيانا ـــ بعد ذلك ـــ أرى أن هذا لم يكن خليقا بأن
يكون أول ما يخطر ببالى لو اننى كنت فى موقف ديدرو !

ووجدته متأثرا بسجنه أشد التأثر ، فلقد تركت «الزنزانة»
طابعا فظيعا على نفسه ، ومع انه ارتاح إلى المقام فى القلعة،
وغدا حرا فى التجول فى متنزه لم تكن تحيط به أسوار ، إلا انه
كان محتاجا إلى صحبة أصدقائه ، كى لا يستسلم للأفكار
السوداء . ولما كنت الشخص الذى يعطف أشد العطف على
آلامه ـــ يقينا ـــ فقد رأيت أننى ولا بد ـــ كذلك ـــ الشخص
الذى تسرى عنه رؤيته ، أكثر من أى شىء آخر . وبالرغم من
وجود بعض الشواغل العاجلة الملحة ، فقد رحت أتردد عليه
بعد ذلك ـــ مرة كل يومين ـــ وحيدا ، أو مع زوجته ، لأقضى
معه فترة الأصيل .

* * *

وجاء الصيف فى ذلك العام ـ ١٧٤٩ ـ شديد الحر . وكان ثمة فرسخان بين باريس وفانسين . ولما لم أكن فى سعة تمكننى من استئجار عربة ، فقد اعتدت أن أنطلق فى الساعة الثانية ـ من بعد الظهر ـ على قدمى ، إذا ما كنت وحيدا .. وكنت أغذ السير لأصل فى أقرب وقت .. وكانت الأشجار القائمة على طول الطريق ، غير وارفة الأفنان ، على ما هو مألوف فى تلك المنطقة ، فلم تكن تضفى على شيئا من الظل تقريبا ، وكثيرا ما كنت أرتمى على الأرض ، وقد أرهقنى الحر والتعب ، وعجزت عن المضى .. ولكى أخفف من سرعة انطلاقى ، عمدت إلى اصطحاب أحد الكتب خلال الرحلة . وفى ذات يوم ، اصطحبت كتاب « تقويم فرنسا » . وفيما كنت أقرأ أبان سيرى ، صادفت السؤال الذى طرحه المحفل العلمى لديجون ، ليكون موضوع مباراة(١) العام التالى : « هل ساعد تقدم العلوم والفنون على إفساد الأخلاق أو على تطهيرها ؟ » .

وما أن قرأت هذه الكلمات ، حتى تمثلت كونا آخر ، وغدوت إنسانا آخر . ومع أننى أحتفظ بذكرى حية للأثر الذى أحدثه السؤال فى نفسى ، إلا أن تفصيلات الواقعة غابت عن بالى مذ أودعتها إحدى رسائلى الأربع إلى السيد دى « ماليزيرب » . وهذه إحدى الظواهر العجيبة التى تتصف بها ذاكرتى ، والتى

---

(١) كانت مباراة سنوية يعقدها المحفل العلمى بديجون ، لأحسن رسالة تكتب فى الموضوع الذى يطرحه للمسابقة .

تستحق الذكر . فهى حين تسعفنى لا تمضى فى ذلك إلا طالما كنت معتمدا عليها . وما ان أسكب ما استودعتها إياه على الورق ، حتى تتخلى عنى .. وإذا ما كتبت شيئا مرة ، فانى لا أعود أذكره إطلاقا ! .. وترافقنى هذه الظاهرة ، حتى فى الموسيقى . فقد كنت أعرف كثيرا من الأغانى عن ظهر قلب ، قبل أن أدرسها . ولكنى لم أكد أحذق الغناء من « النوتة » ، حتى عجزت عن استبقاء أية أغنية فى ذاكرتى ، وما أرانى أستطيع اليوم أن أردد أغنية واحدة بأكملها ، من كل الأغانى التى كنت أحبها !

والذى أذكره بجلاء ـ فى هذه المناسبة ـ هو أننى عندما بلغت (فانسين) كنت فى حال من الانفعال تشبه بحران الحمى . ولاحظ « ديدرو » ذلك ، فأفضيت إليه بالسبب ، وقرأت عليه « مناجاة فابريشيوس » (١)، التى كتبتها بالقلم الرصاص، تحت إحدى أشجار البلوط . فشجعنى على أن انشر آرائى ، وأن أشترك فى المباراة . وقد كان هذا ! .. ومنذ تلك اللحظة غدوت من الضائعين . فلقد كان ما بقى من عمرى ومن تعاساتى

---

(١) Prosopopée de Fabricius .. وكان فابريشيوس تنحدر من حكام الرومان ، وقد عرف بانتهاج البساطة فى مبادئه الخلقية ، وبالوفاء ، والنزاهة ، والتجرد من المصلحة الذاتية . واتخذ اسمه رمزا للرجل الذى يظل فقيرا سليم الذمة مهما يرتفع فى مناصب الحكم .

نتيجة لا مناص منها لهذه اللحظة من لحظات الاختبال والضلال(١) !

وتسامت مشاعرى إلى مستوى أفكارى ، بسرعة تفوق التصور . فاذا بكل أهوائى التافهة تختنق فى فورة الحقيقة والحرية والفضيلة .. وأدعى من هذا إلى الدهشة ، أن هذه الفورة ظلت محتدمة فى فؤادى طيلة أربع أو خمس سنوات أخرى ، بدرجة لعلها لم تساور قلب أى بشر آخر !

واقبلت على العمل فى إعداد هذا المقال ، بطريقة جد عجيبة، اعتدت دائما أن أنتهجها فى كل مؤلفاتى الأخرى تقريبا . فقد خصصتها بالساعات التى لم يكن النوم يواتينى فيها بالليل . وكنت أستغرق فى التفكير وأنا فى فراشى مغمض العينين، وأروح اقلب عباراتى فى رأسى ، وأعاود تقليبها فى عناء لا يمكن تصوره، حتى إذا انتهيت إلى الرضاء عنها ، أودعتها ذاكرتى إلى أن استطيع تسطيرها على الورق . ولكن الوقت الذى كان يستغرقه نهوضى وارتداء ثيابى ، كان يضيعها على .. فإذا ما عكفت على ورقى ، لم يوافنى شيء مما نظمته فى بالى تقريبا.

---

(١) اضاف « روسو » – فى رسالة الى « ماليزيرب » تفصيلات بديعة لهذه المناسبة ، اذ قال : « وشعرت بدوار طاغ يستولى على رأسى ، يشبه نشوة السكران .. وبخفقان عنيف .. فلم أعد أتمالك أنفاسى وأنا أسير ، ومن ثم ارتميت على احدى أشجار الطريق ، وقضيت نصف ساعة فى هذا الانفعال ، فلما أفقت تبينت أن صدر صدارتى كان مخضلا بالدموع ، دون أن أكون قد شعرت بأننى ذرفتها » .

ورأيت أن أستخدم السيدة لوفاسير كسكرتيرة ، فأسكنتها مع ابنتها وزوجها على مقربة منى ، وكانت هى التى تأتى فى كل صباح لتوقد نارى وتؤدى الخدمات البسيطة التى أحتاج إليها، اقتصادا لأجر الخادم ، وعند وصولها ، كنت أملى عليها من سريرى ما أعددته فى الليل . وقد أدى هذا النظام ــ الذى اتبعته زمنا طويلا ــ إلى إنقاذ كثير مما كان معرضا للنسيان!.. حتى إذا فرغت من المقال ، عرضته على ديدرو ، الذى أبدى ارتياحا إليه ، وأشار إلى بعض تعديلات . على أن هذا العمل الأدبى الملىء بالحرارة والقوة ، كان يفتقد المنطق والترتيب افتقادا تاما ، فهو ــ دون كل ما انساب من قلمى ــ أضعفها فى الحجة ، وأفقرها إلى التناسب والتناسق . على أن فن الكتابة لا يستوعب دفعة واحدة ، مهما تكن المواهب التى فطر المرء عليها !

وأرسلت هذا المقال ، دون أن أتحدث عنه إلى أحد ، اللهم إلا « جريم » ــ فيما أظن ــ إذ كنت قد بدأت أرتبط وإياه بأعظم ود ، منذ التحق بخدمة الكونت دى فرييز . وكان لديه معزف اتخذناه ملتقى يجمعنا ، فكنت أقضى مع « جريم » حوله كل لحظات فراغى، نغنى الألحان الإيطالية وأغانى ملاحى الجندول، دون انقطاع أو ملل من الصباح حتى المساء ، أو ــ بالأحرى ــ من المساء إلى الصباح . وعندما كنت لا أوجد فى دار السيد دوبان ، فقد كان من المحقق أو أوجد لدى السيد « جريم » . أو معه ــ على الأقل ــ سواء فى نزهة أو فى مسرح . وكنت قد كففت عن الذهاب إلى مسرح « الكوميدى ايتاليين » ــ الذى

كنت استمتع بحق دخوله بالمجان ، والذى لم يكن « جـريم » يحبه ـ وأصبحت أتردد معه على « الكوميدى فرانسيز » ، الذى كان مولعا به . وقصارى القول ان جاذبية قوية ربطتنى بهذا الشاب ، حتى اننى أصبحت لا أطيق بعدا عنه ، وحتى أن العمة المسكينة(١) غدت موضع إهمال منى ! .. اقصـد أننى أقللت من زيارتى إياها ، إذ أن عاطفتى لم تهن لحظة واحـدة خلال حياتى !

ولقد أدت استحالة تقسيم وقت فراغى الضئيل بين ميولى ، إلى أن تجددت لدى ، بقوة لا قبل لى بها ، الرغبـة ـ التى ساورتنى منذ وقت طويل ـ فى أن يكون لى ولتيريز مسـكن واحد . ولكن العقبة التى تمثلت فى عدد أفراد أسرتهـا ، وفى الحاجة إلى المال لشراء الأثاث ـ بوجـه خاص ـ جعلتنى أعـدل حتى ذلك لحين . ثم سنحت لى فرصـة المحاولة ، فانتهزتها .. ذلك أن السيد دى فرانكويى والسيدة دوبان شعرا تماما بأن مبلغا يتراوح بين ثمانمائة وتسعمائة فرنك فى العام ، مبلغ غير كاف ، فرفعا من تلقاء نفسيهما مرتبى السـنوى إلى خمسين « لوى » . وفضلا عن هذا ، فان السيدة دوبان لم تكد تسمع بأننى كنت اسعى إلى تأثيث مسكن خاص لى ، حتى ساعدتنى ببعض نفحات من أجل هـذا الغرض . وبالإضافة إلى الأثاث الـذى كان لدى « تيريز » من قبل ، لمنا شـملنا ، واستأجرنا مسكنا صغيرا فى مبنى « اللانجدوك » ، بشـارع

---

(١) ذكر « روسو » ان هذا اللقب أطلقه أصدقاؤه على « تيريز » .

(جرينيل سانت اونوريه) ، لدى قوم طيبى السمعة جدا ، ودبرنا معيشتنا قدر المستطاع ، وأقمنا هناك فى أمان وارتياح سبع سنوات .. إلى أن نزحت إلى « الارميتاج » .

* * *

وكان والد تيريز كهلا طيبا ، مفرط الدعة ، يخاف زوجته كل الخوف ، ومن ثم فقد أطلق عليها لقب « الملازم كريمينيل » (١) الذى خلعه « جريم » بعد ذلك — على سبيل الدعابة — على ابنتها . ولم تكن السيدة لوفاسير تفتقر إلى حضور البديهة ، واقصد فى أدب الخطاب ، بل إنها كانت تفخر بأدبها وبسلوكها اللائق بالمجتمع الراقى ، بيد أنها كانت ذات رياء غريب لم أكن أطيقه . وكانت تقدم لابنتها من النصح أسوأه ، وقد حاولت أن تحملها على أن تخدعنى وتمكر بى ! .. وكانت تداهن أصدقائى — كلا على حدة — وتحاول أن تتقرب إلى الواحد منهم على حساب الآخر ، أو على حسابى أنا ! .. وفيما عدا ذلك فانها كانت أما طيبة ، لأنها وجدت أن مصلحتها فى أن تكون كذلك . وكانت تتستر على أخطاء ابنتها ، لأنها كانت تفيد من وراء ذلك .. هذه المرأة التى أغرقتها بعنايتى ورعايتى وبالهدايا الصغيرة ، والتى كنت أتوق من قلبى إلى أن أحمل نفسى على حبها ، كانت — بسبب استحالة نجاحى فى هذ.

---

(١) Lieutenant Criminel كان قاضيا فى « الشاتيل » ، وهو الاسم الذى يطلق على دار للقضاء فى باريس ، تضم اثنتين من اقدم المحاكم ، احداهما مدنية والاخرى جنائية .

الصدد ـــ السبب الأول للتعب الذى كنت أعانيه فى مسكنى الصغير . وفيما عدا هذا ، فان بوسعى أن أقول إننى تذوقت ـــ خلال هذه السنوات الست أو السبع ـــ أكمل هناء عائلى يسمح به الضعف البشرى !

كان قلب تيريزى قلب ملاك ، وقد عززت حياتنا المشتركة حبنا ، فأخذنا نزداد إحساسا ـــ يوما بعد يوم ـــ بأن كلا منا خلق للآخر . ولو قدر لمتعنا أن توصف ، لكانت بساطتها داعية للضحك ، سواء فى ذلك نزهاتنا خارج المدينة وحيدين ، حيث كنت أنفق ـــ بعظمة ـــ ثمانية أو عشرة « سو » فى إحـــدى الحانات . . أو عشاؤنا البسيط فى النافذة ، وقد جلسنا متقابلين على مقعدين صغيرين ، فوق صندوق كان يشغل عرض فراغ النافذة . . فكانت هذه تستخدم ـــ بهذا الوضع ـــ كمائدة ، وكنا نستنشق الهواء الطلق ، ونشاهد ما حولنا ، والمارة . . ومع أننا كنا فى الطابق الرابع ، إلا أنه كان فى وسعنا أن نطل على الطريق ، ونحن نتناول الطعام ، ترى منذا الذى يستطيع أن يصف ، بل منذا الذى يستطيع أن يشعر بمفاتن هذه الوجبات التى كانت تتألف ـــ فى مجموعها ـــ من ربع رغيف من الخبـــز الخشن ، وبعض الكريز ، وقطعة صغيرة من الجبن ، ونصف « سيتييه » (١) من النبيذ كنا نشربه معا ؟ . . أيتها الصداقة ، والثقة ، والألفة ، وراحة البال . . ما ألذ مذاقك ! . لقـــد كنا

---

(١) نصف « السيتييه » يعادل جزءا على ١٦ من الجالون .

تمكث أحيانا فى جلستنا هـــذه إلى منتصف الليل ، دون أن نفكر فى شىء ودون أن نفطن إلى الوقت ما لم تنبهنا الأم العجوز إليه! .. ولكن لندع هذه التفصيلات التى قد تبدو عقيمة أو مضحكة، فلقد اعتدت أن أشعر ـــ وأن أصرح ـــ دائما ، بأن الهناءة الحقة لا توصف !

ولقد حظيت ـــ فى نفس تلك الفترة تقريبا ـــ بمتعة أخرى ، كانت أكثر خشونة من هذه .. وكانت آخر متعة من نوعها أندم عليها . فلقد ذكرت أن « كلبفيل » ـــ القس ـــ كان لطيفا ، ولم تكن علاقتى به تقل توثقا عن علاقتى بجريم ، حتى أصبحنا متآلفين . وكانا يتناولان الطعام أحيانا على مائدتى . وكانت هذه الوجبات تتجاوز حدود البساطة بعض الشىء ، كما كانت تزيدها مرحا فكاهات كلبفيل ونكاته المهـــذبة ، والمداعبـــات الجرمانية من « جريم » الذى لم يكن بعد قد طلق العبث .. ولم تكن الشهوة تتسلط على مآدبنا الصغيرة ، بل كان المرح يملأ مكانها . وقد شعرنا بارتياح إلى اجتماعاتنا ، فلم نعد نطيق افتراقا. وكان كلبفيل قد أثث مسكنا لفتـاة صغيرة: لم تكف عن أن تهب نفسها لكل الناس ، لأنه لم يكن قـــادرا على أن يكفلها وحده ! .. وفى ذات مساء ، كنا نلج أحد المقاهى ، وإذا بنا نجد كلبفيل خارجا منه ، فى طريقه إليها ليتناول العشـــاء معها . فداعبناه ببعض الفكاهات ، التى انتقم لنفسه منهـــا بلباقة ، إذ اضطرنا إلى أن نشاركه نفس العشاء ، ثم راح يسخر منا بدوره . وبدت لى الفتاة المسكينة حلوة السجايا ، مفرطة الدعة ، غير مدربة على مهنتها التى كانت تبصرها بهـــا

ــ بقدر الإمكان ــ عجوز ماكرة كانت برفقتها . واستخفنا الحديث والنبيذ إلى درجة نسينا معها أنفسنا . ولم يشأ كلبفيل الطيب أن ينتقص من كرمه ، فتعاقب ثلاثتنا على غرفة مجاورة مع الفتاة ، التى لم تدر أكان لها أن تضحك أم أن تبكى ! ..
ولقد اعتاد «جريم» دائما أن يؤكد أنه لم يمسسها، وأنه ما أطال المكث معها إلا ليستعذب إطالة انتظارنا ونفاد صبرنا . وإذا كان قد تعفف عنها ، فمن غير المحتمل أن ذلك كان عن توجس من الفتاة ، إذ أنه ــ قبل التحاقه بخدمة الكونت دى فريز ، واقامته فى داره ــ أقام لدى فتيات من غانيات حى (سان روش) بالذات .

وخرجت من شارع (ديه موانو) ــ حيث كانت الفتاة تقيم ــ وأنا أشد استحياء من القديس « بريو » ، حين بارح المنزل الذى أسكر فيه . ولقد كنت أتمثل قصتى بجلاء ، وأنا أكتب قصته! .. ولاحظت تيريز أن فى الأمر شيئا ، لا سيما وأننى كنت مرتبكا ، وكنت أبدو ساخطا على نفسى . وقد تخففت من العبء ، بأن اعترفت لها بصراحة وإيجاز . وكم أحسنت صنعا ، إذ أن « جريم » جاءها ــ فى الصباح التالى ــ متشفيا، وروى لها ذنبى فى مبالغة . ومنذ ذلك الحين ، لم يكف قط عن أن يذكرها به فى خبث وإغاظة . وكان هذا أشنع ذنوبه ، فقد كان من حقى ــ إذ ائتمنته على سرى طواعية ، وفى غير تحفظ ــ أن اتوقع منه الا يحملنى على أن اندم يوما على هذه الثقة .

أبدا لم أشعر بطيبة قلب تيريزى ، كما شعرت بها فى هــذه المناسبة ، فقد أبدت من الذهول والاستنكار لتصرف « جريم » أكثر مما أبدت من الاستياء لعدم وفائى ، فلم أتجشم أكثر من أن تقبلت منها عتابا رقيقا مؤثرا ، لم ألمح خلاله أى أثر لســخط أو ضغينة !.. لقد كانت سذاجة عقل هذه الفتــاة الرائعة ، تعادل طيبة قلبها ، وهذا جل ما يقال !.. على أن ثمة مثالا لذلك ، جــديرا بالذكر ، يحضرنى الآن .. فلقد ذكرت لها أن كلبفيل كان قسا ، وراعيا دينيا لأمير (ساكس ـــ جوثا) . وكان القس ـ فى رأيها ـ رجلا ممتازا ، حتى أنها فى تخبطها بين الأفكار المتباينة ، أخذت كلبفيل على أنه « البابا » . ومن ثم فقد ظننتها اختبلت ، حين أنبأتنى ـــ ذات مرة ـــ عند عودتى إلى المنزل ، بأن « البابا » قد حضر لزيارتى . واستدرجتها حتى أوضحت، ثم انطلقت بأسرع ما وسعنى لأروى هذه القصة لجرم وكلبفيل، الذى لصق به اسم « البابا » فيما بيننا .. كما اطلقنــا على غانية شارع (ديه موانو) ، اسم « الماما جان »(١) ! .. وكان هذا مثار ضحك عز علينا أن نخمده ، حتى كدنا نختنق ! .. ان اولئك الذين جعلونى أقول ـ فى خطاب حلا لهم أن ينسبوه إلى ـ إننى لم أضحك فى حياتى سوى مرتين ، لم يعرفوا شيئا عنى فى هذه الفترة ، أو فى أيام صباى ، وإلا ما خطرت لهم هــذه الفكرة إطلاقا !

---

(١) Papesse .. لم نجد ترجمة لهذه الكلمة خيرا من « الماما » !

من سنة ١٧٥٠ إلى سنة ١٧٥٢

علمت فى العـــام التالى ـــ سنة ١٧٥٠ ـــ أنّ مقـــالى فاز بالجائزة فى (ديجون) ، وكنت قد كففت عن التفكير فيه . فأيقظ هذا النبأ ـــ من جديد ـــ كل الأفكار التى كانت قد أوحت إلى به، وبث فيها قوة جديدة ، وادى إلى أن تحركت ـــ للمرة الأولى ـــ رواسب البطولة والفضيلة التى كان أبى ووطنى وبلوتارخ قد أودعوها قلبى فى طفولتى . فلم أعد أجد ما هو أعظم وأجمل من أن أكون حرا وفاضـــلا ، وأن أرتفع بنفسى فوق اعتبارات الحظ والرأى العام ، وأن أكون مستقلا بذاتى . ومع أن الحياء الزائف والخوف من الرأى العام منعانى ـــ بادىء الأمر ـــ من أن أمضى وفقا لهذه المبادىء ، ومن أن أخرج فجاة ، وعلانية ، على عادات وعرف القرن الذى أعيش فيه .. إلا أننى منـــذ ذاك الحين عقدت عزمى ، ولم أرجىء تنفيذ ما انتويت لأمد أطول مما كان يتطلبه هذا الانقلاب كى يغدو موفقا .

وفيما كنت أرسم فلسفتى عن واجبات الإنسان ، وقع حادث جعلنى أفضل التفكير فى واجباتى الشخصية . فقد كانت تيريز حبلى للمرة الثالثة .. وفى أمانة تامة بينى وبين نفسى ، وفى اعتزاز مفرط صدف بى عن الرغبة فى أن تكون أعمالى مكذبة لمبادئى ، شرعت أدرس مصير أولادى وعلاقتى بأمهم ، عـــلى ضوء قوانين الطبيعة ، والعدالة ، والعقل ، والدين .. الدين القدسى ، الأزلى ، كما أراده خالقه ، لا كما شـــوهه البشر فى تظاهرهم بالرغبة فى تطهيره ، ولا كما حوله الناس ـــ بقوانينهم

الموضوعة ــ إلى مجرد عقيدة قوامها الكلمــات .. فان فرض المستحيل لا يبهظ الناس ما داموا يتغافلون عن تنفيذه !

ولو أننى كنت مخطئا فى استنتاجاتى ، لما كان ثمــة ما هو أدعى للدهشة من الطمأنينة ، التى أقبلت بها عليها .. ولو أننى كنت من أولئك الناس ذوى المنبت الوضــيع ، وذوى الآذان المغلقة دون صوت الطبيعة الرقيق، وذوى النفوس التىلا ينبت فيها أى إحساس صادق بالعدالة والإنسانية ، لكان جمود قلبى ميسور الادراك . ولكن ما أوتيت من حرارة القلب ، وإرهاف الحس ، وسهولة التعلق بالناس .. وهذا السلطان الذى كانت تفرضه على علاقاتى بهم ، وهذه اللوعات القاسية التى كنت اعانيها إذا ما اضطررت إلى قطع العلاقات .. وهذه النيةالطيبة التى فطرت عليها نحو أقرانى، وحبى المتأجج لكل ما هو عظيم، وما هو صادق ، وما هو جميل ، وما هو عدل .. وهذا الجزع من السوء بكل أنواعه ، وهذا العجز عن الكراهية والحقد ، بل وعن تمنيهما .. وهذا الحنان ، وهذا الشعور الناعم الوثاب الذى أحس به حين أرى كل ما هو فاضل وكريم ولطيف .. افليس من الممكن لكل هذه الصفات أن تتآلف فى قلب واحد ، مع الحرمان الذى يدوس ــ فى غير ما تورع ــ أعذب الالتزامات وأحلاها ؟.. لا !.. اننى لأشعر واجاهر بأن هذا مستحيل ، فان جان جاك لم يكن قط عديم الشعور ، ناكرا لصلات الرحم، ولا كان أبا جاحدا ، لحظة واحدة فى حياته !.. ومن المحتمل ان اكون قد أخطأت ، ولكنى لم أكن قط قاسى القلب .. ولو اننى شئت أن افضى بحججى ، لتكلمت اكثر مما ينبغى . وبما

انها كانت من القوة بحيث أغـوتنى ، فاننى أخشى أن تغوى كثيرين غيرى ، ولست أبغى أن أعرض الشـبان ـ الذين قد يقرأون حديثى ـ لأن ينساقوا إلى الاساءة لأنفسهم بفضل هذا الخطأ . ومن ثم فسأكتفى بأن أقول إن غلطتى كانت على هذا النسق : إننى إذ أسلمت أولادى إلى الدولة لتربيهم ، لعجزى عن تنشئتهم بنفسى ، وإذ قضيت عليهم بأن يصبحوا عمالا أو مزارعين ، بدلا من أن يصبحوا مغامرين وطلاب ثروة ، كنت أظننى أؤدى تصرفا يليق بأب مواطن صـالح ، وكنت أتمثل نفسى عضوا فى جمهورية أفلاطون . ولقد أشعرتنى حسرات قلبى ـ فى أكثر من مرة ، فيما بعد ـ أننى كنت مخطئا ، ولكن عقلى كان أبعد من أن يوحى إلى بنفس الرأى ، ومن ثم فاننى كثيرا ما باركت السماء لأنها صانتهم مما لقيه أبوهم فى حياته ، ومن الحظ الذى كان يتهددهم إذا ما اضطررت إلى التخـلى عنهم . ولو أننى أسلمتهم إلى السـيدة دبيبناى ، أو السيدة دى لوكسمبورج ، اللتين رغبتا ـ فيما بعد ـ فى أن تكفلاهم ، سواء بدافع من الصـداقة ، أو من الكرم ، أو من أى حافز آخر .. لو أننى فعلت ذلك ، فهل تراهم كانوا يغدون أكثـر سـعادة ، أو ينشأون رجالا أمناء محترمين ، على الأقل ؟.. لست أدرى ، ولكننى واثق من أنهم كانوا خليقين بأن ينشأوا على كراهية أبويهم ، وربما على الغدر بهما !.. ومن ثم فقـد كان من الأفضل مائة مرة ، أنهم لم يعرفوا أبويهم !

وهكذا أسلم ابنى الثالث إلى ملجأ اللقطاء ، كما كان شـأن الطفلين السابقين.. وكذلك كان شأن الطفلين التاليين، إذ اننى

أوتيت خمسة . ولقد بدا لى هذا الاجـــراء ملائما ، حكيما ، مشروعا إلى درجة أننى إذا كنت لم أفخر به علانية ، فانما كنت أصدر فى ذلك عن شىء من مراعاة خاطـــر أمهم .. على أننى انبأت به كل أولئك الذين كنت قد أطلعتهم على علاقتى بها .. قلته لديدرو ، ولجريم ، كمـــا ذكرته ـــ فيما بعـــد ـــ للسيدة ديبيناى ، ثم للسيدة دى لوكسمبورج بعد ذلك .. ولقد فعلت ذلك فى صراحة ، وبمطلق الحـــرية ، دون أى اضطرار ، وكان بوسعى أن أخفى الأمر بسهولة عن الناس أجمعين .. إذ ان الآنسة «جوان»(١) كانت أمينة ، كتومة جدا ، وكان بوسعى أن أطمئن إليها كل الاطمئنان . وكان الوحيد من أصدقائى ، الذى كنت أجد مصلحة فى أن أكشف له سرى ، هو الطبيب «ثييرى» ، الذى عنى بعمتى المسكينة فى إحدى مرات الوضع ، عنـــدما ساءت حالها . ومجمل القـــول اننى لم أحط تصرفى بشىء من الغموض ، لا لأننى لم أتعلم قط أن أكتم شيئا عن أصـــدقائى فحسب ، وإنما لأننى لم أكن أرى ـــ فى الواقع ـــ أى ضير ذلك . إذ أننى ـــ إذا قدرنا كافة الاعتبارات ـــ قـــد اخترت لأولادى الخير ، أو ما آمنت بأنه الخير . بل اننى كنت أتمنى ـــ ولا أزال ـــ لو أننى نشأت وتربيت على شاكلتهم !

* * *

(١) الآنسة « جوان » هى القابلة أو المولدة التى كانت تعنى بتيريز عند الوضع ، وتتكفل باسلام الأطفال الى ملجأ اللقطاء .

وفى الوقت الذى كنت أسجل فيه اعترافاتى هذه ، كانت السيدة لوفاسير تحذو حذوى ــ من ناحيتها ــ بيد أنها كانت تعرض آراء أقل تشويقا . وكنت قد قدمتها ــ هى وابنتها ــ إلى السيدة دوبان التى أولتهما ألف آية من آيات الطيبة، بدافع من صداقتها لى . ولقد أطلعتها الأم على سر ابنتها . فما كان من السيدة دوبان الطيبة ، السخية ، التى لم تطلع قط على مدى حرصى على أن أوفر لهما كل أسباب العيش ــ برغم تواضع مواردى ــ إلا أن كفلت للابنة معاشا سخيا كتمت عنى هذه سره ، بأمر من أمها ، طيلة مقامى فى باريس ، فلم تعترف لى به إلا فى « الأرميتاج » ، وبعد أن كشفت لى عن عدة أمور أخرى كانت تخفيها فى صدرها . ولقد كنت أجهل أن للسيدة دوبان علما بشىء ، إذ أنها لم تبد إطلاقا أية إشارة . . كما أننى أجهل ما إذا كانت السيدة دى شينونسو ــ زوجة ابنها ــ على علم بالأمر هى الأخرى . على أن السيدة دى فرانكويى ــ زوجة ابن زوجها ـ أحاطت به ، ولم تستطع أن تمسك لسانها، فتحدثت إلى عنه فى العام التالى ، بعد أن كنت قد تركت دار الأسرة . وقد حملنى هذا على أن أكتب لها ــ عن هذا الموضوع ــ رسالة توجد فى أضابيرى ، وقد عرضت فيها من حججى ما كان بوسعى أن أذكره دون أن أقحم السيدة لوفاسير وأسرتها ، إذ أن معظم الحجج والأسباب الحاسمة كانت منبعثة من ناحيتهم ، وقد تكتمتها(١) .

---

(١) تتردد هذه « الأسباب الحاسمة » فى الكراسة التاسعة .

اننى لأطمئن إلى كتمان السيدة دوبان للأمر ، وإلى مودة السيدة دى شينونسو ، وكذلك كنت مطمئنا من ناحية السيدة دى فرانكويى ، لا سيما وأنها توفيت قبل أن يشيع سرى مدويا ، بوقت طويل . ومن ثم فانه ما كان ليتفشى إلا على السنة أولئك الذين أفضيت إليهم به بالذات ! .. والواقع أن هذا لم يحدث إلا بعد أن تقطعت بينى وبينهم الصلات . وبهذا وحده يمكن الحكم عليهم فى الواقع ، دون رغبة منى فى أن أعفى نفسى من اللوم الذى استحقه ، بل اننى لأوثر أن آخذ الذنب على عاتقى ، على أن أقضى عليهم بما يستحقه خبثهم . إن ذنبى لعظيم ، ولكنه لا يعدو أن يكون خطأ .. فلقد أهملت واجباتى، بيد أن الرغبة فى الايذاء لم تداخل فؤادى أبدا ، ولن يقدر لمشاعر الأب أن تتحدث باقتناع عن أطفال لم يرهم اطلاقا .. ولكن خيانة ثقة الصداقة ، وانتهاك حرمة أقدس المعاهدات ، ونشر الأسرار التى سكبت فى صدورنا ، والحط عمدا من قدر الصديق المخدوع الذى ما يزال يحترمنا وهو ينأى بجانبه عنا .. هذ كلها ليست أخطاء ، ولكنها خسة نفس وسخيمة !

لقد وعدت بأن أقدم اعترافاتى ، لا تبريرات تصرفاتى . ومن ثم فاننى أقف ــ فى هذا الموضوع ــ عند هذا الحد . ومن واجبى أن أكون صادقا ، وللقارىء أن يكون عادلا . ولن أطالبه قط بأكثر من هذا .

* * *

وأدى زواج السيد دى شينونسو إلى أن أصبحت أكثر ارتياحا إلى دار امه ، بفضل مزايا الزوجة الجديدة وعقلها .

فقد كانت شابة مفرطة اللطف ، بدا أنها آثرتنى من بين الكتبة الذين كانوا فى خدمة السيد دوبان .. وكانت الابنة الوحيدة للسيدة فيكونتة دى بروشيشوار ، الصديقة الحميمة للكونت دى فرييز ، وبالتالى لجريم الذى كان ملحقا بخدمته . على أننى كنت الشخص الذى قدمه إلى ابنته وأدخله دارها ! (١) ولكن طباعهما لم تتفق ، ومن ثم فان هذه الصلة لم تدم طويلا. أما « جريم » ــ الذى لم يكن يضع عينيه ، منذ ذلك الحين ، إلا على كل ما فيه نفع مؤزر ــ فقد آثر الأم ، التى كانت من نجوم المجتمع الراقى ، على الابنة التى كانت تنشد أصدقاء تثق بهم وترتاح إليهم ، ولا يكون لهم شأن بأية مؤامرة أو دسيسة ، ولا يسعون إلى غاية بين العظماء !.. وإذ لم تجد السيدة دوبان فى السيدة دى شينونسو كل ما كانت ترجوه من لبن ، أحالت دارها إلى مكان كئيب بالنسبة للشابة . فآثرت السيدة دى شينونسو ــ التى كانت معتزة بميزاتها ، وربما بمنبتها أيضا ــ أن تنبذ ملاهى المجتمع ، وأن تبقى وحيدة ــ تقريبا ــ فى مخدعها ، على أن تحتمل نيرا لم تكن تحس بأنه يلائمها !

ولقد أدى هذا الاعتزال إلى مضاعفة تعلقى بها ، مدفوعا بذلك الميل الطبيعى الذى كان يجتذبنى إلى التعساء . ولقد وجدت فيها عقلا مفكرا يميل إلى ما وراء الطبيعة ، وإن كان فى بعض الأحيان ينحو إلى السفسطة . وكان حديثها جد

---

(١) يقصد « روسو » أن العروس كانت ابنة الكونت دى فرييز من علاقته بالفيكونتة دى بروشيشوار ، ولكنها تنسب للفيكونت ، ومن ثم فانها كانت تجهل أباها الحقيقى ، الذى قدم اليها كصديق !

جذاب لى . إذ أنه كان بعيدا عن أن يكون حديث شابة تركت مدرسة الدير من عهد قريب ، ومع عمقه هـذا ، فانها لم تكن قد بلغت العشرين من عمرها !.. وكانت بشرتها بيضاء ناصعة تبهر الأبصار ، كما أن قوامها كان خليقا بأن يبدو مهيبا وجميلا، لو انها أقامت عودها مستويا . أما شعرها فقد اختلطت شقرته بسمرة باهتة ، فى جمال نادر ، مما كان يذكرني بماما البائسة فى أوج شبابها ، فكان يهيج فؤادى . بيد أن المبادىء القويمة التى كنت قد رسمتها لنفسى ــ من عهد قريب ــ وآليت أن أتبعها مهما تكبدت ، جعلتنى فى أمان منها ومن مفاتنها ! .. ولقد اعتدت ــ طيلة فصل الصيف بأكمله ــ أن أقضى معها ثلاث أو أربع ساعات فى عزلة ، ألقنها الحساب فى درس جدى ؛ وأضايقها بأرقامى التى لا تنتهى ، دون أن أقول لها كلمة غزل واحدة ، ودون أن أرمقها بنظرة ! .. ولو أن هذا حدث بعد خمس أو ست سنوات من تلك الفترة ، لما كنت قمينا بأن أكون عاقلا أو غبيا إلى هذا الحد .. ولكن القدر كان قد كتب على ألا أحب حبا حقيقيا سوى مرة واحدة فى حياتى ، وأن تكون أول وآخر زفرات قلبى وقفا على امرأة غير هذه !

ولقد كنت دائما ــ مذ أقمت فى دار السيدة دوبان ــ راضيا بنصيبى ، لا أبدى أية رغبة فى أن يتحسن . ولقد جاءت الزيادة التى أضافتها السيدة إلى مرتبى ــ بالاشتراك مع السيد دى فرانكويى ــ صادرة عن محض إرادتهما وحدهما فحسب.. وفى هذا العام ، فكر السيد دى فرانكويى ــ الذى كانت صداقته لى تزداد يوما بعد يوم ــ فى أن يضعنى فى مركز أعلى قدرا

وأكثر ثباتا . ولقد كان محصلا عاما لمالية فرنسـا ، وإذ كان السيد دودوييه ـ أمين خزانته ـ مكتهلا وغنيا ، وراغبا فى أن يعتزل العمل ، فقد عرض على السيد دى فرانكويى هذا المنصب .. ولكى أعد نفسى لتوليه ، ترددت لبضعة أسابيع على دار السيد دودوييه لأتلقى عنه الارشادات الضرورية . وسواء كنت لم أوت موهبة لهذا العمل ، أو أن دودوييه ـ الذى بدا لى راغبا فى أن يعهد بهذا المنصب إلى خليفة آخر ـ لم يكن يلقننى أصول المهنة عن طيب خاطر ، فاننى رحت ألم بالمعلومات التى كنت محتاجا إليها ، فى بطء وسوء استيعاب .. ولم ينفذ إلى رأسى قط نظام الحسابات التى كانت معقدة عن قصد ونية مبيتة . على أننى وإن لم أستوعب دقائق المهنة ، لم أتوان قط عن أن أمضى مهرعا نحو المقدرة على ممارسـة مهام الإدارة . بل أننى شرعت فيها ، فتوليت السجلات والخزانة ، وصرفت وتسلمت نقودا ، وأصدرت إيصالات . ومع أن ما لدى من ميل أقل من أن يؤهلنى لهذه المهنة ، إلا أن تقدم سنى جعلنى حكيما ، فعقدت العزم على أن اتغلب على نفورى من أن انصرف بكل نفسى إلى وظيفتى . ولكن سوء الحظ شاء ـ فى الوقت الذى بدأت آلف عملى فيه ـ أن يقوم السيد دى فرانكويى برحلة قصيرة ، ظللت خلالها الموكل الوحيد بخزانته ، التى لم يكن يودعها ـ فى ذلك الوقت ـ سوى مبلغ يتراوح بين خمسة وعشرين ألفا وثلاثين الفا من الفرنكات . فاذا القلق وانشغال البال ، اللذان سببتهما هذه الأمانة ، يقنعاننى بأننى لم أخلق لأكون صرافا . ولست أرتاب فى أن اللهفة التى رحت أرتقب بهـا عودة السيد

دى فرانكويى قد ساهمت فى المرض الذى وقعت فريسته عقب هذه العودة !

ولقد قلت فى الجزء الأول من اعترافاتى إننى كنت موشكا على الموت عندما ولدت . وكان ثمة عيب فى تكوين المثانة ، أدى إلى احتباس البول بصفة شبه مستمرة ، خلال سنى عمرى الأولى ، فكانت عمتى «سوزان» ـ التى تولت العناية بى ـ تلقى عناء لا يمكن تصوره ، كى تصون حياتى . على أنها أفلحت فى ذلك ، واستطاعت بنيتى القوية أن تتغلب فى النهاية ، فتحسنت صحتى كثيرا خلال صباى . . وفيما عدا نوبة الضعف والهزال التى ذكرتها من قبل ، وفيما عدا كثرة احتياجى إلى التبول ، الأمر الذى كان أقل ارتفاع فى الحرارة يجعله عملية متعبة . . فيما عدا ذلك فاننى بلغت الثلاثين من عمرى ، دون أن أحس بما كان فى جسمى من عيب سابق .

وأصابتنى أولى العلل عند وصولى إلى البندقية . فان عناء الرحلة والحر الشديد الذى عانيته ، جلبا على رغبة مستمرة فى التبول ، وأوجاعا فى الكليتين ، لازمتنى حتى مقدم الشتاء . ولقد أيقنت بعد زيارتى للمومس[1] أننى ميت ، ولكننى ـ مع ذلك ـ لم أعان أقل تعب . . وبعد أن أرهقت نفسى بالوهم ـ أكثر منى بآلام جسدية ـ بسبب «جولييتا»، إذا بصحتى خير مما كانت فى أى يوم . وظللت هكذا إلى ما بعد سجن ديدرو ، إذ أن اشتداد سخونة دمى ـ خلال رحلاتى إلى فانسبن فى الحر

---

(١) وردت هذه الواقعة فى صفحة ٦٢ من هذا الجزء .

القائظ الذى كان سائدا إذ ذاك ـــ أدى إلى ألم عنيف فى الكليتين، لم أستعد ـــ مذ واتانى ـــ صحتى الأولى !

وفى الفترة التى أتحدث عنهـا ، أدى إسرافى فى إرهاق نفسى بالعمل البغيض فى تلك الخـزانة اللعينـة ، إلى أن اضمحلت صحتى أكثر من ذى قبـل ، ومكثت فى فراشى خمسة أسابيع أو ستة ، فى أشد اغتمام يمكن تصـوره . وأوفدت السيدة دوبان لعيادتى «موران»، الذى كان ذائع الصيت، والذى سبب لى ـــ برغم مهارته ورقة لمساته ـــ أوجاعا لا تخطر ببال ، ولم يستطع قط أن يصل إلى موطن علتى ، فنصحنى بأن ألجأ إلى «داران» ، الذى استطاع بمجساته ـــ وكانت أكثر مرونة ـــ أن يخفف عنى بعض الأوجاع . على أن موران ـــ حين أنبأ السيدة دوبان بحالى ـــ صارحها بأننى لن أكون على قيد الحياة بعد ستة أشهر . وحملنى هذا الحديث ـــ الذى نمى إلى ـــ على أن أفكر جديا فى حالى ، وفى حماقة التضحية براحة جسمى وبالى فى الأيام القلائل التى تبقت لى فى الحياة، لأغدو مستعبدا لوظيفة لم أكن أشعر نحوها بأى ميل ! .. ومن ناحية أخرى ، كيف كان لى أن أوفق بين المبادىء القاسية التى اتخذتها لنفسى وبين منصب لم يكن يتسق معها إلا قليلا ؟ .. ألم يكن من المجافاة للذوق أن أدعو ـــ وأنا المحصل العام للمالية ـــ إلى التجرد من المصلحة الذاتية ، وإلى الفقر ؟

واشتد تخمر هذه الآراء فى رأسى باشتداد الحمى ، وراحت تتماسك بقوة ، حتى أن شيئا لم يقو ـــ منذ ذاك الحين ـــ على تبديدها ، فوطدت عزمى ـــ خـلال فترة نقاهتى ـــ على تنفيذ

ما استقر عليه رأيى خلال بحران الحمى ! .. ونبذت إلى الأبد كل مشروع للإثراء والرفعة ، معتزما أن أقضى فى الاستقلال والفقر ، الفترة القصيرة التى تبقت لى فى الحياة ، فاستخدمت كل قوى روحى فى تحطيم أغلال الرأى العـــام ، وفى أن أقدم بشجاعة على ما أراه خيرا ، دون أن أحفل البتة برأى الناس. وكانت العقبات التى اضطررت لمغالبتها ، والجهود التى بذلتها للانتصار عليها ، فوق كل تصور . وقد وفقت بقدر المستطاع ، بل واكثر مما كنت أرجو ، ولو أننى نجحت فى أن أدفع عنى ربقة الصداقة ، بقدر توفيقى فى التحرر من ربقة الرأى العام، لبلغت غاية مأربى ، بل لعلها كانت أعظم الغايات التى خطرت لمخلوق فان ، وادعاها ــ على الأقل ــ للفضيلة .. على أننى ــ إذا رحت اتخبط تحت أقدام الأحكام الخرفاء التى تصدر عن قطيع الأدعياء الذين يسمون العظماء، والذين يسمون الحكماء ــ اسلم نفسى وأنقاد كالطفل لأولئك الذين كانوا يسمون أنفسهم أصدقاء ، والذين كانوا يغارون من أن يرونى أشـــق وحـــدى طريقا جديدة . وأنا أبدو جد منهمك فى إســـعاد نفسى ، فلم يعودوا يفكرون ــ فى الواقع ــ إلا فى أن يجعلونى مثارا للضحك، وشرعوا فى العمل على تحقيرى ، لكى يصلوا من وراء ذلك إلى تشويه سمعتى ! .. كان تغير شخصيتى ، الذى بدأ فى هـــذه الفترة ــ وليست شهرتى الأدبية ــ هو الذى أثار غيرتهم منى .. ولعلهم كانوا على استعداد لأن يغفروا لى إن لمعت فى فن الكتابة ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يغفروا لى أن ضربت بمسلكى مثالا بدا أنه ضايقهم ! .. لقد فطرت على الود ، فكانت طباعى السلسة الوديعة تغذى هذا الود دون عناء . ولقد كنت محبوبا

من كل أولئك الذين عرفونى ، طالما كنت أعيش مجهـولا لدى الرأى العام ، فلم يكن لى عدو واحد .. على أن اسمى لم يكد يلمع ، حتى أصبحت بلا أصدقاء !.. وكانت هذه نكبة كبرى، ولكن الأكبر منها أننى كنت محاطا بقوم كانوا يسمون أنفسهم أصدقاء ، فى حين أنهم لم يكونوا يستغلون الامتيازات التى يتيحها لهم هذا الاسم ، إلا لكى يجروننى إلى الهلاك !.. ولسوف تنكشف فى سياق هذه المذكرات ، تلك المؤامرة البشعة . على أننى سأكتفى — فى الوقت الحاضر — بأن أشير إلى أصلها ، وسيتبدى عما قريب كيف تشكلت أولى حلقاتها !

* * *

كان لا بد لى ، فى الاستقلال الذى أردت أن أحيا فيه ، من أن أحصل على القوت . وصور لى خيالى وسيلة جد سهلة ، هى نسخ الموسيقى مقابل كذا للصفحة . ولو أن عملا أكثر ثباتا من هذا كان يؤدى إلى الغاية ذاتها ، لاقتنمت عليه . ولكن هذه المهنة كانت توائم ميولى ، كما أنها كانت الوحيدة الكفيلة بأن تهيىء لى قوتى من يوم إلى آخر ، دون أن تقتضينى خضوعا أو تبعية لأحد . ومن ثم فقد قنعت بها .. واعتقادا منى بأننى لم أعد بحاجة إلى أن أعول هم المستقبل ، خنقت صوت غروروى ، وانقلبت من صراف لأحد رجال المال ، إلى ناسخ موسيقى !.. وظننت أننى قد كسبت كثيرا بهذا الاختيار، فلم يداخلنى ندم يذكر ، حتى أننى لم أتخل عن هذه المهنة إلا بحكم الظروف القاهرة، لأعود فاحترفها بمجرد أن وسعنى ذلك .

ولقد أدى نجاح مقالى الأول إلى زيادة تيسير تحقيق هذا

القرار . وقد تكفل ديدرو بطبع المقال بعد فوزه بالجائزة . وقد كتب لى ـ وأنا طريح الفراش ـ رسالة أعلننى فيها بنشر المقال وبنتيجة ذلك . فقال : « لقد حظى بكل إطراء .. وما كان لمثل هذا النجاح مثيل من قبل » . ولقد منحنى هذا التحبيذ ـ الذى أولاه الرأى العام عن رضى لكاتب مغمور ـ أول اطمئنان حقيقى إلى كفاءتى التى كنت فى ريب منها قبل ذلك ، برغم مشاعرى الداخلية . وتبينت النفع العظيم الذى كان بوسعى أن أظفر به من هذه الكفاءة ، بالنسبة إلى القرار الذى كنت أهم بتنفيذه ، وقدرت أن ناسخا على قسط من الشهرة الأدبية ، لن يعانى الحاجة إلى العمل إطلاقا !

وما أن استقر رأيى وتوطد عزمى ، حتى كتبت إلى السيد دى فرانكويى أنبئه بذلك، وأشكر له ـ وللسيدة دوبان كذلك ـ كل أنعمهما ، سائلا إياهما أن يعهدا إلى بما يرغبان فى نسخه ولم يفقه فرانكويى من هذه الرسالة شيئا ، بل ظن أننى مازلت فى بحران الحمى ، فهرع إلى دارى ، ولكنه وجد أن رأيى كان قد استقر تماما ، إلى درجة أنه لم يستطع أن يزعزعنى عنه .. وذهب فأنبأ السيدة دوبان والناس كلهم بأننى قد اختبلت ، فتركته يقول ما شاء ، ومضيت فى طريقى . وبدأت إصلاح نفسى بملبسى ، فتخليت عن الزوائد المطرزة بالقصب ، وعن الجوارب البيضاء ، وارتديت قلنسوة مستديرة من الشعر المستعار ، وطرحت عنى سيفى ، وبعت ساعتى ، وهتفت لنفسى فى غبطة تفوق التصور : « الحمد للسماء ، فلن تعود بى حاجة إلى تعرف كم الساعة ! » . وتكرم السيد دى فرانكويى

بالتريث فترة طويلة ، قبل أن يتصرف بشأن خزانتـه ، حتى إذا رأى ـــ فى النهـــاية ـــ أننى مصر على قرارى ، عين السيد داليبار ، الذى كان قبل ذلك مربيا ومعلما لشينونسو فى صغره ، والذى كان معـــروفا فى ميدان فلاحة البســاتين بكتـــابه عن « الزهور الباريسية » (١) .

ومما خفف من عنت انقلابى التقشفى ، أننى لم أطبق الزهد ـــ فى البداية ـــ على ملابسى الداخلية المتبقية مما كان لدى فى (البندقية) فقد كانت جميلة ووفيرة ، وكنت مولعا بها بوجه خاص . وبفضل اضطرارى إلى أن أتخذها مظهرا للنظافة ، إذا بى أجعلها موضع بذخ وترف ، الأمر الذى لم يلبث أن أبهظنى.

ولقـــد تكرم على شـــخص ما فخلصنى من هذه الربقة . ففى أمسية عيد الميلاد ، وبينما كانت الخادمات فى قداس الغروب ، بينما كنت فى « حفلة موسيقية روحية »(٢) أغتصب باب غرفة فى أعلى الدار ، كان غسيلنا منشورا فيها بعد غسله . . وسرقت الثياب جميعها ، وكان بينها اثنان وأربعون قميصا لى من أبدع الأقمشة ، كانت تؤلف الشطر الأكبر من ثيابى الداخلية . ومما

---

(١) أضاف « روسو » الى هذا قوله : « لست أشك اطلاقا فى أن فرانكويى وخلصاءه يرددون رواية مناقضة لهذه ، ولكنى أستشهد بما قاله فرانكويى ـــ اذ ذاك ـــ وما ظل يردده للملأ وقتا طويلا بعد ذلك ، الى أن تكونت المؤامرة. ولابد أن ذوى الادراك السليم والأمم الطيبة ، لا يزالون يذكرون قوله » .

(٢) وهى حفلات لا تعزف فيها سوى الموسيقى الدينية ، كنوع من الرياضة الروحية .

ذكره الجيران شوهد رجل يغادر الدار ــ فى تلك الفتــرة ــ حاملا بعض اللفائف . ولقد ارتابت تيريز وإياى فى أخيهـــا ، الذى عرف بأنه امرؤ سوء .. وراحت الأم تدفع هذا الاشتباه بحمية ، ولــكنه تأكد بأدلة كثيرة عــززته لدينا ، بالرغم من استنكارها إياه . ولم أجسر على القيام بتحقيق دقيق ، خشية ان اكتشف أكثر مما كنت أحب . على أن الأخ لم يظهر بعد ذلك فى دارى ، وما لبث أن اختفى تماما . ولقد رثيت لسوء طالع تيريز وطالعى ، لارتباطنا بأسرة على هذه الشاكلة ، ورحت اناشدها أكثر من ذى قبل ، أن تطرح عنها عبءا خطيرا كهذا . ولقد ابرأنى هذا الحادث من ولعى بالثياب الداخلية الجميلة ، ولم أعد أقتنى بعد ذلك سوى ثياب من أقمشة عادية ، تتمشى مع بقية ملابسى .

وإذ استكملت انقلابى الاصلاحى بهذا الشكل ، لم بعـــد لى من هم سوى أن أدعمه وأعززه ، بالعمل على أن اجتث من قلبى كل ما كان عرضة للتأثر بآراء الناس. . وكل ما كان بوسعه أن يحولنى ــ بدافع من الخوف أو من اللوم ــ عن كل ما كان فى حد ذاته طيبا ومعقولا . وإلى جانب الضجة التى أحدثهـــا مقالى، أثار قرارى ضجة هو الآخر ، وجلب على عملا مكننى من أن أبدأ مهنتى الجديدة بتوفيق لا بأس به . على أن عدة أسباب عاقتنى عن أن أنجح فى هذه المهنة بالقدر الذى كنت قمينا بأ أحصل عليه فى ظروف أخرى . وكان أول هذه الأسباب صحتى السيئة . فان مرضى الأخــير خلف معقبــات منعتنى من أ أستعيد حالى الصحية السابقة ، وانى لأعتقد بأن الأطباء الذين

أسلمت نفسي إلى رعايتهم ، ألحقوا بي من الضرر فوق ما ألحقه المرض . فلقد سعيت بالتوالي إلى موران ، فدوران ، فهيلفيتيوس ، فمالوان ، فثييري . . وكانوا جميعا من الأساتذة، وكلهم من أصدقائي ، وقد عالجني كل منهم على طريقته دون أن يخفف عني شيئا ، بل انهم أضعفوني كثيرا . وكنت كلما حملت نفسي على اتباع إرشاداتهم ، ازددت شحوبا ، وهزالا ، وضعفا . وأخذ خيالي ـــ الذي أزعجوه ـــ يقيس حالي بمدى مفعول عقاقيرهم ، فلم يعد يصور لي سوى سلسلة متتابعة من الآلام ، التي تسبق الموت ، ومن احتباس البول ، والحصباء، وأحجار القبر ! . . كانت كل ألوان العلاج التي تخفف عن الغير ـــ من مياه طبية ، وحمامات ، وحجامة ـــ لا تزيد أوجاعي إلا استفحالا . وإذ وجدت أن مجسات داران ـــ وهي الوحيدة التي أدت إلى بعض النتائج ، وجعلتني أعتقد أن لا سبيل لي إلى الحياة بدونها ـــ لم تكن تهيئ لي ، برغم ذلك، سوى تسكين مؤقت للأوجاع ، فقد بادرت إلى إنفاق مبلغ جسيم في اقتناء كمية هائلة من المجسات تكفيني طيلة العمر ، ولو فارق داران الحياة ! . . ولا بد أنني أنفقت خمسين « لوي » على الأقل ، خلال السنوات الثماني أو العشر التي استخدمت فيها هذه المجسات دون انقطاع ! . . ومن اليسير تبين أن علاجا باهظ النفقات ، مؤلما مزعجا كهذا ، كان يشغلني عن العمل ، وأن المرء إذا ما كان مشرفا على الموت ، لا يشعر برغبة ملهوفة في كسب خبزه اليومي !

***

وكانت الشواغل الأدبية ملهاة أخرى ، لا تقل عن سابقتها عدوانا على عملى اليومى . فما هو أن نشر مقالى ، حتى انقض على حماة الأدب ، وكأنهم عصبة جمعت صفوفها . وغاظنى أن اجد مثل هذا العدد من « السادة جس » الصغار(١) ، يحاولون ان يفرضوا سلطانهم وإن لم يكونوا على دراية بالأمر ، فقد امتشقت قلمى ، وعالجت فريقا منهم بطريقة لم تدع ضحكات فى صفوفهم !.. وكان أول المتهاوين تحت طعنات قلمى ، سيد من (نانسى) يدعى السيد جوتييه ، فقد اهين بغلظة فى رسالة إلى « جريم » . أما الثانى ، فكان الملك « ستانيسلاس » (٢) نفسه ، الذى لم يتورع عن أن يخوض المعركة ضدى . وقد اضطرنى الشرف الذى أضفاه على ، إلى أن أبدل لهجتى فى الرد عليه ، فاتخذت لهجة أكثر وقارا ، وإن لم تكن اقل شدة. ففندت رسالته تماما ، دون أن أغض من احترام المؤلف . ولما عرفت أن جيزويتيا يدعى الأب « مينو » كان ذا يد فى الموضوع فاعتمدت على فطنتى فى التفرقة بين عمل الأمير وعمل الراهب، وانقضضت دون إشفاق على كل العبارات الجيزويتية ، فكشفت ـ فى طريقى ـ عن خطأ تاريخى كنت أعتقد أنه

---

(١) السيد « جس » أحدى شخصيات مسرحية موليير « طبيب الغرام » وقد استعار « روسو » هذا الاسم ليرمز الى المتحامل الذى تعميه المصلحة الشخصية عن الحق » .

(٢) الملك ستانيسلاس الأول ، ملك بولندا وقد عاش من سنة ١٦٧٧ الى سنة ١٧٦٦ ، وخلفه « ستانيسلاس » الثانى ، آخر مولك بولندا ، وقد عاش بين سنتى ١٧٣٢ و ١٧٩٨ ، والغالب أن « روسو » قصد أولهما .

لا يصدر إلا عن قلم قداسته . وهذا المقال ـ الذى كان أقل من سواه إثارة للضجيج لسبب ما ـ يعتبر فى حد ذاته فريدا فى نوعه . فقد انتهزت فيه الفرصة لأبين للرأى العام كيف أن فى وسع فرد معين أن يذود عن قضية الحق ، ضد عاهل ذى سلطان . وكان من العسير أن أتخذ لهجة أبيه ومحترمة ـ فى الوقت ذاته ـ تفوق تلك التى اتخذتها فى ردى عليه . وكنت مجدودا إذ قدر لى أن أنازل غريما كان قلبى مفعما نحوه بتقدير كنت أملك أن أبديه له دون ما تملق . ولقد ظن أصدقائى ـ الذين انزعجوا من أجلى ـ أنهم لن يلبثوا أن يرونى فى « الباستيل » ، ولكن الخوف من ذلك لم يداخلنى لحظة واحدة .. وكنت محقا . فقد قال هذا الأمير الطيب ، بعد أن اطلع على ردى : « لقد تلقيت جزائى ، ولن أزج بنفسى فى الأمر بعد ذلك » . ومن ذلك الحين ، تلقيت منه الكثير من امارات التقدير والكرم ـ التى سأضطر إلى ذكر بعضها ـ وانتشر مقالى فى فرنسا وأوربا فى هدوء ، ودون أن يجد امرؤ فيه منفذا إلى لوم !

وصادفت ـ بعد ذلك بقليل ـ غريما آخر لم أكن أتوقعه هو السيد « بورد » الذى كنت أعرفه فى (ليون) ، والذى أولانى ـ قبل عشر سنوات ـ كثيرا من الود ، وأدى لى عدة خدمات، ولم أكن قد نسيته ، ولكنى كنت قد تغافلت عنه تكاسلا ، كما أننى لم أكن قد أرسلت إليه مؤلفاتى، إذ عازتنى الفرصة المواتية لأبعث بها إليه ـ وكنت فى ذلك مخطئا . ولقد هاجمنى ـ ولكن فى أدب وأمانة ـ فرددت عليه بنفس اللهجة . وعاد إلى الهجوم

بإصرار ، فأفسح بذلك المجال إلى رد مفحم ، لم ينبس بعــده بكلمة (١) ، ولكنه صار أشد أعدائي ضراوة ، وانتهــز وقت محنتي ليوجه إلي شتائم مقذعة ، كما رحل إلى لندن خصيصا لكي يسعى إلى إيذائي !

ولقد شغلتني هذه المجادلات القلمية كل الشغل . إذ بددت كثيرا من الوقت الذي كان يتطلبه عملي في النســخ ، وعاقت تقدمي في طلب الحقيقة ، وحدت من الكسب الذي كان يدخل جيبي . وكان « بيسو » ـــ ناشر مؤلفـــاتي في ذلك الحين ـــ لا يمنحني دائما سوى مبالغ زهيدة جدا في مقـــابل كتيباتي . وكثيرا ما كان لا يدفع شيئا البتة . ومن أمثلة ذلك أنني لم أتلق درهما واحدا عن رسالتي الأولى ، إذ أعطاه ديدرو إياها دون مقابل . وكان لا بد من أن أنتظر طويلا ، وأن أنتزع منه القليل ـــ الذي كان يجود به ـــ « سو » إثر « سو » . وفي الوقت ذاته ، لم تكن سوقي في النسخ رائجة ، فقد كنت مشـــغولا بمهنتين ، وهذه هي الوسيلة لكي أسيء أداء كل منهما ! . . ولقد تعارضت هاتان المهنتان في ناحيـــة أخرى ، وقد تمثل هـــذا التعارض في تباين أسلوب الحياة الذي كانت كل منهما تضطرني إلى انتهاجه . . ذلك أن نجاح مؤلفاتي الأولى ، جعلني قبـــلة الأنظار . إذ أثارت المكانة التي احتللتها فضول الناس ، وود

---

(١) يبدو أن الذاكرة خانت « روسو » هنا ؛ اذ انه لم يوجه الى « بورد » سوى رد واحد ، بشأن مقاله : « في فوائد العلوم » لم يرد الثلاثة على مقال ثان لنفس الكاتب في الموضوع ذاته .

الرغبة فى معرفة هذا الرجل الغريب الأطوار ، الذى لم يكن يخطب ود أحد ، ولا يحفل إلا بأن يعيش على سجيته طليقا ، سعيدا .. وكانت هذه الرغبة كافية لأن تجعل الحياة التى كنت أنشدها مستحيلة ، إذ لم تعد حجرتى تخلو من أناس كانوا يفدون ليسلبونى وقتى بمختلف الحجج . وعمدت النساء إلى ألف حيلة لاستدراجى إلى موائدهن .. وكنت كلما جافيت الناس ازدادوا إصرارا على ملاحقتى .. ولم أعد أقوى على صدهم جميعا ، ففى الوقت الذى جلبت فيه على نفسى ألف عدو ـ بسبب الرفض ـ كانت رغبتى فى مجاملة الغير تستعبدنى ، ولم أعد أحظى من يومى بساعة واحدة لنفسى ، مهما أحاول!

* * *

وأدركت إذ ذاك أن العيش فى فقر وحرية ، ليس دائما بالسهولة التى يتصورها المرء . فلقد شئت أن أعيش على مهنتى ، ولكن الجمهور لم يشأ !.. وكانوا يبتكرون ألف وسيلة تافهة لتعويضى عن الوقت الذى كان يضيع على ، فاذا الهدايا ـ من بشخصه (١) . ولم أعرف عبودية أكثر قسوة وإذلالا من هذا ، ولا رأيت له علاجا سوى أن أرفض جميع الهدايا ، كبيرها وصغيرها ، دون ما استثناء لإرضاء أحد !.. ولم يؤد كل هذا

---

(١) بوليشينل : شخصية وردت فى خرافات (نابولى) التدبمة ، يرتدى صاحبها قبعة ذات قرنين ، وقد تضخم جسمه من أمام ومن خلف ، وله أنف كمنقار الدجاجة ، وصوت أجش حاد ينطلق فى خفة (أخنف) ... وهو رجل شرس ، صاخب ، عربيد ، مشاكس

إلا إلى اجتذاب واهبى الهــدايا ، الذين كانوا يطمعون فى أن يحظوا بفخر التغلب على صدودى ، وأن يدينــونى بفضلهم بالرغم منى . وكم من امرىء كان يضن على بــ « ايكو » واحد ــ لو أننى طلبته ــ ولكنه راح يضايقنى بعطاياه دون انقطاع، وهو يتهمنى بالغطرسة والكبر ، ليثأر لنفسه من رفضى !

ولا بد أن القارىء قد حدس أن القرار الذى كنت قد اتخذته، والنهج الذى رغبت فى انتهاجه ، لم يصادفا هوى لدى السيدة لوفاسير . ولم يفلح كل ما كان لدى ابنتها من تجرد من النفع الذاتى ، فى أن يمنع هذه الابنة من أن تنساق لتوجيهات أمها . ومن ثم فان « الدادتين »(١) ــ كما اعتاد جوفكور أن يسميهما ــ لم تكونا حازمتين دائما مثلى فى رفض الهدايا ، من ناحيتهما؛ ومع أن كثيرا من الأشياء كانت توارى عنى ، إلا أننى رأيت ما كان كافيا لأن يقنعنى باننى لم أر كل شيء !.. وقد عذبنى هذا ، لا خشية أن أتهم بالتواطؤ معهما ــ وهو ما تنبأت بأننى ملاقيه عما قريب ــ وإنما بسبب الفكرة القاسية التى أوحى بها عجزى من أن أكون صاحب السلطان فى بيتى ، وعلى نفسى ! .. ولقد رجوت ، وتوسلت ، وغضبت .. دون جدوى !.. ولقد صورتنى الأم فى صورة المتذمر الأبدى التأنيب والتوبيخ ، ورمتنى بأننى مشاكس شرس .. وكانت لا تفتــأ تتهامس مع أصدقائى .. كان كل شيء فى بيتى محوطا بالغموض والأسرار ؛

---

(١) الواقع أن التعبير الدارج « دادة » أدق من « مربية » فى أداء المعنى هنــا .

ولكنى ــ اتقاء للتعرض للعواصف دون انقطاع ــ لم أعد أجرؤ على الاستفسار عما كان يجرى . ولقد كان التخلص من هذا الازعاج يتطلب حزما لم أكن أملكه ، إذ أننى كنت أعرف كيف أصيح ، ولكننى كنت لا أدرى كيف أقرن الصياح بالعمل .. فتركت أصيح ، وظل كل شىء ماضيا فى مجراه ؟

هذه المزعجات المستمرة ، وهذه المضايقات اليومية التى كنت فريسة لها ، جعلت ــ فى النهاية ــ مسكنى ومقامى فى باريس من أبغض الأمور . وكنت إذا ما سمحت لى صحتى بالخروج ، وإذا لم انسق إلى هنا أو إلى هناك تحت إغراء معارفى ، أتمشى وحيدا ، وأنا أحلم بخطتى العظيمة فى الحياة. وكنت أسطر بعض الخواطر ، مستعينا بمفكرة بيضاء وقلم من الرصاص اعتدت أن أحتفظ بهما فى جيبى . وهكذا دفعت بى المضايقات الخفية لحال اخترتها لنفسى ، إلى مهنة الأدب نهائيا ، فقد رحت ألوذ بها فرارا من تلك المضايقات . وهذا هو السر فى أننى بثثت كل مؤلفاتى الأولى ، المرارة والضيق اللذين دفعانى إلى أن أشغل نفسى بكتابتها .

وهناك عامل آخر ساهم فى ذلك .. فاننى حين أقحمت ــ بالرغم منى ــ فى المجتمع ، دون أن أوتى طباعه ، أو أن أكون على استعداد لأن اكتسبها، قررت أن أتخذ لنفسى طباعا خاصة تغنينى . وإذ كانت جماقتى وحيائى المض ــ اللذين عجزت عن مغالبتهما ــ صادرين أصلا عن الخوف من أن تعوزنى آداب اللياقة ، فقد رأيت ــ لكى أشجع نفسى ــ أن أدوس تلك الآداب تحت قدمى . وأحالنى الحياء إلى هجاء مقذع لاذع ، وحرصت

على أن أزدرى آداب اللياقة التى لم أتعلم كيف أمارسها . ومن الصحيح أن هذه الغلطة تمشت مع مبادئى الجديدة ، فاذا بها تكتسب سموا فى عقلى ، وتتخذ مظهر الجـراءة المنبثقـة عن الفضيلة .. وأستطيع أن أذهب إلى القول بأنها بهـذا الشكل الجليل ، استطاعت أن تصمد خيرا ـــ ولأمد أطول ـــ مما كان مرتقبا ، بطبيعة الحال ، لجهد مناقض لسجيتى إلى هذا الحد، ومع ذلك فاننى كنت أسىء دائما الاحتفاظ بشخصيتى ، فيما بينى وبين نفسى ـــ بوجه خاص ـــ بالرغـم مما ذاع عنى فى المجتمع من نفور من البشر ، أوحى به مظهرى الخارجى وبعض الكلمات التى تنم عن ذلك !.. وإذ راح أصدقائى ومعـارفى يقدرون هذا الدب الوحشى وكأنه حمل ، وإذ راحوا يحدون من سخرياتهم فيقصرونها على الحقائق القاسية ، العامة ، فاننى لم أكن أملك قط أن أقـول كلمة مجاملة واحـدة ، لأى امرىء كان !

* * *

وأدت قصة « خراف القرية » إلى تألقى فى المجتمع . فلم يعد فى باريس رجل مرموق فوق ما كنت أنا . ويرتبط تاريخ هذه القصة ـــ التى تمثل فترة من حياتى ـــ بعلاقات كنت قد أنشأتها فى ذاك الحين . وهذه تفصيلات أرى واجبا على أن أتناولها ، لكى تفهم القصة حق الفهم .

كان لى عدد كبير جدا من المعارف ، بيد اننى لم أصطف منهم سوى صديقين ، هما « ديدرو » و « جريم » . ونظرا لما أوتيت من رغبة فى أن أجمع بين كل أولئك الأعزاء لدى ، فان صداقتى

الوثيقة لكل منهما ، لم تدع مناصا من أن يصبح كل منهما صديقا حيماللآخر ، إذ أننى جمعتهما معا، فاذا بهما بنسجمان، وسرعان ما غدا كل منهما أوثق صلة بالآخر منه بى أنا . وكان لديدرو معارف لا حصر لهم ، أما « جريم » ، فقد كان بشىء المعارف ، إذ كان أجنبيا وحديث عهد بالبلاد . ولم أكن أطمع فى أكثر من أن أوفر له هؤلاء المعارف . فاتحت له صداقة ديدرو ، وصداقة جوفكور .. واصطحبته إلى دار السيدة دى شينونسو ، ودار السيدة ديبيناى ، ودار البارون دولباخ، الذى وجدتنى مرتبطا به على الرغم منى تقريبا !.. وغدا كل أصدقائى أصدقاء له . وكان هذا الأمر غاية فى السهولة، ولكن أحدا من أصدقائه لم يصبح يوما صديقا لى ! .. وإليكم ما كان يحول دون ذلك :

لما كان جريم يقيم فى بيت الكونت دى فريبز ، فانه كان بدعونا إلى الغداء هناك أحيانا . ولكننى لم أتلق قط أى دليل على الود أو اللطف من الكونت دى فريبز ، أو الكونت دى شومبيرج ـ قريبه الذى كان وثيق الألفة بجريم ـ أو من أى شخص آخر ، ذكرا كان أو أنثى ، ممن كانت لجريم بهم علاقة، عن طريق هذين السيدين . وكان الوحيد المستثنى منهم ، هو الراهب « راينال » الذى أثبت انه صديق لى ، وإن كان صديقا له ، والذى اعتاد أن يقدم كيس نقوده لى ـ إذا دعت الحاجة ـ فى كرم غير مألوف . على أننى كنت أعرف الراهب راينال قبل أن يعرفه جريم نفسه بوقت طويل ، وكنت أميل

إليه دائما ، عقب تصرف مفعم بالرقة واللياقـــة أسداه إلى فى مناسبة طفيفة القيمة ، ولكنى لم أنسها البتة .

كان هذا الأب راينال صديقا حميما بالتأكيد . ولقد تسنى لى الدليل على ذلك ، حوالى الوقت الذى أنا بصدده تقريبا ، وفى أمر يتعلق بجريم ذاته ، إذ كان على علاقة وثيقـــة به . فلقد ظل « جريم » بعض الوقت على صداقة خالصة بالآنسة « فيل » ، ثم إذا به فجأة يغدو عاشقا مدلها فى هواها ، وأن ينتزعها من « كاهوساك » . ولكن الحسناء طردت هذا المتيم الجديد ، وهى تفخر بوفائها ، فحمل الشاب الأمر محملا اليما، حتى أنه فكر فى الموت . وما لبث أن وقع بغتة فريسة لأغرب مرض سمع به امرؤ . فقد راح يقضى نهاره وليله فى غيبوبة ، تظل خلالها عيناه مفتوحتين ، ونبضه منتظما ، ولكن .. بلا كلام ، ولا طعام ، ولا حركة .. وكان يبدو أحيانا ما ينم عن أنه كان يسمع ، بيد أنه لم يكن يجيب إطلاقا ، ولو بالإشارة ! .. وكان ــ إلى جانب ذلك ــ غير منفعل، ولا متألم، ولا محموم .. وكان يبقى على هذه الحال، وكأنه ميت ! . وتشـــاطرت والراهب راينال رعايته ، فكان الراهب ــ نظرا لتفوقه على فى متانة البنيان وقوة البدن ــ يسهر الليالى ، بينما كنت أعنى به فى النهار . وكنا لا نفارقه إطلاقا ، فلا يبرحه أى منا حتى يصل الآخر . وجزع الكونت دى فرييز ، فأحضر له « سيناك » الذى قال ــ بعد أن فحصه فحصا دقيقا ــ ألا علة هنـــاك ، ولم يصف له دواء . وكان إشفاقى على صديقى قد حملنى على أن أراقب بإنعام محيا الطبيب ، فلمحته يبتسم وهو يغادر المكان



... نفارقه اطلاقا ، فلا يبرحه أى منا حتى يصل الآخر »

ومع ذلك فان المريض ظل أياما عديدة دون حراك ، ودون أن يتناول حساء أو أى شىء ، اللهم إلا بعض الكريز المحفوظ ، الذى كنت أضعه على لسانه بين آن وآخر ، والذى كان يزدرده فى لبقة . وفى ذات صباح بديع ، استيقظ جريم ، وارتدى ثيابه، واستأنف حياته العادية ، دون أن يحدثنى قط ، أو يحدث الراهب ـــ فيما علمت ـــ أو يحدث أى مخلوق عن هذه الغيبوبة العجيبة ، ولا عن العناية التى أوليناه إياها طيلة استمرارها !

ولم يمر هذا الحادث دون ضجة ، فقد كان من الموضوعات العجيبة حقا ، أن تؤدى قسوة احدى غانيات الأوبرا ، إلى أن يموت رجل لفرط اليأس !.. وأذاعت هذه العاطفة الرائعة صيت « جريم » فى المجتمع ، حتى لقد اشتهر بأنه معجزة الحب ، والصداقة ، والوفاء ، فى كافة الاعتبارات . وجعلته هذه الفكرة مرموقا ، ومكرما لدى المجتمع الراقى . وبهذا تباعد عنى ، أنا الذى لم أكن بالنسبة له أكثر من تكأة أو أداة!.. ورأيت أنه على وشك أن يغدو غريبا عنى ، فأحزننى ذلك ، إذ أن كل المشاعر المضطرمة التى كان يتظاهر بها ، كانت عين المشاعر التى خالجتنى نحوه ، دون أن أتظاهر بها . ولقد كنت مغتبطا لنجاحه فى المجتمع ، ولكننى لم أكن أحب له أن ينسى أصدقاءه فى غمرة هذا النجاح . ولقد قلت له يوما : « إنك لتهملنى يا جريم ، وإنى لاغفر لك ذلك . فإذا ما انتهى مفعول النشوة الأولى لهذا النجاح المدوى ، وشرعت تتبين أنه فارغ . فانى آمل أن تعود إلى ، ولسوف تجدنى دواما كما عهدتنى . أما فى الآونة الحاضرة ، فلا تضايق نفسك ، فسوف أدعك تفعل

ما يحلو لك ، وسوف انتظرك » . وقال لى إننى كنت على حق ودبر خطته على هذا النسق ، وانطلق فى طريقه إلى نهاية الشوط ، حتى أننى لم أعد أراه إلا مع الاصدقاء المشتركين لكلينا !

وكانت دار البارون دولباخ هى ملتقانا الرئيسى ، قبل أن يرتبط بمدام دييناى ارتباطا وثيقا . وكان البارون المذكور ابنا لرجل عصامى وقد أوتى ثروة عظيمة جدا ، فاستغلها استغلالا نبيلا ، وفتح داره لأهل الأدب والفضل ، واستطاع بتنوره ومعرفته أن يملأ مكانه بينهم . وإذ كان على علاقة بديدرو منذ أمد طويل ، فقد سعى عن طريقه إلى التعرف بى، قبل أن يغدو اسمى معروفا . وصدنى نفور طبيعى عن أن أستجيب لتقربه فترة طويلة . وقد سألنى عن السبب ذات يوم ، فقلت له : «إنك واسع الثراء». ولكنه ألح فى طلب ودى، واستطاع أن يتغلب على توجسى فى النهاية . لقد كانت نكبتى الكبرى دائما ، هى عجزى عن مقاومة الاطراء واللطف ، وما وجدتنى يوما اتخلى عن هذه الشيمة !

* * *

ومن حالات التعارف التى تحولت إلى صداقة بمجرد أن وجدت من حقى أن أنشدها ، معرفتى بالسيد ديكلو . ولقد انقضت عدة سنوات مذ رأيته ـ للمرة الأولى ـ فى (لاشيفريت)، لدى السيدة دييناى ، التى كان على صلات طيبة بها . ولم نحظ بأكثر من أن تناولنا الغداء معا ، ثم رحل فى اليوم ذاته .

ولكننا وجدنا الفرصة لتبادل الحديث فترة بعد الغداء . وكانت السيدة ديبيناى قد حدثته عنى وعن أوبراى « عرائس الشعر اللطاف » . وكان « ديكلو » ذا مواهب عظيمة ، أسمى من أن تجعله يصدف عن حب الموهوبين ، ومن ثم فقد مال إلى ، ودعانى إلى زيارته . وبالرغم من ميلى القديم(١) ، الذى عززته المعرفة ، فإن حيائى وكسلى ظلا يعوقاننى طويلا، حتى لم يبق ثمة ما يقربنى إليه سوى لطفه وحفاوته . على أننى تشجعت بنجاحى الأول(٢) وبما بلغنى من إطرائه هذا النجاح ، فقمت بزيارته ، وجاء لزيارتى ، وهكذا بدأت بيننا روابط ستظل تجعلنى أعتز به دائما ، وإليها — وإلى شهادة قلبى الصادق — أدين بمعرفة أن الاستقامة والوفاء ، قد تقترن أحيانا بالثقافة الأدبية !

ولقد كانت كثير من علاقاتى — التى تقل متانة عما ذكرت ، والتى أتجاوز عن ذكراها هنا — نتيجة مرات نجاحى الأولى ، وقد دامت إلى أن قدر لفضول أصحابها أن يرتوى . فلقد كانت نفسى تتكشف على حقيقتها سريعا ، فلا يعود ثمة جديد يرى فيها بعد اليوم الأول للتعارف ! .. على أن من النساء اللائى سعين إلى التعرف بى فى تلك الآونة ، امرأة صارت أقوى صلة بى من سواها . تلك هى السيدة المركيزة دى كريكى .

---

(١) ميله الى كل من يبدى له اللطف والاطراء .

(٢) نجاح رسالة فى فوائد العلوم الحديثة .

ابنة أخ السيد « لوبابيلى دى فرولاى » ، الذى كان سـفيرا لفرنسا فى (مالطة) وكان أخوها سلفا للسيد دى مونتيجى فى السفارة الفرنسية فى (البندقية) ، وزرته عقب عودتى من تلك المدينة .. ولقد كتبت السيدة دى كريكى إلى ، فذهبت لزيارتها .. واستقبلتنى فى مودة ، وتناولت الغداء لديها بضع مرات ، وقابلت لديها كثيرا من الأدباء .. منهم السيد سوران ـ مؤلف « سبارتاكوس » و « بارنيفلت » وغيرهما ـ الذى أصبح من ذلك الحين ألد أعدائى ، لغير ما سبب أستطيع أن أتصوره ، سوى أننى أحمل اسم رجل كان أبوه قد اضطهده بخسة وظلم .

ويرى من هذا ، أننى ـ كناسخ كان ينبغى أن يشغل بمهنته من الصباح إلى المساء ـ كنت أصادف كثيرا من الشواغل التى كانت تعوق عملى اليومى عن أن يكون جد مربح، وكانت تمنعنى من أن أعنى العناية الواجبة بما كان مصدرا لرزقى . وكنت أضيع أكثر من نصف الوقت المتبقى لى ، فى محو أو كشط الأخطاء التى كنت ارتكبها فيما أنسخ ، أو فى إعادة كتابته من جديد . وقد أدى هذا الازعاج إلى أن أصبحت لا أطيق باريس يوما بعد يوم ، وإلى حملى على أن أنشد الريف برغبة قوية . فذهبت عدة مرات لأقضى أياما فى (ماركوسى) ، التى كانت مدام لوفاسير على معرفة بأسقفها .. وقد استطعنا أن ندبر الأمر بحيث أنه لم يجد أى ضير فى مقامنا فى داره .. ولقد ذهب

معنا « جريم » مرة إلى هنـــاك[1] . وكان الأسقف ذا صوت رخيم ، كما كان يجيد الغناء ، ومع أنه لم يكن ملماً بالموسيقى، إلا أنه كان يستطيع أن يحفظ دوره بدقة . ومن ثم فقد قضينا الوقت فى ترديد الأغانى الثلاثية التى كنت قـد وضعتها فى (شينونسو) ، كما لحنت أغنيتين أو ثلاثا جـديدة ، وضع « جريم » والأسقف كلماتها بقدر ما وسعهما . ولست أملك أن أمنع نفسى عن التحسر على تلك الأغانى الثلاثية التى وضعت فى لحظات مفعمة بالغبطة الخالصة ، والتى تركتها فى (فوتون ومعها جميع قطعى الموسيقية . ولعل الآنسة دافنبورت قد اتخذت منها أشرطة ورقية للف شعرها .. على أنهـا كانت جديرة بأن تصان ، فقد كانت ـــ فى الغالب ـــ دقيقة الوزن . وحدث بعد إحدى هذه الرحلات القصيرة ـــ وقد اغتبطت لرؤية « العمة » منشرحة مسرورة ، كما كنت أنا الآخر مبتهجا ـــ أن كتبت إلى الأسقف خطابا شعريا ، نظمته فى عجلة وفى غير عناية .. وسيوجد بين أوراقى .

* * *

---

(1) أضاف « روسو » الى هذا ، الاستدراك التالى : « لما كنت قد اغفلت هنا ذكر حادث تافه ، ولكنه جدير بالذكر ، وقع لى مع « جريم » المذكور ذات صباح ، وقد اعتزمنا تناول الغداء عند عين (سان مانديل) ، فاننى لن أعود الى هذا الحادث . ولكننى حين فكرت فيه ـــ فيما بعد ـــ استنجت أن جريم كان يبيت النية فى قرارة قلبه ـــ منذ ذلك الحين ـــ على المؤامرة التى نفذها فيما بعد بنجاح رائع » !

وكان لى — فى مكان أكثر قربا من باريس — ملاذ آخر يلائم مزاجي .. تلك هى دار السيد « موسار » ، مواطنى وقريبى وصديقى ، الذى أعد لنفسه مأوى فاتنا فى (باسى) ، قضيت فيه كثيرا من اللحظات الوادعة . وكان السيد موسار تاجر مجوهرات ، وكان رجلا سليم الذوق ، جمع من حرفته ثروة طيبة ، وزوج ابنته الوحيدة من السيد دى فالمالبت — ابن صراف ومدير فندق الملك — ثم استقر رأيه الحكيم على أن يهجر فى أيام شيخوخته التجارة والعمل ، لينعم بالراحة والاستجمام فترة من الزمن ، بين هموم الحياة ونهاية الأجل . وكان « موسار » الطيب فيلسوفا عمليا حقا ، فكان يعيش بلا هموم ، فى دار بديعة ابتناها لنفسه ، وفى حديقة غناء زرعها بيديه . وفيما كان يحفر قنوات أحواض هذه الحديقة ، عثر على قواقع متحجرة ، ووجدها بكميات كبيرة إلى درجة أن خياله المتوثب لم يعد يرى فى الطبيعة سوى قواقع ، حتى انتهى أخيرا إلى الإيمان الجازم بأن الكون لم يكن غير قواقع ! .. وأصبح لا يفكر دائما إلا فى هذا الأمر ، وفى اكتشافه الفذ ، حتى أهاجته هذه الأفكار ، وأوشكت — فى النهاية — أن تتخذ فى رأسه شكل نظرية — أعنى خبلا — لولا أن الموت تدخل فى الأمر — لحسن حظ عقله ، ولسوء حظ أصدقائه الذين كانوا يعتزون به ، ويجدون فى داره أبدع مأوى — فانتزعه من بينهم ، متوسلا بأغرب وأقسى مرض .. ذاك هو تورم فى معدته ، كان دائم التضخم ، وكان يحرمه من الأكل ، دون أن يتبدى سببه برغم طول العهد به ، ثم انتهى بموته جوعا ، بعد سنوات عديدة من العذاب ! .. ولست أملك أن استرجع نهاية عمر هذا الرجل ،

دون أن ينقبض فؤادى . فقد ظل يستقبلنا ــ « لينبيب » وأنا ــ بسرور عارم .. وكنا الصديقين الوحيدين اللذين لم يحملهما منظر الآلام التى كان يعانيها ، على أن ينأيا عنه إلى آخر ساعة فى حياته .. وانى لأذكر انه لم يكن إذ ذاك ليقوى على التهام الطعام ــ الذى اعتاد أن يأمر بتقديمه الينا ــ إلا بعينيه، ولا كان يطيق ابتلاع بضع قطرات من الشاى الخفيف ، إلا ليلفظها فى اللحظة التالية ! .. ولكن كم من أوقات ــ قبل تلك الآلام ــ قضيتها فى داره مسرورا ، مع النخبة التى اصطفاها من الأصدقاء ! .. وانى لأضع على رأس هؤلاء الراهب « بريفو »(١) ، وكان شخصا لطيفا ، سلسا ، يستلهم قلبه ما كان يكتب من أشياء جديرة بالخلود ، ولا يبدى ــ سواء فى مظهره أو فى معشره ــ شيئا من ذلك الجو القاتم الذى فرضه على مؤلفاته .. والطبيب « بروكوب » ، وكان « بعسوب صغيرا(٢) ، ذا حظوة لدى النساء، و «بولانجيه» المؤلف المزعوم للتمثيلية الموسيقية الهزلية « الاستبداد الشرقى » ، وقد عمد فيما أعتقد ــ إلى التوسع فى نظريات « موسار » عن مدى عمر الدنيا .. أما بين النساء ، فأذكر السيدة « دنيس » ابنة أخت « فولتير » ، التى كانت ــ إذ ذاك ــ طيبة ساذجة ، ولم تكن

---

(١) اشتهر باسم « الأب بريفو » ؛ واسمه الأصلى « بريفو ديكسيل» . وهو مؤلف قصة « مانون ليسكو » الخالدة . وقد ولد فى سنة ١٦٩٧ ومات فى سنة ١٧٦٣

(٢) يعسوب : شخصية أسطورية اغريقية ، وان كان هيرودت يقول أنه شخصية حقيقية ، وقد عاش فى مصر واشتهر بالرحلات والأدب .

قد زعمت لنفسها شيئا من توقد الفكر .. والسيدة « غانلو » التى لم تكن جميلة حقا ، ولكنها كانت فاتنة ، وكانت فى غنائها كالملاك .. والسيدة « فالماليت » التى كانت تحذق الغناء هى الأخرى ، والتى كانت ــ برغم هزالها ــ بالغة اللطف لو أنها خففت من تظاهرها باللطف !!.. هؤلاء كانوا صفوة رواد ندوة السيد موسار ــ تقريبا ــ وقد كانت صحبتهم خليقة بأن تلذ لى ، لولا أن نظرياته عن القواقع كانت الذ ، حتى لاذهب إلى القول بأننى عكفت لستة أشهر على العمل فى مكتبه ، فى دراسة هذه النظرية ، باغتباط لم يكن يقل عن اغتباطه !

وكان يلح ــ من زمن طويل قبل ذاك ــ بأن مياه « باسى » كانت كفيلة بأن تصلح حالى الصحية ، وكان يلحف فى أن أتردد على داره لكى أتناولها . وقد انصعت أخيرا له لكى أنتزع نفسى ــ بعض الوقت ــ من ضجيج المدينة ، فقضيت فى (باسى) ثمانية أيام أو عشرة ، أفدت منها كل الفائدة ، بفضل إقامتى فى الريف ، أكثر مما هو بفضل تناول تلك المياه . وكان «موسار» يهوى العزف على الكمان الكبيرة ، ويشغف بالموسيقى الإيطالية . وفى ذات مساء ، أطلنا الحديث ــ قبل أن نأوى إلى مخادعنا ــ فى هذا المجال ، وتكلمنا بوجه خاص عن « أوبرا بوفا » ، التى رآها كل منا على حدة ــ فى إيطاليا ــ والتى أعجب بها كل منا إعجابا بالغا .. ولم أنم فى تلك الليلة ، فشرعت أفكر فى وسيلة تمكننى من أن أتيح فكرة مثل هذا النوع من « الدراما » لفرنسا . إذ لم يكن ثمة شبه بين « غراميات راجوند » وهذا النوع[1] .

---

(١) كوميدية موسيقية عرضت فى « الأوبرا » الباريسية فى سنة ١٧٤٢

وفى الصباح التالى، نظمت على عجل بعض نماذج من الشعر تتمشى مع هذه الفكرة - أثناء ما كنت أتريض وأتناول المياه - ونسقتها مع الألحان التى توافدت على رأسى خلال ذلك . وسطرت جميع هذه الأغانى ، فى « صالون » ذى قبة ، فوق الحديقة . ثم لم أتورع عن أن أعرضها - أثناء تناول الشاى - على موسار والآنسة دوفيرنوا مديرة داره ، التى كانت بالغة الطيبة واللطف حقا . وكانت القطع الثلاث التى نظمتها فى عجلة ، تؤلف الأغنية الفردية الاولى ، وهى : « فقدت خادمى » ، و « عراف القرية » ، و « الحب يخشى على نفسه » . . ثم الثنائى الأخير : « أبدا لن أخطبك ، يا كولان » ، الخ !

ولم أكن أعول كثيرا على أن هذه المحاولة تستحق عناء المضى فيها . ولولا الاستحسان والتشجيع اللذين لقيتهما من كل منهما، لكنت خليقا بأن ألقى قصاصاتى إلى النار ، ولا أعود إلى التفكير فيها ، كما فعلت من قبل بقطع أخرى كانت تماثل هذه ؛ على الأقل ! . . ومن ثم فقد وجدتنى متحمسا ، حتى أن « الدراما » اكتملت خلال ستة أيام ، فيما عدا بضعة سطور . . كما أننى وضعت أفكار الموسيقى كلها ، فلم يعد أمامى ما أفعله فى (باريس) ، سوى أن أضيف بعض مقطوعات إلقائية ، وأن أملأ بعض الحواشى . وقد فرغت بسرعة من كل هذه ، فلم تنقض ثلاثة أسابيع ، حتى كانت المناظر قد نسخت ، وأصبحت مهيأة للعرض . ولم يكن ثمة ما ينقصها سوى موسيقى الانتقال من منظر إلى آخر ، وقد قدر لها ألا توضع إلا بعد ذلك بوقت طويل .

سـنة ١٧٥٢

أثارنى وضع هذا العمل الأدبى الفنى ، حتى لقد تملكنى شوق عارم إلى سماعه ، وحتى أننى كنت على استعداد لأن أنزل عن كل شىء ، فى سبيل أن أراه معروضا أمامى ـ بالشكل الذي كنت أتمثله فى خيـالى ـ فى غرفة موصدة ، كما فعلت « لولى » ـ فيما يقال ـ إذ شهدت يوما مسرحية « ارميد » تمثل أمامها وحدها . ولما لم يكن من الميسور لى أن أنعم بهذه المتعة إلا برفقة الجمهور ، فقد كان من الضرورى ، لكى تمثل هذه الأوبرا ، من أن تلقى قبولا فى دار « الأوبرا » . ولكنهـا ـ لسوء الحظ ـ كانت من نمط جديد كل الجدة ، لم تألفه آذان الجمهور ، كما أن فشل « عرائس الشعر اللطاف » جعلنى أتوقع المصير ذاته للعراف(١) ، إذا أنا قدمتها باسمى . وقد ساعدنى « ديلكو » على الخروج من هذا المأزق ، إذ تكفل بأن يسعى إلى إجراء تجارب على المسرحية ، دون أن يكشف عن اسم المؤلف . ولكى لا أنم عن نفسى ، فاننى لم أحضر التجربة ، وظل كل امرىء ـ حتى « الكمانان الصغيران »(٢) ، اللذان توليا الاخراج ـ يجهلان اسم المؤلف ، إلى أن شهد الاستحسان العام بروعة المسرحية . ولقد فتن كل من سمعها ، حتى أن

(١) أطلق روسو على هذه « الأوبرا » اسم « عراف القرية » .

(٢) لقب اشتهر به « ريبيل » و « فرانكور » اللذان كانا يتوليان الاخراج الموسيقى ، وقيادة الفرقة الموسيقية فى « الأوبرا » . وقد سميا بذلك ، لأنهما اعتادا فى صباهما أن يطوفا بالبيوت ، وهما يعزفان على « الكمان » .

جميع الأوساط لم تتحدث إلا عنها فى اليوم التالى . ولقد شهد السيد كورى ـــ مدير حفلات البلاط ـــ التجـربة ، فطلب المسرحية لتعرض فى البلاط ، ولكن ديلكو ـــ الذى كان يعــرف نواياه فخشى أن يكون سلطانى على المسرحية فى البلاط أقل منه فى باريس ـــ رفض أن يسلمه إياها ، فعاد كورى يطلبها بحكم منصبه . واحتدم الجدال بينهما ، حتى لقــد تطور ذات يوم ـــ وهما فى « الأوبرا » ـــ فأوشكا أن يخرجا ليتبارزا ، لولا أن حيل بينهما .

ورؤى الاتصال بى بشأنها ، ولكنى تركت البت فى ذلك إلى السيد ديكلو ، فكان لابد من الرجوع إليه . وتوسط السيد الدوق دومون فى الأمر ، فرأى ديكلو ـــ فى النهاية ـــ أن من الواجب النزول عند رغبة صاحب السلطة ، وقدمت المسرحية لتمثل فى (فونتينبلو) . وكان الجزء الذى أوليته أعظم اهتمام، والذى نأيت فيه كثيرا عن النهج المألوف ، هو الإلقاء الغنائى . فقد نسق الالقاء ـــ فى أوبراى ـــ بطريقة جديدة تماما ، بحيث يتمشى النغم مع إلقاء الكلمات . ولكنهم لم يجسروا على أن يستبقوا هــذا التجديد ، إذ خيف من أن يصدم الآذان التى ألفت الرتابة . ومن ثم فاننى وافقت على أن يضع « فرانكوبى» و « جيليوت » ألحانا جديدة للإلقاء ، ولكننى رفضت أن تكون لى يد فى ذلك .

وإذ تم إعداد كل شىء ، وحدد يوم العرض ، أقترح على أن أرحل إلى (فونتينبلو) لأحضر التجربة الأخيرة ، على الأقل . فذهبت مع الآنسة « فيل » ، وجريم ، والراهب « راينال »

ـــ على ما أظن ـــ فى إحدى العربات الملكية . ولم يكن ثمة باس بالتجربة ، بل أننى كنت أكثر رضى عنها مما توقعت . وكانت الفرقة الموسيقية قوية ، كثيرة النفر ، مؤلفة من موسيقيى « الأوبرا » والفرقة الملكية . وقام « جيليوت » بدور « كولان »، والآنسة « فيل » بدور « كوليت » ، و « كوغيتييه » بدور العراف . وكان المنشدون من « الأوبرا » . ولم أدل بغير ملاحظات قليلة ، فقد تولى « جيليوت » الاخراج ، فلم أشأ أن أفرض سلطانا على ما فعل . وبالرغم من مظهرى الروبانى ، فانني كنت فى حياء التلميذ إذا ألفى نفسه وسط كل هؤلاء القوم !

وفى اليوم التالى ـــ وهو يوم العرض ـــ ذهبت لأتناول الفطور فى مقهى « الجـــران كومون » ، فاذا به زاخر بالناس ، وإذا الحديث يدور حول تجربة الليلة السابقة ، وتعذر الدخول إلى المسرح . وقال ضابط من الحضور ، إنه دخل بلا عناء، وأسهب فى وصف ما حدث داخل المسرح ، كما وصف المؤلف ، وروى ما قاله وما فعله . والذى أذهلنى فى حديثه الطويل ـــ الذى ألقاه فى بساطة واعتداد ـــ انه لم يضم كلمة واحدة من الحقيقة! .. بل لقد تجلى لى تماما ، أن هذا الذى تكلم عن التجربة بلهجة العالم ، لم يكن حاضرا البتة فقد كان هذا المؤلف ـــ الذى قال إنه رآه كما صوره ـــ حاضرا أمام عينيه ، فلم يتعرف عليه ! . . وكان أغرب ما فى هذه الواقعة ، هو الأثر الذى أحدثته فى نفسى . فلقد كان ذلك الرجل كبير السن ، ولم يكن يلوح عليه غرور الخيلاء ، ولا الزهو ، سواء فى مظهره أو لهجته . بل ان

سيماه كانت تنم عن أنه رجل فاضل ، كما كان وسام « صليب سان لوى » ـ على صدره ـ يوحى بأنه ضابط قديم . ولقد ابتأثر باهتمامى بالرغم منى ، وبرغم قحته فى الكذب . وفيما كان يمضى فى أكاذيبه، راح وجهى يتضرج خجلا ، وأخذت أغض بصرى وأتململ فى مجلسى . وكنت أسأل نفسى أحيانا : أليس من الجائز أن يكون قد آمن بكذبه حتى غدا يظنه حقيقة ؟ ! . . وأخيرا ، أسرعت بإفراغ قدح « الشيكولاته » دون أن أنبس ببنت شفة ، وأنا أرتجف خشية أن يتعرف على أحد فيخجله ؛ ومررت بمجلسه وأنا منكس رأسى ، وغادرت المقهى بأسرع ما استطعت ، بينما كان القوم ماضين فى الحديث عما كان يصفه . ونفذت إلى الطريق وأنا أسبح فى العرق . ولو أن أحدا عرفنى وذكر اسمى قبل خروجى ، فانى أوقن بأننى كنت خليقا بأن أبدى من الخجل والارتباك ما يبديه أى مذنب ، لمجرد الشعور بالصغار الذى كان الرجل جدير بأن يشعر به إذا ما افتضحت أكاذيبه !

* * *

وها أنذا أصل إلى تلك اللحظات الحرجة فى حياتى ، فإن من العسير أن أقتصر على مجرد الرواية ، لأنه من المستحيل تقريبا الا تتأثر الرواية بشىء من النقد أو التبرير . على أننى سأحاول أن أروى كيف تصرفت ، وعن أية بواعث صدرت فى تصرفاتى ، دون أن أضيف ما ينم عن إطراء أو عن لوم .

ففى ذلك اليوم المقصود ، بدوت فى نفس الزى المهمل الذى ألفته ، وقد نمت لحيتى ، وبدا شعرى المستعار غير منسق . وبهذا المظهر الذى نبا عن اللياقة ، والذى كنت أعتبره دليلا

على الشجاعة ، دخلت القاعة التى كان من المنتظر أن يفد عليها الملك والملكة والأسرة الملكية والحاشية بأسرها ، بعد قليل . وتقدمت لأحتل مكانى فى المقصورة التى قادنى إليها السيد دى « كورى » .. وكانت هى مقصورته ، مقصورة واسعة .. فى مواجهة مقصورة أخرى ، أصغر منها حجما ، وأكثر ارتفاعا ، جلس فيها الملك والسيدة دى بومبادور . ولم يداخلنى شك فى أننى أجلست كذلك ، لكى ابدو واضحا ، إذ كنت الرجل الوحيد أمام مقصورة الملك ، وقد أحاطت بى السيدات . وعندما أوقدت أضواء المسرح ، وجدتنى ــ فى ملابسى تلك ــ وسط قوم فى أوج الأناقة ، فبدأت أشعر بضيق وحرج . وسألت نفسى عما إذا كنت فى المكان اللائق ، وعما إذا كنت فى الثياب اللائقة . وبعد لحظات من الحرج ، أجبت نفسى عن هذا التساؤل فى جرأة لعلها انبعثت عن استحالة التراجع ، أكثر مما انبعثت عن قوة حججى : « أجل » !.. وقلت لنفسى : « إننى فى المكان اللائق بى ، ما دمت قد جئت لأشهد تمثيل مسرحيتى .. وإذا كنت فى ثيابى المعتادة ، ولست فى أفضل أو أقل مما ألفت ، فما ذلك إلا لأننى دعيت ، ولأننى ألفت هذه الأوبرا لهذا الغرض فحسب ، ولأنه ــ فوق كل شىء ــ ليس هناك من يفوقنى جدارة باستمراء ثمار جهدى ومواهبى ولو أننى عدت إلى الخضوع للرأى العام فى أمر واحد ، فسرعان ما سأصبح عبدا للرأى العام ــ فى كل شىء ــ من جديد . أما إذا شئت أن أثبت على نهجى ، فمن الواجب ألا أخجل ــ أينما أكون ــ من أن ارتدى ما يتلاءم مع ظروف الحياة التى اخترتها لنفسى . ان مظهرى الخارجى بسيط وغير متأنق ، ولكنه ليس قذرا ،

ولا مستهجنا . وكذلك اللحية ــ فى حد ذاتها ــ ما دامت الطبيعة هى التى تخلعها علينا . . بل إنها مظهر من مظاهر الزينة أحيانا ، كما تتم تطورات مستحدثات الأناقة . وقد يرانى الناس مضحكا ، أو سفيها . . حسنا ، وفيم يهمنى هذا ؟ . . يجب أن أتعلم كيف أعرض عن ضحك الناس أو عن نقدهم ، ما دمت لا أستحقهما » !

* * *

« وشعرت بعد هذه المفاجأة القصيرة بالثقة تعاودنى ، إلى درجة كانت كافية لأن تجعلنى جريئا . . وهو ما كنت بحاجة إليه . على أننى لم أر فى الفضول الذى تعرضت له ، سوى مظهر للأدب والحفاوة ، سواء كان مرد ذلك الرأى إلى تأثير وجود العاهل ، أو إلى التصرف الطبيعى الذى أبداه أولئك الذين أحاطت بى قلوبهم . . وشعرت بالتأثر ، حتى أننى بدأت أحس بالقلق ــ من جديد ــ على نفسى وعلى مصير مسرحيتى ، خشية أن أقضى على ما ربما كان لدى القوم من آراء سابقة ــ فى صالحى ــ كان يبدو لى أنه لم يكن ينقصها سوى التصفيق . وكنت قد تذرعت ضد سخريتهم ، ولكن عطفهم ــ الذى لم أكن أتوقعه ــ طغى على كل الطغيان ، حتى أننى رحت أرتجف كالطفل ، عندما ابتدأ التمثيل !

وسرعان ما تبينت أن ليس ثمة مبرر للقلق . . كان أداء

المسرحية جد سيء من ناحية الممثلين ، ولكن الغناء كان جيدا ، والموسيقى حسنة الأداء . ومنذ المشهد الأول ـ الذى كان مؤثرا فى بساطته حقا ـ سمعت فى المقصورات تمتمة اندهاش، واستحسانا لم يسمع من قبل فى مثل هذا النوع من التمثيليات . وما لبث التحمس المطرد أن بلغ ذروته ، حتى أنه تفشى فى جميع النظارة ، وأن ضوعف أثره بفضل هذا الأثر ذاته ، كما ينبغى أن يقال بأسلوب « مونتسكيو » . وقد بلغ هذا الأثر أوجه فى المشهد الذى دار بين الشخصين الصغيرين الساذجين . ومن المعتاد ألا يصفق أحد قط ، فى حضور الملك ، وقد ساعد هذا على سماع كل شيء بوضوح ، مما أفاد التمثيلية والمؤلف . وسمعت حولى همسات نساء كن يلحن لى فى جمال الملائكة ، وهن يقلن بعضهن لبعض : « هذا فاتن .. هذا خلاب ! .. ما من نغم هنا إلا وينبثق من القلب ! » . وهزتنى لذة التأثير على كل هؤلاء القوم الراقين ، حتى انطلقت دموعى، فلم أستطع أن أكبحها فى الأغنية الثنائية الأولى ، إذ لاحظت أننى لم أكن الوحيد الذى بكى !.. ومرت بى لحظة ، رجعت فيها إلى نفسى إذ تذكرت الحفلة الموسيقية التى أقيمت بدار السيد دى « تريتوران » . وأحدثت هذه الذكرى فى نفسى شعورا كشعور العبد الرقيق الذى كان يرفع التاج فوق رؤوس المظفرين (١) .

---

(١) عادة كانت متبعة فى مواكب النصر لدى الرومان .

ولكن هذا الشعور كان قصير الأجل ، إذ اننى سرعان ما استسلمت تماما ـ ودون أى تحفظ ـ لنشوة مذاق مجدى . ومع ذلك فانى أوقن بأن الشهوة الجنسية كانت ـ فى تلك اللحظة ـ أكثر أثرا من غرور المؤلف فى هذه النشوة !.. فمن المؤكد أنه لو لم يكن ثمة غير الرجال حضور ، لما تأججت فى نفسى الرغبة الملحة فى أن أتلقى بشفتى الدموع العذبة التى تسببت فى انسيابها !.. ولقد شهدت تمثيليات أثارت من نوبات الاعجاب ما كان أشد مما رأيت فى هذه الليلة ، ولكنى لم أشهد قط نشوة فى مثل تدفق ، وفى مثل بهاء ، وفى مثل تأثير هذه التى استولت تماما على النظارة ، لا سيما وقد كانت هذه أولى المرات التى تعرض فيها المسرحية ، ولا سيما وأنها كانت تعرض فى البلاط الملكى . ولا بد أن الذين شهدوها إذ ذاك ، لا يزالون يذكرونها ، فقد كان تأثيرها فذا !

وفى الليلة ذاتها ، أوفد إلى السيد الدوق دومون ، من أنبأنى بان أكون موجودا فى القصر ، فى الساعة الحادية عشرة من الصباح التالى ، وبأنه سيقدمنى إلى الملك . وأضاف السيد دى كورى ـ الذى حمل إلى الرسالة ـ أنه من المعتقد أن ثمة اقتراحا بمنحى معاشا ، وأن الملك أراد أن يعلننى بذلك بنفسه! .. فهل مما يصدق أن الليلة ، التى أعقبت يوما بهذا الاشراق ، كانت ليلة هم وحيرة ؟.. كانت أولى أفكارى ، بعد

هذه الخواطر السالفة ، تتمثل فى حاجة ملحة إلى الخروج (١)، كبدتنى فى المساء ذاته عناء كبيرا أثناء التمثيل ، وكان من الممكن أن تعذبنى فى اليوم التالى ، عندما أكون فى بهو الملك أو فى جناحه ، أنتظر بين كل أولئك العظماء مرور الملك ! كان هذا الداء هو السبب الرئيسى الذى حملنى على تجنب الاجتماعات، والذى منعنى من الاطمئنان إلى البقاء فى غرفة مغلقة لدى السيدات . وكان مجرد التفكير فى الموقف الذى قد تقحمنى فيه هذه الضرورة ، كافيا لأن يحرجنى إلى درجة تسلمنى إلى الإغماء ، إن لم يكن إلى فضيحة كنت خليقا بأن أوثر عليها الموت . ولا يدرك الجزع من التعرض لخطر كهذا ، سوى أولئك الذين عرفوا مثل هذه الحال !

ورحت ـ بعد ذلك ـ أتصور نفسى ماثلا أمام الملك ، وأنا أقدم إليه ، فيتنزل ويقف ليحدثنى .. وهنا لا بد من سرعة الخاطر وحضور البديهة للاجابة . أفكان حيائى اللعين ـ الذى اعتاد أن يضايقنى أمام أقل المغمورين ـ ليهجرنى أمام ملك فرنسا ؟.. وهل يدعنى أحسن اختيار ما ينبغى أن يقال ، فى التو ؟.. ووددت لو أستطيع ـ دون أن أتخلى عن المظهر واللهجة القاسيين اللذين اعتدت الظهور بهما ـ أن ابدى

---

(١) يقصد الخروج لقضاء حاجة . ولعلنا نذكر أنه كان يتعرض لنوبات يكثر فيها من التبول !..

إدراكى للشرف المتاح لى من مثل هذا العاهل العظيم ؟.. كان لابد لى من أن ألف بعض الحقائق الجليلةوالنافعة ، فى غلالة من الثناء الجميل البارع !.. ولكى أتمكن من أن أعد ـ مقدما ـ جوابا موفقا ، كان لابد لى من أن أعرف بالدقة ما يمكن أن يقوله لى الملك .. وكنت واثقا ـ بعد ذلك ـ من أننى لن أستطيع أن أستحضر فى وجوده ما أكون قد اعددته !.. فماذا يكون شأنى ، فى هذه اللحظة ، أمام أعين الحاشية كلها ، إذا افلتت منى ، فى غمرة اضطرابى ، بعض سخافاتى العادية ؟.. لقد روعنى هذا الخطر وأزعجنى ، وجعلنى أرتجف وأنا أعقد العزم على ألا اعرض نفسى له ، مهما تكن العواقب ؟

ومن الصحيح أننى فقدت المعاش الذى عرض على بصفة غير رسمية ، ولكنى ـ فى الوقت ذاته ـ نجوت من الجور الذى كان مقدرا أن يفرضه على .. الا وداعا للحقيقة ، وللحرية ، وللشجاعة !.. كيف كنت أجرؤ ـ بعد ذلك ـ على أن اتكلم بحرية ونزاهة ؟.. لم يكن لدى سوى أن اتملق ، أو أن اصمت ، لو أننى قبلت هذا المعاش ، ثم ، منذا الذى كان يضمن دفعه إلى ؟.. وأية خطوات كان على أن أتخذها ، وأى أناس كنت مضطرا إلى أن أداهن ؟ .. كان الاحتفاظ بهذا المعاش خليقا بأن يكبدنى أكثر مما يكبدنى الاستغناء عنه من حرص ، وأكثر من الكثير من المضايقات !.. ومن ثم فقد اقتنعت بأننى

إذ أرفضه إنما أتخذ قرارا ينطبق أشد الانطباق على مبادئى ، وأضحى المظهر فى مقابل الواقع . ولقد أفضيت إلى جريم بعزمى ، فلم يعارضنى . أما بالنسبة للآخرين . فقد تعللت بصحتى ، ورحلت فى نفس الصباح !

* * *

واثار رحيلى ضجة ، وعيب على بوجه عام . فما كانت حججى لتلقى تقديرا لدى الناس جميعا ، وسرعان ما اتهمت بالصلف ، مما أرضى ـــ للتو ـــ غيرة أولئك الذين شعروا بأنهم ما كانوا ليتصرفوا كما تصرفت !.. وفى اليوم التالى ، كتب إلى « جيلوت » خطابا فصل فيه نجاح تمثيليتى ، والشغف الذى أبداه الملك نفسه بها . وقال أن جلالته لم يكف طيلة النهار عن الغناء ، بأنكر صوت فى مملكته ، مرددا : « لقد فقدت خادمى ، لقد أضعت كل هنائى ! » .. وأردف أن « العراف » ستعرض مرة ثانية بعد أسبوعين ، مما سيعزز أمام عيون الجمهور كله النجاح الباهر الذى كلل العرض الأول !

وفيما كنت ألج دار السيدة ديبيناى ـــ فى الساعة التاسعة مساء ، بعد يومين ـــ حيث كنت مزمعا أن أتناول العشاء ،

رأيت مركبة تعترض طريقى إلى الباب . وأشار إلى شخص فى المركبة بأن أصعد إليها ، فصعدت ، وإذا بهـذا الشخص هو « ديدرو » . وحدثنى عن المعاش فى حرارة ما كنت أتوقعها من فيلسوف فى مثل هـذا الموضوع . ولم ير جريمة فى الا اكون راغبا فى أن أقدم إلى الملك ، ولكنه رأى أن عدم اكتراثى للمعاش جريمة منكرة . وقال لى اننى إذا كنت لا أهتم بالمعاش من أجل نفسى ، فليس من حقى ان أكون كذلك من أجل السيدة لوفاسير وابنتها ، فان من واجبى الا احرمهما من أية وسيلة ممكنة وشريفة لتيسير أسباب العيش لهما .. وبما أنه لم يكن من الممكن أن يقال ـ برغم كل شىء ـ اننى رفضت هذا المعاش ، فقد أصر على أن من الجدير بى أن أطلبه ، وأن أحصل عليه بأى ثمن ، ما دامت ثمة نية لمنحى إياه . ومع اننى تأثرت لتحمسه ، إلا اننى لم استطع أن أقر مبادئه ، فدار بيننا جدال محتدم حول الموضوع ، كان أول جدال دار بيننا . ولقد كانت كل خلافاتنا ـ التى أعقبت ذلك ـ من نفس النوع ، إذ كان يملى على ما كان يزعم أن من الجدير بى أن أفعله ، فى حين أننى كنت أرفض فى حزم ، لأننى لم أكن أومن بأنه واجب على !

وكان الوقت متأخرا عندما افترقنا ، فرغبت فى أن أصطحبه للعشاء لدى السيدة ديبيناى ، ولكنه لم يكن راغبا البتة .. فبالرغم من أن الجهود التى كانت الرغبة فى الجمع بين أولئك الذين أحبهم تدفعنى إلى بذلها من وقت إلى آخر ، فاننى لم



رايت مركبة تعترض طريقى الى الباب ، واشار الى شخص فى المركبة بأن اصعد اليها .

أفلح فى إغرائه على زيارتها .. بل إننى ذهبت إلى أبعد من هذا ، إذ صحبت السيدة إلى بابه ، فرفض أن يفتحه لنا !.. كان يعزف دائما عن لقائها ، ولم يكن يتكلم عنهـا قط ، إلا فى ازدراء بالغ .. وما تآلف الاثنان إلا بعد خلاف مع كل منهما ، وإذ ذاك ، بدأ يتكلم عنها باحترام !

ومنذ ذلك الحين ، لاح أن ديدرو وجريم كانا يحـاولان أن يؤلبا « الدادتين » على ، وأن يفهماهما أنهما إذا لم تكونا فى رخاء، فانما كان مرد ذلك إلى سوء نيتى ، وانهما لن تصيبا منى أى خير قط !.. ولقد حاولا أن يحملاهما على هجرى، ووعداهما بأن يحصلا لهما بفضل السيدة ديبيناى على رخصة لبيع الملح، وحانوت لبيع التبغ ، وما لست أدريه كذلك !.. بل انهما رغبا فى أن يستدرجا ديكلو ، كما استدرجا دولباخ ، إلى محالفتهما، ولكن الأول راح يرفض باستمرار . وكانت لدى إذ ذاك بعض ظنون عن هذا التدبير ، ولكننى لم أحط به بجلاء إلا بعد ذلك بزمن طويل . وكثيرا ما أكون على حق إذ أرثى لذلك التحمس الأعمى المتهور من جانب أصدقائى الذين كانوا يسعون إلى الحط من شأنى ــ وأنا معلول ، وفى أشد حالات العزلة الكئيبة ــ ظنا منهم أنهم إنما كانوا يبذلون قصاراهم لإسعادى ، بالوسائل التى كانت خير ما يؤدى إلى إتعاسى ، فى الواقع !

سـنة ١٧٥٣

مثلت مسرحية « العراف » فى باريس ، فى عيد المرافع (الكرنفال) التالى ، أى فى سنة ١٧٥٣ . وكنت قد وجدت وقتا كافيا ــ فى تلك الأثناء ــ لوضع لحن الافتتاح ، والألحان

التى تتخلل المشاهد . وكان لا بد لهذه الالحان ـ كما وضعت وكتبت ـ من أن تشيع حركة فى التمثيلية ، من أولها لآخرها ، وأن تجعل منها فى مجموعها ـ فى رأيى ـ لوحات جد مستحبة. ولكننى حين عرضت الفكرة على « الاوبرا » لم ألق مستمعا واحدا ، فاضطررت إلى أن أنسج سلسلة من الأغانى والرقصات، بالطريقة المعتادة. وكانت النتيجة أن هذه الالحان وإن لم تضر بتأثير المشاهد ، إلا أنها لم تلق سوى نجاح متوسط برغم انها كانت زاخرة بالأفكار البديعة . ولقد حذفت الالحان الالقائية التى وضعها « جيليوت » ، وأحللت محلها ألحانا من وضعى ، هى تلك التى كانت موجودة فى الاصل . فاذا بها قد اكتسبت شيئا من الصبغة الفرنسية ـ ، كما أعترف ـ وأقصد بذلك الطريقة التى كان يلقيها بها الممثلون ـ إلا أنها لم تؤذ سمع أحد ، بل انها كانت ناجحة من الناحية الموسيقية ، كما اعتبرت كذلك ـ من ناحية النظم ـ حتى لدى الجمهور . وأهديت التمثيلية إلى السيد « ديكلو » الذى رعاها ، وأعلنت أن هذا سيظل الاهداء الوحيد . على أننى كتبت إهداء لشخص آخر ـ بموافقة السيد « ديكلو » نفسه ـ ومع ذلك فانه ولابد قد وجد أن هذا الاستثناء قد زاده هو تكريما !

ولدى عن هذه التمثيلية حكايات كثيرة ، ولكن ثمة أمورا أكثر أهمية لا تدع ضرورة ذكرها وقتا أنفقه فى تلك . على أننى قد أعود إليها يوما ، فى « الملحق » . وإن كنت ـ مع ذلك ـ لن أغفل واقعة معينة قد يكون لها أثر فى كل ما أعقب ذلك من أحداث . فلقد اطلعت ذات يوم ، فى مكتب البارون هولباخ :

على موسيقاه . وبعد أن شهدت كثيرا من القطع ، قال لى وهو يرينى مجموعة من الألحان على المعزف : « هاك قطع لحنت من أجلى خصيصا ، وهى مليئة بالذوق ، صالحة للغناء ، وليس هناك من عرف بها أو رآها سواى . فخليق بك أن تختار واحدة منها تدسها فى الألحان التى تتخلل مشاهدك ! » .. ولما كان ذهنى زاخرا بموضوعات لألحان و « سيمفونيات » تفوق ما كان بوسعى أن أفيد منه ، فاننى لم أبد كثير احتفال بألحانه . على أنه راح يلح على بحرارة اضطررت معها إلى أن أنتقى إحدى أغانى الرعاة ، فاختصرتها وحورتها إلى قطعة ثلاثية تليق بالمشهد الذى يلج فيه رفاق « كوليت » (١) المسرح . وحدث بعد بضعة أشهر ـ و « العراف » ما تزال تعرض ـ أن ولجت يوما غرفة « جريم » ، وإذا بنفر من الناس يحيطون بمعزفه ، وإذا به هو ينهض عن المعزف فى تعجل ، بمجرد وصولى . واتجه بصرى ـ بحركة آلية ـ إلى حامل « النوتة » الموسيقية، فرأيت مجموعة البارون دولباخ بالذات مفتوحة عند القطعة التى ألح على فى أن آخذها ، مؤكدا أنها لن تخرج من بديه قط ! وبعد ذلك ببعض الوقت ، رأيت المجموعة ذاتها مفتوحة ، على معزف السيدة دبيناى ، فى يوم دعت فيه بعض الأصدقاء إلى ندوة موسيقية فى دارها . ولم يتحدث جريم أو أى شخص آخر عن هذا اللحن ، وما كنت انا لأقول عنه شيئا ، لو لم يشع بعد قليل ، اننى لم أكن مؤلف « عراف القرية » . ونظرا لأننى لم أكن يوما عازفا ماهرا ، فانى أوقن أنه كان من المحتمل أن

---

(١) بطلة أوبرا « عراف القرية » .

يقال اننى لم أكن أعرف شيئا عن الموسـيقى ، لولا « قاموس الموسيقى » الذى كنت قد وضعته(١) .

* * *

ولقد حـدث قبل إخـراج « عراف القـرية » بفترة من الزمن ، أن وصل إلى باريس بعض الممثلين الهزليين الإيطاليين فدعوا إلى التمثيل فى « الاوبرا » دون أن يخطر ببال ما كان مقدرا أن يترتب على ذلك . وإذ كانوا سيىء التمثيل ، وكانت الفرقة الموسيقية إذ ذاك من الجهل بحيث قضت ـ غير حافلة ـ على لذة القطع التى كانت تعزفها ، فانهم الحقوا بفن الاوبرا الفرنسية ضررا لم يتسن قط إصلاحه . ذلك لأن الفارق بين هذين النوعين من الموسيقى(٢) ، اللذين كانا يسمعان فى الدار ذاتها ، فى يوم واحد ، فتح الآذان الفرنسية ، فلم تعد تطيق بطء الموسيقى التى اعتادتها ، بعد الوضوح والنشاط اللذين امتازت بهما الموسيقى الإيطالية . فما كاد المهرجون الإيطاليون ينتهون من عرضهم ، حتى كان الناس يبادرون إلى الانصراف . فرؤى أن من الضرورى تغيير نظام العرض ، وإرجاء الممثلين الهزليين إلى النهاية . فعرضت « ايجليه » ، و «بيجماليون» و « الجن »(٣) ، ولكن أيا منها لم تستطع أن تستوى على

---

(١) ما كنت لأحدس على الاطلاق ، ان هذا سيقال فيها بعد ، برغم وجود « القاموس » !

(٢) موسيقى الأوبرا الفرنسية ، وموسيقى الأوبرا الايطالية .

(٣) Eglé, Pysmalion, Lesylphe

ساقيها . ولم تصمد لمقارنة سوى « عــراف القــرية » ، إذ قوبلت باستحسان فاق « الوصيفة »(١) الإيطالية ذاتهــا . وكان ذهنى مليئا ــ عندما وضعت المشهد الذى بين فصلى تمثيليتى ــ بألحان تلك المسرحية الايطالية ، فاستعرت بعض أفكار منها . غير أننى كنت أبعد من أن أتوقع أن أنتقد فى هذه الناحية . ولو اننى كنت ممن يسطون على إنتاج الغير ، فكم من سرقات كان يجب أن تتكشف ، وكم كان هناك من المشوقين إلى أن يعنوا بابرازها ! ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، وقــد ضاعت هباء كل المحاولات التى بذلت للعثور فى إنتاجى الموسيقى على أتفه أثر من موسيقى ســواى .. كما أن كل أغانى كانت تبدو ــ إذا ما قورنت بالأغانى الأصــلية التى كان يزعم أننى أخذتها عنها ــ جديدة ، جدة الطابع الموسيقى الذى ابتدعته. ولو أن « موندوفيل » أو « رامو » تعرض لمثل هــذا الفحص والمقارنة لخرج منه مهلهلا !

ولقد اكتسب الممثلون الهزليون للموسيقى الإيطالية مستمعين جد متحمسين ، فاذا باريس بأسرها تنقسم إلى فريقين ، راحا يتجادلان فى عنف وكأنهما بصدد مسألة متعلقة بالدولة أو بالدين. وكان أقواهما نفوذا ، وأكثرهما عددا ، يتألف من العظمــاء ، والأغنياء ، والنساء ، ويتشبث بالموسيقى الفرنسية .. أما الآخر ــ وهو أكثرهما حمية ونشاطا وتحمسا ــ فكان يتألف من

---

(١) Serva Padrona ، وهى احدى التمثيليات التى كانت الفرقة الايطالية تعرضها .

فنانين حقيقيين ، ومن أكفاء ونوابغ . وكانت عصبة تجتمع فى دار « الأوبرا » ، تحت مقصورة الملكة ، بينما كان الفريق الآخر يملأ بقية الصـــالة ، ولكنه كان يتخذ مكان اجتماعه الرئيسى ، تحت مقصورة الملك . ومن هنـــا جـــاء اسما الحزبين الذين اشتهرا فى ذلك الحين : « ركن الملك » ، و « ركن الملـــكة » . وأدى الخلاف ــ إذ احتدم ــ إلى إصدار منشـــورات . فاذا شاء « ركن الملك » أن يهزأ ، سخر منه « النبى الصغير » ، وإذا أقحم نفســـه فى جدال، أفحمته «رسالة فى الموسيقى الفرنسية» .. وكانت هاتان النشرتان هما الوحيدتان اللتان كتب لهمـــا البقاء فى هذه المعركة ، أما النشرات الباقية فقد ماتت .. وكان « جريم » يحرر الأولى ، وأنا أحرر الأخرى !

بيد أن «النبى الصغير» ظلت تنسب إلى طويلا ــ فى إصرار ــ برغم إنكارى ، وكانت تحرر بأسلوب فكه ، ولا تجشم محررها أقل عناء .. فى حين أن « رسالة فى الموسيقى » كانت تميل إلى الجد ، وقد أثارت ضدى الأمة بأسرها ، إذ خيـــل إليها أنها ــ ممثلة فى موسيقاها ــ قد أهينت ! .. وأن وصف الأثر الذى أحدثته هذه النشرة ــ والذى يفوق ما يصدقه العقل ــ لجدير بقلم « تاسيتوس » (١) .. وكانت تلك فترة الصراع الأكبر بين البرلمان ورجـــال الكهنوت .. وكان البرلمـــان قد أوقف عن الاجتماع ، وبلغت فورة السخط ذروتها ، وأخذ كل شىء ينذر

---

(١) كورنيليوس تاسيتوس ، كاتب ومحام ذاع صيته فى التاريخ الرومانى وقد عاش فيما بين سنتى ٥٥ و ١٢٠ بعد الميلاد وله مؤلفات تاريخية عديدة .

بانفجار وشيك !.. وما ان ظهرت النشرة ، حتى انصرفت الخواطر لتوها عن المعارك الأخرى ، ولم يعد ثمة تفكير فى غبر الخطر المحدق بالموسيقى الفرنسية ، ولا عاد ثمة هياج إلا ضدى أنا .. بل انه كان من الشدة بدرجة أن الأمة لم تفق منه أبدا . ففى البلاط ، لم تعد ثمة موازنة إلا بين « الباستيل » والنفى ، وكان من المحتمل التعجيل بأمر القبض على ، لو لم يفلح السيد دى فوييه فى إيضاح ما فى هذا من تصرف أخرق . وقد يظن القارىء أننى أهرف ، حين يقرأ أن من المحتمل أن هذه النشرة حالت دون قيام ثورة فى الدولة . ومع ذلك فان هـــذه الحقيقة واقعة ، لعل باريس بأسرها تشهد بها حتى اليوم ، إذ لم يمض بعد على هذه الواقعة العجيبة خمسة عشر عاما(١) .

* * *

وإذا كانت حريتى لم تصـــادر ، فاننى لم أعف من أدنى الإهانات ، بل أن حياتى أصبحت فى خطر . فأعـــدت فرقـــة موسيقى « الأوبرا » مؤامرة شريفة (!) لاغتيالى أثناء مغادرتى المسرح . وقد نميت إلى ، فلم تزدنى إلا ترددا على «الأوبرا» ، ولم أعرف إلا بعد ذلك بوقت طويل ، أن السيد « انسيلو » ــ الضابط فى فرقة الفرسان ــ الذى كان يكن لى مودة ، قـــد أفسد مفعول هذه المؤامرة ، إذ دبر حمايتى ــ عند مبارحتى الأوبرا ــ دون أن أشعر . وكان أول استغلال لنظام إشراف البلدية على دار الأوبرا ، هو حرمانى من الدخول ، وأن يحدث

---

(١) كتب روسو هذا الجزء حوالى سنة ١٧٦٨

ذلك بأشد الأساليب المهينة .. اى بمنعى علنـا من الدخـول بدون « تذكرة » ، بطريقة اضطرتنى إلى ابتياع « تذكرة » فى الشرفة العليا للدار (١) ، لكى اتفادى عار الرجوع دون دخول، فى ذلك اليوم . وكان الظلم صارخا جدا ، إذ أن الثمن الوحيد الذى تقاضيته عن اوبراى ، عندما نزلت لهم عنها ، هو حق الدخول ــ دون مقابل ــ طيلة العمر . ذلك لأن هذا وإن كان حقا اعتاد أن يحظى به كل المؤلفين ـ ومن ثم فقد كان استحقاقى إياه مضاعفا ـ إلا أننى حرصت على اشتراطه ، بحضور السيد ديكلو . ومن الصحيح أننى تلقيت ــ عن طريق خزانة الاوبرا ــ خمسين « لوى » كمكافاة شرفية لم أطلبها .. وفضلا عن أن هذا المبلغ لم يكن يعادل ما كنت أستحقه وفقا للوائح، فان دفعه لم يكن ذا صلة البتة بحق الدخول دون مقابل ، الذى طالبت به رسميا ، والذى كان أمرا مستقلا تماما عن الموضوع !

ولقد جمع هذا التصرف بين عدم المساواة والفظاظة الجائرة، حتى ان الجمهور ــ الذى كان فى أوج عداوته لى ــ لم يحجم عن إبداء استنكاره جهارا وبالاجماع ، وصاح كثيرون ــ ممن كانوا يسبوننى فى الليلة السالفة ــ بأعلى أصواتهم فى دار « الاوبرا » ، بأن من العار أن يحرم من حق الدخول ــ وبهذا الأسلوب ــ مؤلف يستحقه عن جدارة ، بل وله أن يصحب معه شخصين بالمجان ، وهكذا صدق المثل الإيطالى القائل : « يعرف الصديق فى المحنة » .

Ogn'un ama la giustizia in casa d'altrui

---

(١) أدنى الدرجات فى المسرح .. « أعلى التياترو » .

ولم يكن لدى إزاء هذا سوى قـرار واحد ، هو أن أسترد تمثيليتى ما دمت قد حرمت الجزاء المتفق عليـه . ومن ثم كتبت إلى السيد دارجنسون ، الذى كان يتولى إدارة « الأوبرا » ، وأرفقت رسالتى بمذكرة لم أكن قد تلقيت عنها ردا ، فظلت المذكرة ــ وكذلك الرسالة ــ دون جواب ودون رسالة . ولقد ظل صمت هذا الرجل الظالم راسخا فى فؤادى ، ولم يساعد على تنمية التقدير الضـئيل الذى كنت دائمـا أحسـه نحو شخصيته ونحو مواهبه . وهكذا احتفظت «الأوبرا» بتمثيليتى وسلبتنى الجزاء الذى كنت قد نزلت فى مقابله عن حقوقى فيها . وعندما يحدث هذا العمل من الضعيف نحو القوى ، فانه يعتبر سرقة . . أما إذا حدث من القوى نحو الضعيف فهو ليس سوى انتفاع بما للغير وحسب !

أما الكسب المالى الذى دره هذا العمل الفنى ، فمع أنه لم يرق إلى ربع ما كان يدره على اى مؤلف سواى ، إلا أنه كان ــ بالنسبة إلى ــ من الضخامة بحيث أنه كان كافيا لأن يمكننى من العيش عليه سنوات عدة ، وأن يعوضنى عن عملى فى النسخ ، إذ أن هذا العمل كان كاسدا على الدوام . فلقد نلت مائة «لوى» من الملك ، وخمسين من السـيدة دى بومبادور ــ عن عرض التمثيلية فى (البيل فى) ، حيث قامت هى نفسها بدور كولان ــ وخمسين من « الأوبرا » ، وخمسمائة من « بيســو » مقابل نشرها . . أى أن هذا العمل الثانوى ، الذى لم يكلفنى سوى عمل خمسة أسابيع أو ستة ، در على من النقود ــ برغم سوء حظى وبرغم غبائى ــ ما يعادل مادره على كتابى «اميل» ، الذى

استغرق منى عشرين عاما فى التفكير ، وثلاثة فى التأليف ! ..
على أننى دفعت ثمنا غاليا، فى مقابل الكسب المادى الذى اجدته على هذه التمثيلية .. وقد تمثل هذا الثمن فى المضايقات التى لا نهاية لها ، والتى ترتبت عليها . إذ كانت هذه التمثيلية بذرة الاحقاد الخفية الناشئة عن الغيرة ، والتى لم تتكشف إلا بعد ذلك بوقت طويل ! .. ولم أعد ــ منذ نجاحها ــ أجد من جريم وديدرو ، أو من أى من الأدباء الذين كنت أعرفهم ــ فيما عدا القليــل ــ الحفاوة والصراحة وحســن المعاشرة التى كنت أخالنى قد عثرت عليها لديهم من قبل . وأصبحت لا أكاد أظهر فى دار البارون ، حتى يكف الحديث عن أن يكون عــاما .. ويتجمع القوم فى فرق صغيرة ، ويدور التهامس ، بينما أظــل وحيدا لا أجد من أبادله الحديث .. ولقد تحملت طويلا هــذا الانفضاض عنى، ولما كنت أرى أن السيدة دولباخ ــ التى كانت لطيفة وحفية ــ قد ظلت تكرم وفادتى باستمرار ، فاننى رحت أتقبل جفوة زوجها بقدر ما كانت هذه الجفوة محتملة . ولكنه فى أحد الأيام تحرش بى دون داع ، ودون مبــرر ، وفى غلظة بالغة ، فى حضور ديدرو ، الذى لم ينبس بكلمة .. وفى حضور مارجنسى ، الذى كثيرا ما أعرب لى ــ منذ ذلك الحين ــ عن إعجابه بالهدوء والاعتدال اللذين اتســمت بهما إجاباتى .. وانتهى الأمر إلى أن طردت من منزله بفضل هذه المعاملة المهينة، فخرجت منه وقد عقدت العزم على الا أعود إليه إطــلاقا .
على أن هذا لم يمنعنى من أن أتحدث بأمانة واحترام عنه وعن منزله ، فى حين أنه لم يذكرنى دائما إلا بعبــارات حــاقدة ، جارحة ، فما وصفنى مرة إلا بـ « خادم المدرسة » الصغير ،

دون أن يملك ـــ برغم ذلك ـــ أن يعين إساءة واحدة ، أيا كان نوعها ، بدرت منى نحوه أو نحو اى امرىء كان يهتم بأمره . وهكذا انتهى إلى أن حقق تنبؤاتى وهواجسى ! .. اما أنا ، فاعتقد أن أصدقائى المذكورين كانوا على استعداد لأن يغفروا لى تأليف الكتب ـــ وان تكن كتبا رائعة ـــ لأن هذا المجد لم يكن غريبا عنهم . بيد أنهم لم يكونوا يغتفرون لى أن وضعت أوبرا، ولا أن لقى هذا العمل الأدبى الفنى نجاحا باهرا ، لأن احدا منهم لم يكن فى وضع يمكنه من أن ينهج عين هذا النهج ، ولا أن يطمع فى عين ما نلت من تقدير وتكريم ! .. كان ديكلو وحده هو الذى سما فوق الغيرة ، بل انه بدا اكثر مودة لى ، واصطحبنى إلى دار الآنسة « كينول » ، حيث لقيت رعاية ، وأنسا ، وملاطفة، بقدر ما افتقدت فى دار السيد دولباخ !

* * *

وبينما كانت « العراف » تمثل فى « الأوبرا » كان مؤلفهـــا موضوع مناقشـة فى « الكوميدى فرانسيز » ، ولكنه كان أقل حظا من تمثيليته .. ذلك أننى إذ عجزت ـــ خلال ســبع أو ثمانى سنوات ـــ عن عرض « نارسيس » فى مسرح الإيطاليين (اوزيتاليان) ، بغضت هذا المسرح الذى كان ممثلوه يسيئون أداء المسرحيات الفرنسية . ومن ثم فقد كان حريا بى أن اكون اشد رغبة فى أن تعرض تمثيليتى فى المسرح الفرنسى ـ الكوميدى فرانسيز ـــ منى فى أن تعـــرض لدى الإيطاليين . وافضيت برغبتى إلى « لانو » الممثل الفكاهى ، الذى كنت قـــد تعرفت إليه ، والذى كان معروفا ـــ كذلك ـــ بأنه رجل فاضل ذو نفوذ .

ولقد أعجب بتمثيليتى الفكهة « نارسيس » ، وأخذ على عاتقه أن يعمل على إخراجها دون إعلان اسم مؤلفهـــا . وحصل لى ــ فى الوقت ذاته ــ على ترخيص بالدخـــول ، دون مقـــابل ، سررت به كل السرور ، إذ كنت دواما أوثر المسرح الفرنسى على المسرحين الآخـــرين (الأوبرا ، والإيطالى) . واستقبلت التمثيلية باستحسان ، برغم أنهـــا قدمت دون ذكر المؤلف . . بيد أن لدى ما يحملنى على أن اعتقـــد أن الممثلين ، وكثيرين غيرهم ، لم يكونوا يجهلونه . ولقد قامت الآنستان «جوسان» و « جرانفال » بدورى العاشقين . ومع أن الأداء أسفر عن نقص فى البراعة ، إلا انه ــ بوجه عام ــ لا يمكن أن يوصف بأنه سيء تماما . على أننى دهشت ــ وتأثرت ــ لما تبدى من استغراق الجمهور ، إذ راح يصغى فى صبر وهدوء ، من أول التمثيلية إلى آخرها ، بل وسمح بعرضها مرة ثانية ، دون أن يبدى أية بادرة تنم عن ملل !

أما أنا ، فقد بلغ من ضجرى ــ فى العرض الأول ــ أننى لم أستطيع المكث إلى النهاية . فتركت المسرح وذهبت إلى مقهى (دى بروكوب) ، حيث وجدت « بواسى » وبعض الآخرين، الذين يحتمل أن يكونوا قد ضجروا مثلى . وهنـــاك ، أعلنت فشلى بصوت عال ، معترفا فى شجاعة وتواضع بأننى مؤلف التمثيلية ، ومتحدثا عنها بما كان الجميع يرونه فيها . ولقد لقى هذا الاعتراف العلنى من مؤلف تمثيلية رديئة ساقطة ، إعجابا قويا ، حتى أنه بدا لى أقل ما يكون إيلاما ! . . كذلك وجدت جزاء لعواطفى الصادقة فى الجرأة التى اقدمت بها على

اعترافى . واعتقد أننى ــ فى هذه المناسبة ــ لفيت فى الكلام زهوا يفوق ما كنت خليقــا بأن أجده من حيــاء زائف لو أننى لذت بالصمت ! .. على أننى ــ إذ تبينت أن لا شـك هناك فى أن التمثيلية قد تروق كمادة للمطالعة ، وإن كان التمثيل قــد شوهها ــ عملت على طبعها ، وبدأت فى المقدمة ــ التى كانت من خير ما كتبت ــ أكشف عن مبادئى فى صراحة تفوق قليــلا كل ما فعلت من قبل .

وسرعان ما سنحت لى فرصة الإقدام ــ فى غير ما تحفظ ــ على عرض هذه المبادىء فى مؤلف أدبى عظيم الأهمية . فقــد حدث فى ذلك العام (١٧٥٣) ــ على ما أظن ــ أن اتخذ محفل ديجون من موضوع « منشــأ عدم المساواة بين البشر » مادة لبرنامج مسابقته . وهزنى هذا الموضوع العظيم ، واذهلنى أن جرؤ المحفل على عرضه للمباراة . على انه إذا كان قــد أوتى هذه الشجاعة ، فقد رأيت أن بوسعى أن أوتى الشجاعة على الخوض فيه .. وشرعت فى ذلك .

* * *

ولكى افكر فى هذا الموضوع العظيم ، وأنا مرتاح الخاطر قمت برحلة إلى (سان جيرمين) ، حيث قضيت سـبعة أيام أو ثمانية ، مع تيريز ومضيفتنا ــ التى كانت امـرأة طيبة ــ وإحدى صديقاتها . وانى لأحسب هذه النزهة بين أحب ما تمت به من نزهات فى حياتى .. وكان الجو جميلا ، وقــد اضطلعت هاتان المرأتان الطيبتان بالمطالب والنفقات . وراحت تيريز تتسلى بصحبتهما . أما أنا ، فقد خلوت من الشواغل ، ورحت اشاطرهن

ابتهاجهن فى أويقات الوجبـات ، متخففا من كل هم . وكنت أقضى بقية النهار موغلا فى الغابة ، حيث أخذت أبحث ، وحيث وجدت صورة العصور الأولى ، فرحت أتعقب التاريخ خلالها فى جرأة ، مهونا من شأن أكاذيب البشر التافهة .. وتجاسرت على أن أكشف طبيعتهم ، وأتعقب سير الزمن والأشـياء التى شوهت هذه الطبيعة .. وبالمقارنة بين الإنسان ـ كما صنعه الإنسان ـ والإنسان كما صنعته الطبيعة ، كشفت له ـ فى كماله المزعوم ـ عن المصدر الحقيقى لمصـائبه وشـقائه . وارتفعت روحى ـ وقد انتشت بهذه التأملات السامية ـ إلى مقربة من مقام الربوبية ، فأطلت من هناك على أقرانى من أبناء البشر ، وهم يسيرون عميانا فى طريق الأباطيل والأوهام ، وطريق أخطائهم ، ومحنهم ، وجرائمهم .. ورحت أصيح بصوت واهن ما كانوا ليستطيعون أن يسمعوه : « أيها الحمقى ، الذين لا يكفون عن الشكوى من الطبيعة ، ألا اعلموا أن كل مساوئكم إنما تنبثق منكم ! » .

وكانت نتيجة هذه التأملات : « حديث فى عدم المساواة » ، وهو مقال صادف هوى من نفس ديدرو ، فاق كل ما صادفته كتاباتى الأخرى ، وقد أولانى نصيحة بشـأنه ، كانت أنفع النصائح[1] ، ولكنها لم تجد فى أوربا كلها من القراء من أدركها

---

(١) علق « روسو » على هذا ، بقوله : « لم يكن لدى ـ فى الوقت الذى كتبت فيه هذا ـ اى حدس عن مؤامرة ديدرو وجريم الكبرى ، والا لكنت قـد رأيت بسهولة كيف استغل الاول ثقتى ، لكى يخلع على كتاباتى هذا الاسلوب =

سوى قليلين ، ولم يشأ واحد من هؤلاء أن يتكلم عنها ! ..
وكان المقال قد كتب من اجل المسابقة ، فأرسلته وأنا واثق ــ سلفا ــ بأنه لن يفوز بنجاح ، إذ كنت أعرف عن يقين ان جوائز المحافل لم تخلق للأعمال الأدبية التى من هذا النوع !

وأدت هذه النزهة وهذا الشاغل إلى تحسن مزاجى وصحتى . إذ كنت منذ عدة سنوات معذبا باحتباس البول ، وقد استسلمت نهائيا للأطباء ، فاستنزفوا قواى ــ دون أن يخففوا علتى ــ وهدموا بنيتى . ولكنى عندما عدت من (سان جيرمين) وجدت مزيداً من القوى ، وشعرت بكثير من التحسن . وتبعت هذه البادرة ، فعقدت العزم على أن اشفى أو أن أموت دون معونة الأطباء أو العقاقير . وودعتهم إلى الأبد ، وشرعت اعيش ليومى ، أستريح عندما أعجز عن المشى ، وأسير بمجرد أن أملك القدرة على السير . وكانت الحياة فى باريس ، بين قوم أدعياء محبين للمظاهر ، لا تروق لى .. كان تعصب الأدباء

=

الجاف ، وهذا الجو القاتم اللذين لم يستمرا بعد أن توقف عن لوجيهى.. فالجزء الخاص بالفيلسوف الذى سد أذنيه ــ خلال احدى نقاط الجدل ــ حتى يكتسب صلابة دون انات رجل فى محنة ، من اسلوب ديدرو » وقد أمدنى بكثير غير هذا الجزء ، ويفوقه شدة ، حتى اننى لم أقو على حمل نفسى على استعماله . على أننى عزوت تلك الروح القاتمة الى ما جرى له فى « زنزانة » فانسين .. وأن هذه الروح لتبدو مرة أخــرى ، وبنسبة كبيرة ، فى مؤلفه « كليرفال » . بيد انه لم يخطر ببالى اطلاقا أن أرتاب فى أن هذا كان ينطوى على أدنى نية خبيثة » !

وتحزبهم ، ومنازعاتهم المخزية ، وافتقارهم إلى النقاء الذى يتجلى فى كتبهم ، والمظهر المترفع الذى يخدعون به المجتمع .. كل هذه كانت بغيضة إلى نفسى ! .. وما أقل ما وجدت من رفق وسلامة قلب وصراحة فى الاتصال بالناس ، لا سيما أصدقائى!

.. حتى لقد عافت نفسى هذه الحياة الصاخبة ، وأخذت أتوق ـ فى رغبة صادقة ـ إلى الإقامة فى الريف . ولما لم أجد أى أمل فى أن تمكننى مهنتى من الاستقرار هناك ، رحت أسارع إلى قضاء بضع الساعات ـ التى كنت أستطيع أن أمرغ فيها من العمل ـ هناك . واعتدت ، لعدة أشهر ، أن أخرج للرياضة وحيدا ـ عقب الغداء فى بداية الأمر ـ فى غابة (بولونيا) ، لأدير فى فكرى موضوعات لمؤلفاتى المقبلة . ولم أكن أعود قبل هبوط الليل !

من سنة ١٧٥٤ إلى سنة ١٧٥٦

رأى « جوفكور » ـ الذى كانت علاقاتى به فى أوج توثقها إذ ذاك ـ أن لا بد له من الرحيل إلى (جنيف) بحكم عمله ، فعرض على أن أرافقه فى هذه الرحلة . ووافقت على ذلك . وإذ لم أكن بصحة جيدة أستغنى معها عن عناية «الدادة»(١) ، فقد تقرر أن تكون معنا فى الرحلة ، وأن تتولى أمها حراسة البيت . وأعددنا عدتنا على أن نرحل نحن الثلاثة معا ، فى أول يونيو سنة ١٧٥٤

---

(١) يقصد تيريز .

وجدير بى أن أنظر إلى هذه الرحلة على أنها فترة التجربة الأولى التى صادفتنى خلال سنى عمـــرى الاثنتين والأربعين ـــ إذ ذاك ـــ والتى نبهتنى إلى تلك الفطرة المفعمة بالثقة التى فطرت عليها والتى اعتدت دائما أن أسلم نفسى إليها دون ما تحفظ ولا حرج . وكانت لدينا مركبة متوسطة ، راحت تقطع بنا الرحلة على مسافات جد قصيرة، دون أن تستبدل جواديها. وكنت كثيرا ما أهبط واسير على قدمى . ولم نكد نقطع نصـــف طريقنا ، حتى أبدت تيريز أعظم نفور من ان تبقى وحيدة فى العربة مع « جوفكور » ، فما ان رغبت فى الهبوط ـــ بالرغم من رجائها ـــ حتى هبطت هى الأخرى وسارت . وظللت ألومها وقتا طويلا على هذه النزوة ، بل ورحت أعارضها بشدة ، حتى رأت نفسها مضطرة ـــ فى النهاية ـــ إلى أن تصارحنى بالسبب .. وخيل إلى اننى أحلم .. وهويت من حالق ، عندما سمعت أن صديقى السيد دى جوفكور ، المسن الذى جاوز الســـتين . والمصاب بالنقرس ، والمنهار البنيان ، والذى هدته حياة اللهو والعبث .. صديقى هذا كان يبذل غاية جهده ، مذ بدأنا الرحلة، ليفسد امرأة لم تعد شابة ولا جميلة ، امراة كانت لصديقه .. وكان يسعى إلى ذلك بأحط الوسائل ، وبأدعاها إلى الخجل، حتى لقد قدم إليها كيس نقوده .. وحتى لقد حـــاول أن يثير نزواتها بأن راح يقرأ عليها كتابا فاحشا ، وبأن أخذ يريها الصور الفاضحة التى امتلأ بها الكتاب ! .. ولقد ألقت تيريز بالكتاب الخبيث ـــ مرة ـــ من العربة ، وهى فى غمرة السخط . وقالت ان الرجل فى أول يوم فى الرحلة ، انتهز فرصـــة إيوائى إلى

الفراش قبل العشاء - إذ كنت أعانى صداعا شديدا — واستنفد الوقت كله — وقد كان خلاله وحيدا معها — فى محـاولات وتصرفات أكثر لياقة بالحيوان المهتاج ، أو بالجدى ، منها برجل محترم ، ائتمنته على نفسى وعلى رفيقتى !

يا للمفاجأة ! .. ويا له من ألم فى الفؤاد جديد على ! .. أيقدر لى ، أنا الذى كان يؤمن حتى ذاك الوقت بأن الصداقة لا تنفصل عن كل المشـاعر المستحبة والنبيلة التى تكسبها بهاءها — أن أجد نفسى لأول مرة فى حياتى ، أقرن هذه الصداقة بالازدراء ، وأسحب ثقتى وتقديرى من رجل كنت أحبـه ، وكنت أعتقد أننى محبوب منه ؟ ! .. لقد أخفى التعس مسلكه المعيب عنى ، ولكى أتجنب إحراج تيريز ، ألفيتنى مضطرا إلى أن أخفى عنه استيائى ، وإلى أن أدفن فى قرارة فؤادى مشاعر ما كان له أن يعلم بها إطلاقا ! .. فيا وهم الصداقة الوادع القدسى ، لقد كان جوفكور أول من رفع نقـابك لعينى ، وكم من أيد قاسية قد حالت — منذ ذلك الحين — دون هبوط هذا النقاب على وجهك ثانية !

وتركت جوفكور فى (ليون) ، لاتخذ طريقى خـلال إقليم (سافوا) ، إذ لم أقو على أن أمر — من جديد — على مقربة من « ماما » دون أن أراها . ولقد رأيتها .. ولكن ، يا الهى! .. فى أيـة حـال ؟ بل فى أى هوان ؟ ! .. ما الذى تبقى لها من صفاتها الأولى ؟ .. أفهذه هى السيدة دى فاران بعينها ، التى كانت متألقة ، والتى أوفدنى إليها أسقف بونفير ؟ .. لشـد ما حزن قلبى ! .. ولم أر لها من مخرج سوى أن تترك إقليمها . ورحت الحف عليها فى حرارة ، ودون جدوى ، مرددا ما الححت

عليها به عدة مرات فى خطاباتى ، ضارعا إليها أن تأتى فتعيش معى فى سكينة ، وتسمح لى بأن أكرس أيامى وأيام تيريز من أجل أن نحيل أيامها سعيدة . ولكنها أبت أن تصغى إلى متشبثة بمعاشها الذى لم تسحب منه شيئا ، منذ أمد طويل ، برغم أنه كان يدفع بانتظام . ووهبتها ـ مرة أخرى ـ قسطا طفيفا من نقودى ، يقل عما كان ينبغى أن أعطيها ، وأقل مما كان يجب أن أقدم لو لم أكن موقنا تمام اليقين من أنها لن تفيد منه بـ « سو » واحد !

ولقد قامت ـ أثناء مكثى بجنيف ـ برحلة فى (شابليه) ، فجاءت لزيارتى فى (جرانج كانال) . وكان يعوزها المال كى تواصل الرحلة ، ولم أكن أحمل معى ما كان لازما لها ، فأرسلته إليها بعد ساعة ، بوساطة تيريز . يا للمسكينة « ماما » ! .. فلأذكر دليلا واحدا جديدا ، على طيبة قلبها : ذلك أنه لم يكن قد تبقى لها من حليها ، سوى خاتم صغير ، فخلعته عن أصبعها لتضعه حول أصبع تيريز ، التى نقلته فى التو إلى أصبع « ماما » من جديد ، وهى تقبل تلك اليد النبيلة وترويها بدموعها ! .. آه ! كانت تلك هى اللحظة المواتية لكى أسدد دينى ! .. كان خليقا بى أن أهجر الكل لأتبعها ، وأن ألازمها حتى ساعتها الأخيرة ، وأن أقاسمها حظها ، مهما يكن ! .. ولكنى لم أفعل شيئا من هذا القبيل ، فقد شعرت ـ وقد شغلت عنها بغيرها ـ أن الرابطة التى كانت تشد كلا منا إلى الآخر قد تفككت ، إذ

كان ينقصها الرجاء فى أن أستطيع ان أحيل علاقتى بماما إلى شىء نافع لها !.. ولقد بكيت حسرة عليها، ولكننى لم أتبعها.. وليس بين بواعث تأنيب الضمير التى صادفتنى فى حياتى، ما هو أشد ولا أبقى من هذا الباعث ! .. وانى لأستحق ألوان العقاب الفظيعة التى لم تكف عن تعذيبى منذ ذلك الحين .. فليتها تكفر عن جحودى !.. الجحود الذى تبدى فى مسلكى فعلا ، ولكنه مزق قلبى فى عنف ما كان ليحدث لو أن هذا القلب كان قلبا جاحدا يوما !

* * *

كنت قبل رحيلى من باريس قد شرعت فى صوغ إهداء « حديث فى عدم المساواة » ، وقد فرغت منها فى (شامبيرى) ، وسجلت تاريخ ذلك اليوم مقرونا باسم المكان ، إذ رأيت أن من الأفضل ألا أقرن التاريخ باسم باريس أو جنيف ، كى أتفادى كل المضايقات . وإذ وصلت إلى (جنيف) ، أسلمت نفسى لتحمسى وهيامى بالنظام الجمهورى .. هذا التحمس المستهام الذى قادنى إلى هناك، والذى ازداد بالاستقبال الذى حظيت به. وفى غمرة المآدب والمجاملات التى أحاطتنى بها كل الأوساط ، استسلمت بكل كيانى إلى الغيرة الوطنية ، وقد أخجلنى أن أحرم من حقوقى كمواطن بسبب اعتناقى دينا يخالف دين آبائى(١) ، فقررت أن أعود إلى هذا الأخير علانية . ورأيت أن الأنجيل

---

(١) كان « روسو » قد تحول عن الكاثوليكية الى البروتستانتية فى صباه.

واحـــد لجميع المســيحيين ، وأن لب العقيــدة ما اختلف إلا باختلاف أولئك الذين اقحموا أنفسهم فى تفســير ما كانوا عاجزين عن فهمه . ولقد كان من حق الحاكم الفرد ـــ فى كل بلد ـــ أن يعين أسلوب العبادة ، وأن يبت فى مسألة العقيدة المعقدة .. ومن ثم فان واجب الرعية أن يقروا العقيدة وأن يمارسوا أسلوب العبادة اللذين نص عليهما القانون . وكان طول اختلاطى بأهل البحث والدراسة أبعد من أن يزعزع إيمانى، بل أنه عززه، لا سيما وأننى كنت أنفر من المنازعات والتعصب. ولقد أدت دراسة الإنسان والكون ـــ فى كل مكان ـــ إلى إطلاعى على القضايا الرئيسية والعقلية التى توجهها . ولقد علمتنى قراءة التوراة ـــ لا ســيما الانجيل الذى انصرفت إليه عــدة سنوات ـــ كيف ازدرى التفسيرات الجوفاء الحمقاء ، التى خلعها على تعاليم عيسى المسيح اناس ليسوا أهلا لإدراكها على الإطلاق ! .. ومجمل القول أن الفلسفة إذ قربتنى من جوهر الدين ، صرفتنى عن هذا الركام من قواعد الإيمان الزائفة التى حجبت عن الناس هذا الجوهر !

وكما كنت أومن بأن صاحب العقل المدرك ليس بحاجة إلى طريقتين يختار بينهما فى الوصول إلى المسيحية ، فاننى كنت أومن كذلك بأن كل ما هو قاعدة ونظام ـــ فى كل دولة ـــ إنما يدخل فى نطاق التشريع والقانون . ومن هذا المبدأ المعقول ، الاجتماعى ، السلمى ـــ الذى جر على ما جر من اضطهادات قاسية ـــ انسابت هذه النتيجة : إذا شئت أن أصبح مواطنا ،

فإن من واجبى أن أكون بروتستانتيا ، وأن أعود إلى دين وطنى . وعقـدت عزمى على ذلك ، بل أننى استشرت فى ذلك راعى الأبرشيه التى كنت أقيم فيها ، والتى كانت خارج المدينة . . ولم أكن أرجو سوى الا اضطر إلى أن أمثل أمام مجمع الكرادلة . ومع أن المراسم الكنسية كانت حاسمة فى هذا الصدد ، إلا أنه رؤى التجاوز عنها إكراما لى ، فعينت لجنة من خمسة أو ستة أعضاء ، لتتلقى إقرارى بعقيدتى ، فى جلسة خاصة . ولسوء الطالع ، شاء القس « بردريو » ـــ وكان شخصا لطيفا ، لينا، ربطتنى به روابط من الود ـــ أن يلح على بأن من دواعى الغبطة أن ألقى كلمة فى هذا الاجتماع الصغير . وأزعجنى توقع هـــذه الكلمة ، إلى درجة أننى ـــ بعد دراسة شغلت بها ليل نهـــار لثلاثة أسابيع ـــ أعددت خطابا قصيرا . . وارتبكت عندما حانت لحظة إلقائه، حتى أننى عجزت عن أن أنطق بكلمة واحدة منه . . وتصرفت كأغبى تلاميذ المدارس ! . . وتولى أعضاء اللجنة عنى الحديث ، ورحت أجيب فى عى بـ « لا » و « نعم » ، ثم قبلت فى الطائفة ، وردت إلى حقوقى كمواطن . . وكذلك أدرج اسمى فى قائمة « الحرس الوطنى » الذى كان يتقاضى موارده من أبناء المدينة والطبقة المتوسطة فحسب(١) ، ودعيت إلى اجتماع غير عادى للمجلس العام، لتلقى اليمين من «السنديك» موسار(٢) . ولقد تأثرت للعواطف الطيبـــة التى أبداها لى المجلس ومجمع

---

(١) ذكر « روسو » أنه كان يقيم خارج المدينة ، فكان ضمه الى الحرس نوعاً من التكريم له .

(٢) « السنديك » هنا لقب كان يطلق على رئيس الهيئة .

الكرادلة ــ فى هذه المناسبة ــ وللاجراءات الكريمة الحفية التى صدرت من جميع المستشارين والقساوسة والمواطنين ، حتى اننى ــ بدافع من الرجاوات الملحة من ديلوك الطبيب ، ومن ميلى الصادق بوجه خاص ــ لم أعد أفكر فى العودة إلى باريس إلا لكى اتخلص من مسكنى ، وأسوى أعمالى البسيطة ، وأجد عملا للسيدة لوفاسير وزوجها ــ يقيهما العوز ــ ثم أعود مع تيريز فنستقر فى (جنيف) بقية أيامى .

وإذ استقر رأيى على هذا القرار ، أرجأت كل الشواغل الهامة ، لكى أهنأ بأصدقائى إلى أن يحين وقت الرحيل إلى باريس . وكانت أكثر ألوان التسلية إرضاء لى ، هى الطواف حول البحيرة فى قارب مع ديلوك الأب، وزوجة ابنه ، وتيريزى وقضينا سبعة أيام فى هذه الجولة ، فى أبدع طقس عرفته . وقد احتفظت بالذكريات الحارة للمواقع التى أطربتنى ــ عند الطرف الأقصى للبحيرة ــ واوردت بعض أوصافها فى « هيلويز الجديدة » عندما كتبتها بعد سنوات !

وكانت الصلات الرئيسية التى عقدتها فى جنيف ــ عدا صلتى بديلوك الذى تحدثت عنه ــ هى صداقتى للقس فيرن ، الذى كنت قد عرفته فى باريس من قبل ، والذى كانت لدى عنه فكرة طيبة تفوق ما تبدى منه فيما بعد .. وصداقتى للسيد بردريو ، الذى كان ــ فى ذلك الحين ــ راعى أبرشيه ريفية، واصبح اليوم أستاذا للأدب ، والذى سأظل دائما أتحسر على صحبته المفعمة باللطف والدعة ، وإن كان هو قد رأى أن فصم هذه المعرفة ، كان عملا سليما .. وهناك السيد « جالابير » ،

الذى كان أستاذا لعلم الطبيعة — إذ ذاك — ثم أصبح مستشارا و « سنديك » ، وقد قرأت عليه رسالتى عن عدم المساواة — بعد أن تجاوزت عن المقدمة والاهداء — فبدا عليه أنه طرب لها .. والأستاذ « لولان » ، الذى ظللت على تراسل معه حتى وفاته ، والذى ذهب فى ثقته بى إلى درجة أن عهد إلى بأن أبتاع بعض الكتب للمكتبة العامة .. والأستاذ « فيرنيه » ، الذى أدار لى ظهره — ككل الناس — بعد أن أريته الأدلة على ود وصداقة كانا خليقين بأن يمسا قلبه ، إذا كان لقلب رجل من رجال الدين أن يتأثر بشىء ! .. وشابوى ، الكاتب الذى خلف جوفكور فى العمل ، والذى رغب فى أن يخلفه فى الصداقة ، وسرعان ما خلفه فعلا .. وميرسيه دى ميزيير ، وقد كان صديقا قديما لأبى ، كما أثبت أنه كذلك بالنسبة لى ، ولكنه — بعد أن كان قد استحق تقدير وطنه من قبل ، ثم أصبح مؤلفا مسرحيا ومرشحا لمجلس المائتين — تحول عن آرائه ، وعرض نفسه للسخرية حتى وافته منيته .. على أن التعارف الذى وضعت فيه أكبر أملى ، هو تعارفى مع « مولتو » .. وكان شابا توحى مواهبه وذكاؤه المتأجج بمستقبل عظيم له . وقد اعتدت دائما أن أشعر بعطف عليه ، برغم أن مسلكه نحوى كثيرا ما يثير الريب ، وبرغم أنه كان على علاقات ودية بألد أعدائى .. على أننى — برغم كل هذا — لا أستطيع أن أصد نفسى عن التطلع إليه كشخص يرجى أن يكون يوما هو الذائد عن مذكراتى ، والمنتقم لى ، بوصفى صديقه !

❋ ❋ ❋

وفى غمرة هذه المتع والمرفهات ، لم أفقد ميلى إلى النزهات التى كنت أنطلق فيها وحيدا على قدمى ، فلم أكف عن ممارستها .. وكم من نزهات طويلة تمشيت خلالها على ضفاف البحيرة، لم يكن يمكث خلالها فى رأسى ـــ الذى اعتاد العمل ـــ شىء من الهواجس . وكنت أقلب فى ذهنى أثناءها المشروع الذى كنت قد رسمته من قبل ، لكتابى : « المذاهب السياسية » ، الذى لن ألبث أن أتحدث عنه .. كذلك كنت أفكر فى كتابة « تاريخ فاليه »(١) .. ومأساة شعرية لم يجردنى موضوعها ـــ الذى لم يكن سوى حياة « لو كريس»(٢) ـــ من الأمل فى خنق الضحكات ، وإن كنت قد جرؤت على أن أقدم هذه المرأة التعسة على المسرح مرة أخرى ، فى وقت لم يكن من المحتمل فيه أن تعود حياتها إلى المسرح الفرنسى . كذلك حاولت أن أعالج موضوع « تاسيتوس »(٣) ، وترجمت الكتاب الأول من « التواريخ » .. ولسوف توجد هذه الترجمة بين أوراقى .

---

(١) اقليم « الفالية » فى الأراضى السويسرية ، فى الوادى الأعلى لنهر الرون .

(٢) امرأة رومانية ، قتلت نفسها يأسا وكمدا عندما اغتصبها ابن حاكم روما المستبد ، فأدت مأساتها الى قيام النظام الجمهورى فى روما سنة ٥١٠ قبل الميلاد .

(٣) تاسيتوس كاتب رومانى أوردنا سيرته فى صفحة ١٧٥ من هذا الجزء و « التواريخ » من أشهر مؤلفاته .



وفي غمرة هذه المتع والرفهات لم افقد ميلى الى النزهات التى كنت انطلق فيها وحيدا على قدمى .

وبعد أربعة أشهر من الإقامة فى (جنيف) ، عـدت إلى (باريس) فى شهر أكتوبر ، متحاشيا المرور بليون حتى لا ألتقى فى طريقى بجوفكور . ولما كنت قد قررت — فى تدبيراتى — ألا أعود إلى (جنيف) إلا فى الربيع التالى ، فقد عاودت فى الشتاء عاداتى وأعمالى ، التى كان أهمها مراجعة النسخ التجريبية (البروفات) لرسالتى « حديث فى عدم المساواة » ، التى كانت تطبع فى (هولندا) ، لدى المكتبى « ريى » الذى كنت قد تعرفت إليه فى جنيف . ذلك لأنه لما كان إهداء هذا الكتاب معقودا للنظام الجمهورى ، وكان مثل هذا الاهداء لا يروق للمجلس[١] ، فقد انتظرت حتى أرى وقعه فى جنيف قبـل أن أعود إليها . ولم يكن هذا الوقع فى صالحى ، بل إن ذاك الاهداء — الذى لم توحِ به سوى أنقى العواطف الوطنية — خلق لى فى المجلس أعداء كما جلب على غيرة بعض المواطنين . فقد كتب لى السـ « شويه » — « السنديك » الأكبر ، فى ذلك الحين — رسالة مهذبة ولكنها فاترة ، ستوجد فى أوراقى ، فى الملف « ا » ، رقم (٣) . وتلقيت من بعض الخاصة — وبينهم ديلوك وجالا بير — تهانى قليلة ، كانت هى غاية ما جوزيت به ، فلم أجد واحدا من أبناء (جنيف) يشكر لى صادقا تلك الحمية المنبعثة من القلب، والتى تبدو ملموسة فى الكتاب . ولقد صدم هذا الفتور كل من لاحظوه . وأذكر أننى كنت أتناول الغداء — ذات يوم — فى دار السيدة دوبان ، فى (كليشى)، بصحبة كروميلان — وزير الجمهورية[٢] — والسيد دى « ميران » ، فقال هذا فى صراحة

---

(١) مجلس المائتين ، الذى كان بمثابة الهيئة النيابية لجمهورية جنيف .

(٢) الوزير المفوض لجمهورية جنيف فى باريس .

مسموعة ، ان المجلس كان مدينا لى بمكافأة وبتكريم عام ، من اجل هذا الكتاب ، وأنه إنما يخزى نفسه إذا قصر فى هذا . ولم يجرؤ كروملان ــ الذى كان ضئيل الجسم ، أسود القلب ، دنىء المكر ــ أن يرد على ذلك فى حضورى ، ولكنه لوى ضبه فى حركة بشعة أضحكت السيدة دوبان !.. وكانت الفائدة الوحيدة التى عادت على من هذا المؤلف ــ إلى جانب أننى أرضيت به فؤادى ــ هى لقب « المواطن » الذى خلعه على أصدقائى ، ثم حذا الجمهور حذوهم ، وما لبثت أن فقدته عقب ذلك ، لفرط استحقاقى إياه ! على أن هذا النجاح الخابى ما كان ليحولنى عن تحقيق أوبتى إلى (جنيف) ، لو لم تتغلب على ذلك بواعث كانت ذات نفوذ قوى على فؤادى . فان السيد ديبيناى كان راغبا فى أن يضيف إلى قصر « لا شيفريت » جناحا كان ينقصه ، فأنفق فى سبيل إنجاز ذلك ، مبالغ جسيمة . وفيما كنت ذاهبا ــ ذات يوم ــ مع السيدة ديبيناى ، لمشاهدة عملية البناء مضينا فى سيرنا إلى ما بعد الموقع بحوالى ربع فرسخ ، أى إلى مقربة من خزان مياه المتنزهات الملحقة بالقصر ، فى متاخمة غابة (مونمورنسى) ، حيث كان ثمة مبنى صغير رشيق ، أقيم ليكون مطبخا خلويا ، وقد الحق به كوخ صغير مهدم ، يدعى « ليرميتاج »(١) .

وكان هذا الموقع المنعزل ، الملائم بى ، قد ملك على حواسى عندما رأيته للمرة الأولى ، قبل رحلتى إلى جنيف . وفى إعجابى به ، انبعثت منى هذه الكلمات : « آه ! .. يا له من مقام بهيج يا سيدتى ! .. ها هوذا ملاذ كأنما خلق لى ! » .. ولم تكترث

---

(١) L'Ermitage ، أى صومعة الناسك .

السيدة ديبيناى لقولى كثيرا ، فى ذلك الحين . ولكننى ـ فى زيارتى الثانية ـ دهشت عندما وجدت فى مكان الطلل القديم، منزلا صغيرا ، يكاد يكون جديدا بأكمله ، وقد قسم تقسيما بديعا ، وأصبح جد مهيأ ليكون مقاما لأسرة تضم ثلاثة أفراد ! .. ذلك أن السيدة ديبيناى عملت على إنشاء هذا المبنى فى صمت ، وبنفقات جد ضئيلة ، مستخدمة فى ذلك بعض العمال الذين كانوا يشتغلون فى القصر ، وبعض المواد التى كانت متوفرة هناك !

وعندما رأت دهشتى ، قالت : « ها هوذا ملجؤك يادبى . فقد اخترته بنفسك ، وقد أنالتك إياه الصداقة ، عسى أن يضع خاتمة لتفكيرك الجائر فى البعد عنى ! » . وما أعتقد أننى شعرت يوما بتأثر أشد ولا أعذب مما شعرت به إذ ذاك !.. وغسلت بدموعى يد صديقتى الكريمة . وإذا لم أكن قد تخليت تماما عن عزمى فى تلك اللحظة ، فان هذا العزم قد تصدع على الأقل ! .. وأصبحت السيدة ديبيناى ـ التى أبت أن تنهزم أما رغبتى فى الاستقرار فى جنيف ـ شديدة الالحاح ، واستعانت بكثير من الوسائل المتباينة ، وبكثير من الأشخاص ، لكى تتغلب على .. بل انها ذهبت فى ذلك إلى حد أن عينت السيدة لوفاسير وابنتها فى خدمتها .. وبهذا انتصرت فى النهاية على إصرارى. وإذ تنحيت عن فكرة الاستقرار فى وطنى ، قررت ، ووعدت بأن أقيم فى (ليرميتاج) . وبينما كان المبنى بجف[1] ، تكفلت

(١) كانت العادة ـ فى ذلك العهد ـ أن يترك المبنى خاليا عقب الفراغ من بنائه ، ريثما يجف اللبن والملاط المستخدمان فى انشائه .

السيدة دييناى بأمر الأثاث . ومن ثم فان المكان كان معــدا تماما للسكنى فى الربيع التالى .

***

وكان من الأشياء التى ساعدت كثيرا على أن أبت فى الأمر، استقرار المقام بفولتير ، على مقربة من جنيف . فقد أدركت أن هذا الرجل كان موشكا أن يحدث انقلابا هناك ، واننى خليق بأن أجد فى وطنى عين النقائص ، والمظاهر ، والأخلاق التى كانت تنفرنى من باريس ، ومن ثم فلا بد من النضال دون انقطاع، ولن يبقى لى من خيار فى مسلكى سوى أن أكون أحد اثنين : إما متحذلقا متغطرسا لا يطاق ، أو مواطنا رديئا جبانا !.. ولقد أدى الخطاب الذى كتبه لى « فولتير » عن كتابى الأخير ، إلى أن أشير إلى هواجسى فى ردى ، فكان الأثر الذى أحدثته إشارتى معززا لرأيى . ومنــذ ذلك الحين ، اعتبرت جنيف فى حكم الضائعة ، ولم أكن مخطئا فى حدسى . ولعله كان من الخليق بى أن أتحدى العاصفة ، لو أننى شعرت بمقدرة على ذلك ، ولكن .. ما الذى كنت أملك أن أفعله ــ وأنا وحيد ، خجول ، عيى ـ ضد رجل متكبر ، غنى ، يستند إلى مؤازرة الكبار ، ويجيــد الكلام البراق ، وقد صار معبود النساء والشباب ؟ .. لقــد خشيت أن أعرض شجاعتى للخطر ، دون جدوى ، فلم أنصت إلا إلى فطرتى المسالمة ، وإلى حبى للطمأنينة والخمول .. فهو إذا كان قد خدعنى إذ ذاك ، فإنه لا يزال يخدعنى اليوم ، فى هذا المضمار عينه ! .. ولو أننى آثرت المقــام فى جنيف ، لجنبت نفسى كثيرا من المحن والتعاسات ، ولكنى ــ بكل ما أوتيت من حمية ومن غيرة وطنية ــ اشك فى أننى كنت مستطيعا أن أقوم بعمل عظيم ، أو نافع ، لبلادى .

وكان ترونشان قد استقر فى جنيف حوالى ذلك الوقت ، فما لبث أن جاء إلى باريس بعد قليل ، ليقوم بدور الدجال(١)، وليتسلل ببعض كنوزها . وما ان وصل ، حتى قام بزيارة الشيفالييه جوكور .. وكانت السيدة ديبيناى تواقة إلى أن تستشيره شخصيا ، ولكن الوصول إليه ــ خلال صفوف الجماهير ــ لم يكن ميسورا . وهرعت إلى ، فأقنعت ترونشان بأن يذهب لزيارتها ، وإذا بهما يعقدان روابط صداقة عززاها ــ فيما بعد ــ على حسابى أنا ! .. هكذا كان نصيبى دائما ، فما جمعت بين صديقين ــ كنت أعرف كلا منهما على حدة ــ إلا واتحدا ، دون توان ، ضدى . ومع أنهم فى المؤامرة ــ التى دخلها آل ترونشان من ذلك الحين ، لكى ينحطا ببلادهما إلى درك العبودية ــ كانوا يشعرون بمقت نحوى ، إلا أن الطبيب ظل طويلا يبدى لى آيات حسن النية . بل انه ذهب إلى درجة أن كتب لى ، بعد عودته إلى جنيف ، عارضا علم منصبا فخريا يضعنى على رأس المكتبة العامة هناك . ولك رأيى كان قد استقر ، فلم يزعزع هذا العرض عزمى .

وعدت ــ فى هذه الفترة ــ أتردد على دار السيد دولباخ .. وكانت مناسبة ذلك ان الموت عدا على زوجته ــ كما عدا على السيدة فرانكويى ــ ابان إقامتى فى جنيف . وقد حدثنى ديدرو ــ إذ أشار إلى ذلك فى خطاباته ــ عن الحزن العميق الذى نزل بالزوج ، فحرك الأسى فؤادى ، وتحسرت

---

(١) تيودور ترونشان الطبيب السويسرى ، الذى ولد فى جنيف سنة ١٧٠٩ ، ومات سنة ١٧٨١ .

ـ فى نفسى ـ على هذه المرأة الطيبة، وكتبت إلى السيد دولباخ. إذ أن هذا الحادث المحزن جعلنى انسى كل أخطائه ، وما إن عدت من جنيف ، وكان هو الآخر قد عاد من جولة قام بها فى فرنسا ليسرى عنه الأسى ، حتى ذهبت لزيارته مع جـريم وأصدقاء آخرين ، وواصلت زيارته ــ بعد ذلك ــ إلى أن رحلت إلى (ليرميتاج) . وعندما شاع فى الوسط المحيط به ، أن السيدة دبيناى ــ التى لم يكن قد تعرف إليها بعد ــ كانت تعـد لى مسكنا ، انهالت على السخريات كالمطر ، وقيل إننى عاجز عن أن أعيش بدون تملق وإطراء المدينة ، وبدون متعها وملاهيها، وأننى لن أطيق البقاء فى عزلة ، ولو لخمسة عشر يوما !.. ولما كنت أدرك حقيقة مشاعرى ، فقد تركتهم يقولون ما حلا لهم ، ومضيت فى طريقى . ومع ذلك ، فإن دولباخ ساعدنى على أن أعثر على مأوى للشيخ الطيب (لوفاسير)(١) ، الذى كان قـد تجاوز الثمانين من عمره ، والذى كانت زوجته تشعر بأنه عبء ثقيل يبهظها ، فكانت لا تكف عن أن ترجونى ان أريحها منه!.. وقد وضع فى ملجأ للفقراء ، حيث عجل كبر سنه وحزنه لبعده

---

(١) عقب « روسو » على هذا بقوله : « هذه احدى الحيل التى تخدعنى بها ذاكرتى . فقد علمت لتوى ــ وبعد كتابة هذا بأمد طويل ــ خلال حديث مع زوجتى عن أبيها الطيب ، ان الذى ساعد على انزاله بالملجأ ، لم يكن السيد دولباخ ، وانما كان السيد دى شينونسو ، الذى كان اذ ذاك من أعضاء لجنة « فندق الله » . وقد نسيته تماما ، وذكرت السيد دولباخ فى مكانه ، الى درجة أننى كنت على استعداد لأن أقسم أنه الذى قام بالخدمة » .. والفندق الذى يعنيه « روسو » هنا ، من أقدم ملاجىء باريس .

عن أسرته ، بإرساله إلى القبر ، بمجرد أن حل بالمكان تقريبا ! .. ولم تأس زوجته وأطفاله عليه كثيرا ، ولكن تيريز ــ التى كانت مشغوفة بحبه ــ لم تجد قط عزاء لمصابها فيه ، ولم تصفح عن نفسها قط إذ تركته ــ وهو على شفا نهاية أجله ــ يقضى أيامه الأخيرة بعيدا عنها !

* * *

وتلقيت فى هذه الفترة تقريبا ، زيارة لم أكن أرتقبها قط ، وإن كان صاحبها من أقدم المعارف . وأعنى به صديقى « فينتور » ، الذى فاجأنى ذات صباح لطيف ، عندما كان آخر شخص يخطر ببالى . وكان معه زميل .. وكم لاح لى أنه تغير ! .. فبدلا من أخلاقه الكريمة السالفة ، لم أجد فيه سوى مظهر مفسود منحل ، منعنى من أن أكاشفه بدخيلتى .. أو لعل عينى لم تعودا كما عهدتهما ، أو أن الافراط فى العبث قد أطفأ ذكاءه ، أو أن كل تألقه السابق كان يعتمد على إشراقة الصبا ، التى لم يعد محتفظا بها ! .. ولقد عاملته فى غير اكتراث تقريبا ، وافترقنا فى فتور . ولكنه لم يكد ينصرف ، حتى أهاجت ذكرى الفتنا القديمة .. ذكريات صباى ، تلك الذكريات التى كانت فى رونقها ، وفى بهائها ، وفى كمالها ، مقصورة على هذه المرأة الملائكية التى لم تكن ــ اليوم ــ أقل تغيرا منه .. وطرائف وأقاصيص تلك الأوقات الهانئة .. وذلك اليوم الشاعرى الذى قضيته فى (تون) ، فى براءة وطرب بين تلكما الفتاتين الفاتنتين اللتين كان كل ما أنعمتا به على ، مجرد قبلة على اليد ، ولكنها خلفت ــ مع ذلك ــ حسرة ناعمة دائمة !..

وإذا كل النشوات البهيجة التى أسكرت قلبى الشاب ، والتى شعرت بها إذ ذاك فى أقوى صورها ، والتى كنت أظنها قد ولت إلى الأبد . . كل هذه الذكريات العاطفية الناعمة ، جعلتنى أبكى شبابى الذى أدبر بمباهجه ، والذى ضاع على ! . . آه ! كم كنت جديرا بأن أبكى عودة هذه الذكريات ــ العودة المتأخرة ، الحزينة ــ لو أننى تنبأت بالأسى التى كان مرتقبا أن تكبدنيه !

وقبل أن أغادر باريس ، وفى أثناء الشتاء الذى سبق اعتكافى، حظيت بمتعة صادفت هوى من قلبى ، وأقبلت على تذوقها بكل نقائها. ذلك أن «باليسو» ــ وكان عضوا فى محفل نانسى، أذاعت صيته بضع تمثيليات وضعها ــ كان قد ظفر بعرض إحدى هذه التمثيليات فى (لونيفيل) . على مشهد من ملك بولندا . وكان من الجلى أنه أراد أن ينشد الحظوة ، إذ دس فى تمثيليته شخصية رجل جرؤ على أن يناجز الملك بقلمه . ولكن « ستانيسلاس » كان رجلا كريما ، لا يميل إلى الهجو ، وقد استنكر أن يجرؤ أحد على تصوير الشخصيات بهذا الشكل فى محضره . فكتب السيد الكونت دى تريسان ـ بأمر من الملك ـ إلى « داليمبير » وإلى أنا ، فأنبأنى بأن نية صاحب الجلالة قد اتجهت إلى تحقيق اقصاء السيد باليسو ، عن المحفل . على أننى رجوت السيد تريسان مخلصا ــ فى ردى ــ بأن يشفع لدى ملك بولندا للحصول على عفو عن باليسو . وصدر العفو فعلا . وإذ كتب لى السيد دى تريسان ليخبرنى ـ باسم الملك ـ بذلك ، أضاف أن هذا الحادث سيثبت فى سجلات المحفل ، فرددت بأن هذا سيكون بمثابة توقيع عقاب دائم، أكثر مما هو

عفو . وأخيرا ، حصلت ـ بعد عناء ورجاء ـ على وعد بأن تظل المسألة كلها بعيدة عن السجلات ، والا يبقى أى اثر منها بصفة رسمية . وقد صحب الوعد إقرارات تقدير من جانب الملك ، ومن جانب السيد دى تريسان ، مما أثار زهـوى إلى حد كبير . وشعرت فى هذه المناسبة بأن تقدير أولئـك الذين هم جديرون بالتقدير ، يبعث فى النفس شعورا أعذب وأسمى من شعور الخيلاء والغرور !.. وقد ضممت خطـابات السيد دى تريسان وردودى إلى أضابيرى ،وستوجد أصولها فى ملف « أ » ، تحت أرقام ٩ و ١٠ و ١١

إننى لأشعر كل الشعور ، بأنه إذا قدر لهذه المذكرات أن ترى الضـوء يوما ، أننى أخلد بنفسى هنا ذكرى واقعة كنت ارغب فى أن امحو آثارها، ولكننى أثبت كثيرا غيرها ، على الرغم منى . فإن الهدف الأكبر لمشروعى هذا ، يتمثل دائما أمـام عينى . فإن الواجب الذى لا محيص عنه ، والذى يتطلب أن أحقق هذا الهدف بأكمل صوره ، لا يدع لى سبيلا للنكوص ، من أجل اعتبارات واهية تعمل على أن تعوقنى عن غايتى . إننى فى موقفى الفذ الفريد ، أدين للحقيقة بما لا أدين لسواها بأكثر منه . فلكى أعرف القراء بنفسى ، لا بد لى من أعرف كل نواحى هذه النفس ، طيبها ورديئهـا . ان اعترافاتى مرتبطة ـ بالضرورة ـ باعترافات كثير من الناس ، وإنى لأبوح بهذه وتلك بنفس الصراحة ، فى كل ما يتعلق بى ، دون أن أجـد ما يقتضى أن اعامل أى امرىء غيرى بمـا لا أعامل به نفسى ، ولست أتمنى سوى أن أوتى مزيدا من الصراحة يفوق ما أبديت .

إننى أصبو إلى أن أكون دائما منصفا وصادقا ، فأقول عن الغير كل خير ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، ولا أذكر من الشر إلا ما يتعلق بى ، وبقدر ما أكون مضطرا إلى ذكره .

فمنذا الذى يجد من حقه أن يطالبنى — وأنا فى هذا الموقف الذى أقحمت فيه — بمزيد ؟ . . ان اعترافاتى لم تكتب إطلاقا لكى تظهر فى حياتى ، ولا فى حياة الأشخاص الذين تتناولهم . ولو كان لى السلطان على مصيرى ومصير هذا المخطوط ، لما رأى النور إلا بعد موتى وموت هؤلاء الأشخاص بوقت طويل . ولكن الجهود التى يبذلها الشانئون ذوو النفوذ — مدفوعين بجزعهم منها — لكى يمحوا كل أثر لهذا المخطوط ، يضطرنى إلى أن أبذل كل ما يسمح لى به أشد القوانين ، وأقسى ألوان العدالة ، فى سبيل صون هذه الآثار . ولو كان مقدرا لذكرياتى أن تموت معى ، حتى لا أمس أى أحد ، لتحملت أى ظلم جائر وعابر يترتب على ذلك . أما وقد قدر لاسمى أن يعيش — أخيرا — فإن من واجبى أن أحاول ان أسلم الأجيال معه ذكريات الرجل التعس الذى كان يحمله . . كى أبديه على ما كان عليه فى الواقع والحقيقة ، وليس كما عمل أعداؤه الظالمون دائبين على أن يصوروه !

الكراسة التاسعة

سـنة ١٧٥٦

لم يسمح لى التلهف على سكنى « ليرميتاج » بأن أنتظر حتى يعود فصل الطقس البديع ، فما ان تم إعداد مسكنى حتى أسرعت إلى الإقامة فيـه ، وسط السخريات المدوية من ثلة دولباخ ، الذين راحوا يتنبأون علانيـة بأننى لن أستطيع أن احتمل العـزلة ثلاثة اشهر ، وانهم لن يلبثوا أن يرونى عائدا لأعترف بإخفاقى ، ولأعيش مثلهم فى باريس . أما أنا ـ وقـد قضيت خمس عشرة سنة بعيدا عن بيئتى ـ فاننى إذ رأيت نفسى وشيك العودة إليها ، لم ابد أى اكتراث مطلقا لمزاحهم الساخر . فاننى منذ أن القيت ـ على الرغم منى ـ فى المجتمع ، لم اكف عن التحسر على (شارميت) ، وعلى الحياة الناعمة التى حظيت بها هناك .. كنت أحس أننى خلقت للاقامة فى الريف ، فكان من المستحيل ان اهنأ بالعيش فى غيره .. فى البندقية : فى غمرة الشئون العامة ، وفى منصب خاص بنـوع من التمثيل الدبلوماسى ، وفى آمالى الطامحة ومشروعاتى للرقى .. فى باريس : فى دوامة المجتمع الراقى ، وفى الملاذ الحسـية التى تكتنف حفلات العشاء ، وفى حفلات المسرح اللامعة ، وفى سحب المجد الزائف الذى حف بى .. فى كل هذه وتلك ، كانت ذكريات ادغالى ، وجداولى ، وتجوالى على القـدمين ، حاضرة ابدا لتشغل بالى وتبعث الأسى فى نفسى ، وتنتزع منى التنهدات والحنين والحسرة . !

كل الأعمال التى كان فى طوقى أن أجعل نفسى فى ربقتها ، وكل المشروعات الطامحة التى راحت تنمى حميتى باطراد ، ولم يكن لها من غاية سوى أن أبلغ يوما تلك البحبوحة الريفية الهانئة، التى رحت أهنىء نفسى ـــ فى تلك اللحظة ـــ على أننى أحرزتها .. فاننى وإن لم أحظ بالاستقلال الكريم ـــ الذى كنت أعتبره وحده الكفيل بأن يقودنى إلى هذه الهناءة ـــ إلا أننى رأيت أن بوسعى ، نظرا لوضعى الخاص ، أن أستغنى عنه ، وأن أصل إلى نفس النهاية بطريق أخرى جد مختلفة . على أننى لم أكن أملك دخلا ما ، وإن كنت امتلك اســـما ومواهب .. وكنت معتدلا ، وقد حرمت نفسى من معظم الحاجات الباهظة النفقات .. تلك التى كانت منشودة لدى الناس عامة . وإلى جانب ذلك، فبالرغم من كسلى ، إلا أننى كنت مجدا عندما اشاء ، ولم يكن كسلى راجعا إلى أننى عاطل خمول ، بقدر ما كان خلة الرجل المستقل الذى لا يحب أن يعمل إلا عندما يروق له العمل . ولم يكن احتراف نسخ القطع الموسيقية رائجا ، ولا مريحا ، ولكنه كان مصدر رزق مضمون ، وقد حبذ المجتمع شـــجاعتى إذ أقدمت على اختياره . فقد كان لى دائما أن أطمئن إلى عمل ، وأن أطمئن إلى رزق كاف لعيشى إذا أنا عملت جاداً . وكانت الفرنكات الألفان التى تبقت من أرباحى من «عراف القرية» ومن مؤلفاتى الأخرى ، بمثابة رصيد يقينى الضيق . كما ان المؤلفات العديدة التى كانت تحت الاعداد ، كانت تبشر ـــ دون ما تطفل على الناشرين ـــ بموارد كافية لأن تمكننى من العمـــل على سجيتى ، دون ما إرهاق لنفسى ، بل ودون أن أجور على أوقات

الفراغ المخصصة للتريض والتجوال . وكانت أسرتى الصغيرة، مؤلفة من ثلاثة أشخاص ، شغل كل منهم بما هو نافع ، ولم تكن إعالتها مبهظة . وقصارى القول ان مواردى ــ بالنسبة لحاجاتى ورغباتى ــ كانت قادرة بحق على أن تتيح لى السعادة الدائمة فى الحياة التى اختارتها ميولى .

ولقد كان بوسعى أن أرتمى تماما فى أحضان الجانب الأكثر إدرارا للربح ، وبدلا من أن أذل قلمى للنسخ ، كان بوسعى أن أكرســـه تكريسا تاما للكتابة التى كانت ــ فى الاعتكاف الذى اخترته ، والذى شعرت بأننى قادر على مواصلته ــ كفيلة بأن تمكننى من أن أعيش فى سعة ، بل فى بذخ ، لو أننى وافقت على أن أجمع بين حيل المؤلف والعناية بنشر كتب جيدة . بيد أننى كنت أشعر بأن الكتابة من أجل كسب العيش ، لن تلبث أن تخنق نبوغى ، وأن تقتل موهبتى التى كانت فى قلبى أكثر مما كانت فى قلمى ، والتى لم تنبعث إلا من أسلوب فى التفكير راق، أشم ، هو وحده القادر على تغذية تلك الموهبة . . فما من شىء قوى ، ولا من شىء عظيم يمكن أن ينساب من قلم أجير مرتش ! . . إن الحاجة ــ وربما الجشع ــ كانت كفيلة بأن تدفعنى إلى أن أتعجل أكثر من أن أتقن . ولولا أن الرغبة فى النجاح زجت بى إلى الدسائس ، لكان من المحتمل أن تجعلنى أناضل لأقول ما قد يطيب للناس ، وليس ما هو صادق ونافع ! . . وبدلا من المؤلف المبرز ، الذى كان بوسعى أن أغدوه ، فاننى ما كنت لأصبح سوى مسود للورق ! . . لا ، لا ! . . لقد كنت أشعر دائما أن مكانة المؤلف لا يمكن أن تصبح مرموقة ومحترمة ، إلا

إذا كان التأليف بعيدا عن أن يكون حرفة . . إذ انه من الصعب، كل الصعب ، أن يفكر الإنسان تفكيرا نبيلا ساميا ، إذا ما كان مضطرا إلى ألا يفكر إلا طلبا للرزق !.. ولكى يكون الكاتب قادرا ، ولكى يجسر على أن ينطق بالحقائق الجليلة ، ينبغى ألا يعول على النجاح ويركن إليه . ولقد دفعت بكتبى إلى الناس بضمير مطمئن إلى أننى إنما تكلمت من أجل الصالح العام غير حافل بأى شىء آخر . فإذا رفض الكتاب ، فيا تعسا لأولئك الذين لم يشاءوا أن يفيدوا منه . أما أنا ، فما كنت بحاجة إلى رضاهم وقبولهم لكى أعيش، فإن مهنتى كانت كفيلة بأن تعولنى، إذا لم تلق كتبى مشتريا .. وهذا بالذات هو الذى جعلها تباع وتروج !

* * *

وفى التاسع من أبريل سنة ١٧٥٦ ، غادرت المدينـــة فلم أعد إلى سكنى المدن قط ، إذ أننى لا أعتبر من السكنى فى شىء، تلك الفترات الوجيزة التى قضيتها ـــ فيما بعـــد ـــ سواء فى باريس أو فى لندن أو غيرهما من المدن. فقد كانت مجرد إقامة عابرة ، أو إقامة بالرغم منى دائما ! .. ولقد أقلت السيدة دبيناى ثلاثتنا فى عربتها ، وتولى خادمها الريفى أمر متاعى البسيط ، واستقر بى المقام فى بيتى الجديد ، فى اليوم ذاته . ووجدت معزلى الصغير مهيأ ، ذا أثاث بسيط ولكنه كاف ، وينم عن ذوق !.. كانت اليد التى عنيت باعداد هذا الأثاث قد أضفت عليه ـــ فى نظرى ـــ قيمة تفوق كل تقدير ، وقد لذ لى أن أكون ضيف صديقتى ، فى بيت من اختيارى ، شيدته هى خصيصا لى !

ومع ان الطقس كان باردا ، بل كان ثمة جليد ، فإن الأرض كانت قد بدأت تخضوضر ، وكانت زهور النرجس وورود الربيع قد ظهرت ، وشرعت البراعم تتفتح على الأشجار .. وقد امتازت ليلة وصولى بأول شدو للبلبل فى أعقاب الشتاء، وقد انبعث من غابة كانت تتاخم البيت ، فكأنما كان البلبل ذاته عند نافذتى ! .. وبعد نعاس خفيف ، استيقظت وقد نسيت تبدل مسكنى ، فخلت أننى لا ازال فى شارع (جرينيل) ، لولا أن شدو البلبل نبهنى ، فهتفت فى نشوتى : « ها قد تحققت كل أمانى اخيرا ! » .. وكان أول ما فكرت فيه هو أن أسلم نفسى لمفعول الأشياء الريفية التى كانت تحيط بى . وبدلا من أن اشرع فى تنسيق مسكنى، فاننى شرعت فى إعداد نفسى لنزهاتى، فلم يبق ثمة درب ، ولا شجرة ضخمة ، ولا غيضة (مجموعة من الشجر) ، ولا بقعة منعزلة حول مسكنى ، إلا وتفقدتها فى اليوم التالى .. وكنت كلما ازددت تعرفا بهذا المعزل الفاتن ، ازددت إحساسا بانه ما خلق إلا لى ! .. كانت هذه البقعة البعيدة عن العمران ــ وإن لم تكن موحشة ــ تنقلنى فى الخيال إلى آخر أطراف المعمورة .. كانت قد أوتيت تلك المفاتن التى تملك القلوب ، والتى لا يجدها المرء قط على مقربة من المدن . وما قدر لامرىء انتقل إلى هناك فجاة ، أن يصدق أنه كان لا يبعد عن باريس باكثر من اربعة فراسخ !

وبعد بضعة أيام من الاستسلام لنشوتى الريفية ، فكرت فى تنسيق أوراقى وتنظيم مهامى ، فخصصت فترة الصباح للنسخ ــ كما اعتدت أن أفعل دائما ــ وفترة ما بعد الغداء للتريض



وبعد نعاس خفيف ، استيقظت وقد نسيت تبدل مسكنى ، فخلت اننى ما ازال فى شارع (جرينيل) .

والتجوال ، مزودا بكراسة بيضاء صغيرة وقلم من الرصاص ، إذ أنني لم أستطع أن أكتب أو أن أفكر على سجيتي إطلاقا ، إلا في الهواء الطلق والفضاء ، ولم أجد بنفسي ميــلا إلى أن أغير أسلوبي ، بل أنني قدرت أن غابة (مونمورنسي) ـــ التي كانت تكاد تصل إلى بابي ـــ لن تلبث أن تغدو مكتبي ومكان عملي! . . وكانت لدي عدة مؤلفات بدأتها من قبل ، فعمدت إلى مراجعتها . . كنت مبدعا كل الإبداع في مشروعاتي ، ولكن تنفيذها كان يسير ببطء ، في ضوضاء المدينة . وقد توقعت أن أمضي فيها بمزيد من العجلة ، إذا ما تخففت من كل ما اعتاد أن يشغلني عن العمل . . وأعتقد أنني قد حققت هذا التوقع تمـــاما . . وبالنسبة لرجل كثير المرض ، كثير التردد على قصر «لاشيفريت» وابيناي واوبون وقصر مونمورنسي ، كثير التشاغل عن عمله في داره بفضل الفضوليين المتعطلين ، دائم الانشغال بالنسخ نصف نهاره . . إذا قدر كل هذا ، وأحصيت المؤلفـــات التي أنجزتها خلال السنوات الست ـــ التي قضيتها في ليرميتاج ومونمورنسي ـــ لتجلى ، فيما أوقن ، أنني إذا كنت قد بددت وقتي خلال هذه الحقبة من الزمن ، فإن تبديده لم يكن في خمول على الأقل !

وبين الأعمال الأدبية المتباينة ـــ التي كانت على الرف ـــ كان المؤلف الذي أطلت التفكير فيه ، والذي اقبلت عليه بأعظم قدر من الشغف ، والذي وددت أن أعمل فيه طول عمري ، والذي أعتقد أنه ختم شهرتي . . ذلك هو كتابي في «المذاهب السياسية» . إذ كانت قد انقضت ثلاث عشرة ـــ أو أربع عشرة ـــ سنة ،

مذ خطرت لى فكرته ، عندما كنت مقيما فى البندقيـــة ، حيث أتيحت لى الفرصة كى أشهد عيوب نظام الحكم فيها ، برغم ماكان له من صيت . ومن ذلك الحين ، اتسعت آرائى بفضل الدراسات التاريخية لقواعد الأخلاق ، فقدر لى أن أرى أن كل شىء كان يتصل اتصالا جوهريا بالاعتبارات السياسية ، وأنه ما من شعب يملك ـــ مهما يكن تقدمه ـــ أن يصبح فى حال غير التى تعده لها طبيعة نظام الحكم فيه . ومن ثم ، فإن المسألة الكبرى ـــ مسألة خير نظام ممكن للحكم ـــ انكمشـــت فى نظرى إلى ما يأتى : ما كنه نظام الحكم الصالح لتكوين الشعب الذى يكون أفضل صفات ، وأكثر تنورا ، وأوسع حكمة .. وبالايجاز ، الشعب الذى يكون « أحسن » شعب ، بأوسع معانى كلمـــة « أحسن » ؟ .. ولاح لى أن هذا السؤال كان وثيق الارتباط بسؤال آخر ، قريب الشبه منه ، وإن لم يكن مثله تماما . ذلك هو : ما هى الحكومة التى تحرص ـــ بطبيعتها ـــ دائما ، على أن تكون وثيقة القرب من القانون ؟ .. ومن هنا خطر لى سؤال آخر : ما هو القانون ؟ .. وتبعته سلسلة من الأسئلة لها عين القيمة . ورأيت أن هذا كله يفضى إلى حقائق عظيمة ، ذات نفع بالنسبة لرفاهية الجنس البشرى ، ولا سيما رفاهية وطنى ، حيث لم أجد ـــ خلال الرحلة التى قمت بها إلى هناك ـــ دراية بالقانون وبالحرية صحيحة ، ولا واضحة بالقدر الذى كان يرضينى . ولقد آمنت بأن الإيعاز بهذه الدراية ـــ بطريق غير مباشر ـــ هو أسلم وسيلة ملائمة لكرامة هؤلاء القوم ، وخير شفيع لى كى يغفروا لى أن استطعت أن أمد بصرى إلى أعلى وأبعد مما بلغته أبصارهم !

ومع أنني كنت قد عكفت ــ لخمس سنوات أو ست ــ على وضع هذا المؤلف ، إلا أنني لم أكن قد قطعت فيه شوطا يذكر. فإن الكتب التي من هذا القبيل ، تتطلب تأملا ، وفراغا ، وطمأنينة . فضلا عن أنني كنت أعمل فيه في الخفاء – كما يقال– دون أن أفاتح أحدا ــ ولا ديدرو نفسه ــ بما اعتزمت . فقد كنت أخشى ألا يبدو ملائما كل الملاءمة لروح العصر ، وللبلد الذي كنت اكتبه فيه ، وأن جزع أصدقائي قد يعرقل جهودي في تنفيذه[١] . ولم أكن بعد واثقا من أنه سيتم في وقت مناسب، وبحيث يتسنى ظهوره ابان حياتي . . وكنت راغبا في أن أتمكن دون أي تقيد ــ من أن أهب موضوعي كل ما كان يتطلبه . ولما كنت خلوا من التحامل المغرض ، وغير راغب قط في الجنوح إليهما ــ فانني كنت مطمئنا إلى أنني ساظل دائما بمنأى عن اللوم . . لقد وددت أن أستخدم ــ أكمل استخدام ، دون ريب ــ حق التفكير ، هذا الحق الذي أوتيته بحكم وجودي . . ولكني في حرصي دائما على احترام نظام الحكم الذي كنت أعيش في

---

(١) عقب « روسو » على هذا بقوله : « كانت حكمة ديكلو المتزمتة هي التي أوحت الي بهذا الخوف . أما ديدرو ، فلست أدرى كيف كانت اجتماعاتي به تتجه دائما الى جعلي أكثر سخرية وهجوا واقذاعا مما كنت بطبيعتي . وهذا بالذات هو الذي ردني عن أن أستشيره في مشروع كنت راغبا في الا استخدم فيه سوى قوة المنطق والحاجة فقط، دون أن فيه أثر لتعنت أو تعصب . ومن الممكن الحكم على الأسلوب الذي انتهجته في هذا المؤلف ، على ضوء أسلوبي في « العقد الاجتماعي » الذي أخذته منه » ــ وقد قدم « كتابي » ملخصا للعقد الاجتماعي في العددين (٣١) و (٣٢) .

ظلاله ، وعلى عدم الخروج على القانون إطلاقا ، وعلى التزام الحذر حتى لا أنتهك حق الغير .. فى كل حرصى هذا ، لم أكن راغبا ــ فى الوقت ذاته ــ فى أن أفرط ، بدافع من الخوف ، فى امتيات هذا الحق .. حتى فى التفكير ! . بل أننى لأذهب إلى الاعتراف بأننى وجدت وضعى فى فرنسا ــ كأجنبى يعيش فيها ــ مواتيا لكى أقول الحق فى جرأة .. فقد أدرك تماما أننى ما دمت لا أطبع شيئا فى الدولة ، دون ما إذن ــ وهو ما كنت اعتزمه ــ فلن أكون مسئولا أمام أى أحــد فى فرنســا عن مبادئى ، وعن الترويج لها فى أى مكان آخر ! .. ولقد كان من المحتمل أن أكون أقل حــرية فى جنيف ، أو فى أى مكان آخــر طبعت فيــه كتبى ، إذ كان للســلطات حق الاعتراض على محتوياتها . ولقد كان لهذا الاعتبار اثر كبير فى حملى على أن أنصاع لإلحاف السيدة ديبيناى ، فأهجر ما كنت قد انتويته من الاقامة فى جنيف . فقد شعرت ــ كما ذكرت فى « اميل » ــ بأن المرء إذا أراد أن يؤلف كتبا فى الصالح الحقيقى لوطنه ، فليس له أن يؤلفها فى هذا الوطن ، اللهم إلا أن يكون موهوبا فى التآمر والدس والخداع !

ومما زادنى ســعادة ، أننى اقتنعت بأن حكومة فرنسا ، ستعتبر أن من الكرامة أن تدعنى فى سلام ، إن لم تحمنى ، ولو أنها لم تكن تنظر إلى بعين راضية !.. ولقد كان هذا ــ فيما بدا لى ــ نهجا سياسيا بسيطا ، وصريحا إذ انه يرمى إلى التسامح إزاء ما لا سبيل هناك إلى منعه .. فلو أننى حملت على مغادرة فرنسا ــ وهو ما لكل الحكومات الحق فى أن تقدم عليه ــ لظلت

كتبى ماضية فى الصدور ، ولكن بتحفظ أقل .. أما إذا تركت دون إزعاج ، فاننى ـــ كمؤلف ـــ سأعتبر رهينة وضمانا لكتبى، كما أن هذا كفيل بأن يمحو الآراء الخاطئة التى كانت متغلغلة فى بقية أوروبا ، إذ يكسب السلطات الفرنسية شـــهرة احترام حقوق الأمم عن سعة أفق ورقى تفكير !

والذين يحكمون ـــ على ضوء النتيجة ـــ بأن ثقتى قد غررت بى ، ربما كانوا هم المخدوعون . ففى العاصفة التى هبت على، كانت كتبى خير حجة فى جانبى ، لولا أن شخصى هو الذى كان مقصودا .. فإن أحدا لم يول المؤلف كثير اهتمـــام ، ولكنهم كانوا يتوقون إلى القضاء على جان جاك نفسه .. وكان أسوأ ما جرته كتاباتى ، هو التكريم الذى كان من المحتمل أن يولونى إياه . ولكن ... يجب ألا نقفز إلى المستقبل ، ولندعـــه إلى حينه ! .. ولست أدرى ما إذا كان هذا اللغز ـــ فهو لا يزا لغزا فى نظرى إلى اليوم ـــ سيلقى ما يوضحه فى نظر قرائى فيما بعد .

وإنما الذى أدريه هو أنه إذا كانت آرائى التى جاهرت بها، جديرة بأن تجلب على المعاملة التى قاسيتها ، لما توانيت عن التعجيل بأن أصبح فريسة لها . ذلك لأن ما ظهر من كتبى ـــ التى بسطت فيها هذه المبادىء بكل جرأة ، إن لم أقل بكل شجاعة(١) ـــ كان قد أحدث أثره ، على ما بدا ، قبل أن آوى إلى (ليرميتاج) ، دون أن يخطر ببال أحد أن يناجزنى الحرب،

---

(١) يقصد كتابه : « حديث فى عدم المساواة فى الظروف والأحوال » .

أو — على الأقل — أن يعوق نشر المؤلف فى فرنسا ، حيث كان يباع فى علانية لا تقل عن التى كان يباع بها فى هولندا . ولقد ظهرت « هيلويز الجديدة » — بعد ذلك — بنفس السهولة ، وبنفس التحبيذ ، كما ينبغى أن يقال . ومن الأمور التى تبدو أبعد من أن تصدق ، أن العقيدة التى بشرت بها فى « هيلويز » هذه ، كانت عين تلك التى بشرت بها فى « أسقف سافوا » .. وكل ما أقدمت على قوله فى « العقد الاجتماعى » ، كان قد قيل فى « حديث فى عدم المساواة » .. وكل ما جاهرت به فى «اميل»، ظهر قبل ذلك فى « جولى » .. ولكن هذه العبارات المدوية ، لم تثر سخطا ضد الكتابين الأولين(١) ، ومن ثم فما كان من المعقول ان تكون هى التى اثارت سخطا ضد الكتاب الأخير(٢) .

***

وهناك مشروع كتاب آخر ، من نفس النوع تقريبا ، ولكن فكرته وانتنى متأخرة عن أفكار تلك الكتب ، وقد شغلت بالى فى ذلك الحين .. ذلك هو « مختارات من أعمال الأب دى سان بيير » ، الذى لم أملك الحديث عنه من قبل ، إذ شغلنى عن ذلك سياق السرد . فلقد أوحى إلى بالفكرة الراهب دى مابلى — عقب عودتى من جنيف .. ولم يعرضها على مباشرة ، وإنما وسط فى الأمر السيدة دوبان ، التى كانت مهتمة — إلى حد ما — بإقناعى بالاضطلاع بالمشروع ! .. فقد كانت إحدى ثلاث أو

---

(١) يقصد كتابيه : « اميل » و « حديث فى عدم المساواة » .

(٢) يقصد « العقد الاجتماعى » .

أربع من حسـان باريس ، تهـافتن على الراهب الشـيخ « سان بيير » . وإذا لم تكن قد ظفرت بالايثار منه ، فإنها ـ على الأقل ـ قد تقاسمته مع السـيدة ديجويون . ولقـد احتفظت لذكرى الراهب الطيب باحترام وعطف كانا مصـدر فخر لها وله ، ومن ثم فإن كبرياءها كانت خليقـة بأن تجـد ما يرضيها إذ ترى مؤلفات صـديقها الميت الحى ، تبعث على يدى سكرتيرها . ومع أن هذه المؤلفات لم تخل من موضوعات بديعة ، إلا أنها كانت معروضة بأسوأ تعبير ، إلى درجة تجعل من العسير على القارىء أن يحتمل قراءتها . ومما كان يبعث على الدهشة ، أن الراهب كان يعتبر قراءه مجرد « أطفـال كبار » ، ولكنه ـ مع ذلك ـ كان يخاطبهم باعتبارهم رجالا .. فضلا عن أنه لم يتجشم اى عناء فى حملهم على الانصات إليه

من أجل هذا عرض على الاضطلاع بهذه المهمة التى كانت نافعة ـ فى حد ذاتها ـ كما كانت مناسبة لرجل مجد فى النسخ والتعديل ، ولكنه كسول فى التأليف ، الفى ان المجهود الذى يبذل فى التفكير مرهق ، فكان يؤثر ـ فيما يوافق هواه ـ ان ينقح ويحسن افكار سواه ، على أن يبتدع افكارا جديدة من لدنه !.. وإلى جانب ذلك ، فاننى لم اقصر دورى على مجرد التفسير والترجمة ، إذ أننى لم اكن ممنوعا من أن أسـتغل تفكيرى فى بعض الأحيان ، وكنت مطلق اليد فى أن أصوغ عملى بالشكل الذى يمكن كثيرا من الحقائق الهامة من أن تظهر فى مسوح الراهب « سان بيير » ، دون ما تعرض للخطر الذى قد يحدق بها إذا ما ظهرت فى ثيابى أنا . وفضلاً عن كل هـذا ،

فإن المهمة لم تكن باليسيرة .. لم تكن تتطلب أقل من القراءة ، ثم الاستيعاب والتفكير ، ثم اختيار مادة من اثنين وعشرين مجلدا مهوشة ، مضطربة التنسيق ، مليئة بالحشر والإطناب والتكرار والآراء الضحلة أو الخاطئة .. وكان لا بد من التنقيب بينها حتى يمكن العثور على طائفة من الآراء الجليلة الدسمة التي كانت تشجع على احتمال المهمة الوعرة ! .. بل أنني كنت موشكا ـ في كثير من الأحيان ـ على أن أنفض يدي منها ، لو أنني استطعت أن أنسحب في تصرف كريم .. ولكني عندما تقبلت مخطوطات الراهب ـ التي أعطانيها ابن أخيه الكونت دي « سان بيير » ، بإيعاز من « سان لامبير » ـ أصبحت مرتبطا بشكل ما ، بأن استعملها .. وأصبح الواجب يقتضيني إما أن أردها ، وإما أن أجعل لها قيمة . وبهذه النية الأخيرة حملتها إلى « ليرميتاج » ، فكانت أول عمل اعتزمت أن أكرس له وقت فراغي !

ورحت أفكر ـ إذ ذاك أيضا ـ في مشروع كتاب ثالث ، كنت مدينا بفكرته إلى بعض ملاحظات أخذتها على نفسي ، ومما زاد من شعوري بالرغبة في الإقدام عليه ، أنني وجدت من الأسباب ما جعلني أصبو إلى أن أنتج كتابا ذا نفع حقيقي للجنس البشري ، بل كتابا يكون أنفع ما قدم إلى البشر ، إذا ما قدر للتنفيذ أن يطابق الخطة التي رسمتها مطابقة ناجحة . فلقد لوحظ أن الغالبية من الناس كثيرا ما يكونون ـ في سياق حياتهم ـ على غير ما هم عليه أصلا ، وكأنهم يتحولون إلى أناس مختلفين تمام الاختلاف . ولم أكن أبغي بإصدار كتاب في ذلك ، أن أقر شيئا

معروفا كل المعرفة ، بل كان لدى غرض جديد تمام الجدة ، وذو أهميـــة بالغة .. ذلك هو أن أبحث عن أسباب هـــذه التطورات والتغيرات ـــ التى تطرأ على الناس فى حياتهم ـــ وأن اقتصر على ما يكون منها متوقفا علينا نحن انفسنا ، وأن أبين كيف يتسنى أن نتحكم فيها بأنفسنا ، لكى نصبح أفضل وأكثر ثقة بأنفسنا واطمئنانا إليها ! .. ذلك لأنه لا جدال فى أن الرجل الشريف يعانى فى مقاومة الشهوات التى اكتمل تكوينها ـــ والتى ينبغى عليه أن يقاومها ـــ عناء أشد مما لو أنه كبح أو غير أو عدل هذه الشهوات ذاتها من منبعها ، لو قدر له أن يتعقبها إلى هذا المنبع . فالرجل يقاوم الغواية مرة لأنه قوى ، ولكنه ـــ فى مرة أخرى ـــ يستسلم لأنه ضعيف .. ولو أنه كان على ما كان عليه من قبل ، لما استسلم .

وفيما كنت أفحص نفسى ، وأبحث فى النفوس الأخرى عما يمكن هذا التباين من الحدوث ، تبينت أنه إنما يعتمد ـــ إلى حد كبير ـــ على ما تكون أشياء خارجية قد أحدثته ـــ من قبل ـــ من انطباعات داخلية ، وأننا فى تغيرنا المستمر ـ بفعل حواسنا، وأجهزتنا البدنية ـــ إنما نكتشف ، دون أن نفطن عن أثر ذلك التغير فى انفسنا ، وفى آرائنا ، وفى مشاعرنا ، وفى أعمـــالنا ذاتها ! .. وكانت المشاهدات العديدة والمدهشـــة ـــ التى جمعتها ـــ تعلو على كل طعن .. وقد بدت لى ، فى أصولها الطبيعية ، صالحة لأن تؤلف نظاما خارجيا للسلوك ، يتغير بتغير الظروف ، ويمكن من وضع العقل أو صونه فى حال تكون خير الأحوال ملاءمة للفضيلة ! .. فكم من أخطاء يمكن انقاذ العقل

منها ، وكم من رذائل يتسنى خنقها فى مهدها ، إذا تيسرت معرفة التحكم فى النظام الحيوانى بحيث يتلاءم مع النظام الخلقى الذى كثيرا ما يتعرض للاضطراب ! .. ان أحوال الجـو ، والفصول ، والأصوات ، والألوان ، والظـلام ، والنـور ، والعناصر ، والمواد ، والضجة ، والصـمت ، والحـركة ، والسكون .. كل هذه تعمل وتؤثر على جسمنا وعلى عقلنا بالتوالى .. كلها تمدنا بألف فرصة ، تكاد تكون مضمونة ، للتحكم ـــ منذ البداية ـــ فى المشاعر التى نتركها تتحكم فينا !

هكذا كانت الفكرة الأصلية ، ألتى كنت قد سطرتها على الورق ، والتى توقعت منها نتيجة عظيمة النفع لذوى المنبت السليم ، الذين يتحدون ضعفهم ، فى سـبيل حبهم الصـادق للفضيلة .. حتى لقد بدا لى أن من الميسور أن أجعل من هذه الفكرة كتابا مشوقا من حيث القـراءة ، كما هو من حيث الكتابة ! .. ومع ذلك ، فاننى لم أحرز سوى تقدم ضئيل فى هذا المؤلف ـــ الذى جعلت له عنوانا : « المبـادىء الخلقية الحسية ، أو مادية الحكيم »(١) ـــ فقد حالت شواغل ، لن تلبث أن تتكشف ، دون أن أعكف عليه .. ولن يلبث أن يتضح كذلك، أن هذه كانت خاتمة مشروعى الذى كان أقرب إلى نفسى من كل ما يبدو !



---

(١) La Morale Sensetive, ou le Materialisme du Sage

وكنت ـــ إلى جانب كل هذا ـــ قد فكرت منذ زمن ، فى نظام للتربية كانت السيدة دى شينونسو قد رجتنى أن أشتغل به ، فى غمرة إشفاقها على ابنها من النظام الذى وضعه زوجها لتربيته ! .. ولقد استوجب سلطان الصداقة أن انصرف إلى هذا الهدف أكثر من سواه ، برغم أنه لم يكن ـــ فى حد ذاته ـــ مما يصادف هوى من نفسى . ومن ثم فان هـــذا المشروع هو الوحيد ـــ بين كل المشروعات ـــ التى ذكرتها من قبل ـــ الذى أنجزته . ولقد كانت الغاية التى وضعتها نصب عينى ـــ وأنا أعمل فيه ـــ جديرة ، كما يتراءى لى ، بأن تتيح للمؤلف جزاء آخر غير الذى أتاحه . ولكن .. لنتجنب الحديث هنا عن هذا الموضوع المحزن ، قبل أن يحين أوانه .. فسـوف أضطر اضطرارا إلى الحديث عنه فيما بعد !

ولقد أمدتنى هذه المشروعات المتباينة بموضوعات للتأمل والتفكير فى نزهاتى اليومية . إذ أننى ـــ وأعتقد أننى ذكـــرت هذا من قبل ـــ لا أستطيع التفكير إلا وأنا أتمشى ، فمـــا أن أقف ، حتى أكف عن التفكير ، فليس فى وسع عقلى أن يتحرك إلا مع قدمى . على أننى اتخذت الحيطة ، فوفرت لنفسى عملا أؤديه داخل البيت فى الأيام المطيرة . ذلك هو « قـــاموس الموسيقى » ، الذى كانت مواده وأصوله مبعثرة ، ناقصة ، مشتتة بحال تجعل من الضرورى إعادة كتابة السفر كله ، من أوله إلى آخره تقريبا . ولقد ابتعت بعض الكتب التى كنت بحاجة إليها من أجل ذلك ، وقضيت شهرين فى الســـعى إلى الحصول على كثير من الكتب الأخـــرى ، التى استعيرت لى من

« مكتبة الملك » ، والتى ابيح لى أن أصحب بعضـــها معى إلى « ليرميتاج » . هذه كانت المواد التى تهيىء لى العمل فى البيت، عندما لا يسمح الطقس لى بالخروج ، أو عندما أسأم النســخ والنقل . ولقد وافقنى هذا التدبير إلى درجة أننى واظبت عليه فى « ليرميتاج » وفى قصر « مونمورنسى » على السواء ، ثم فى (موتيير) بعد ذلك ، حيث أكملت هـــذا المؤلف ، بينما كنت ماضيا فى مؤلفات غيره . وقد اعتدت دائما أن أجد فى تغيـــير الأعمال مادة للترويح حقا !

وتبعت فى دقة بالغـــة ـــ ولفتـــرة من الزمن ـــ النظام الذى ذكرته ، فوجدته صالحا للغاية ، ولكن الفصل الجميل (الربيع) لم يلبث أن زاد من تردد السيدة ديبيناى على ضيعة (ايبيناى) أو ضيعة (لاشيفريت) ، فوجـــدت من الشواغل ـــ التى لم تكن تكبدنى من قبل شيئا ، ولكنى لم أحسب لهـــا فى تدبيرى حسابا ـــ ما عطل كثيرا من مشروعاتى الأخرى . فلقد قلت ـــ من قبل ـــ إن للسيدة ديبيناى خصالا بالغة اللطف ، إذ كانت تحب أصدقاءها حبا خالصا ، وتخدمهم بكثير من الشـــهامة ، ولا تضن عليهم بوقت ولا بمال ، ومن ثم فانها كانت تســتحق ـــ عن جدارة ـــ أن تجازى عن ذلك برعاية خاصة . ولقد كنت ـــ حتى ذلك الحين ـــ أؤدى هذا الواجب ، دون أن افكر فى أنه واجب ، ولكننى لم البث أن فهمت ـــ فى النهاية ـــ أننى مغلول بسلسلة لم يكن يحول دون شعورى بوطأتها سوى الصداقة وحدها ! . . ولقد ضاعفت من هذا العبء بنفورى من المجتمعات الحافلة ، إذ تكرمت السيدة ديبيناى فعرضت اقتراحا بدا ملائما

بالنسبة لى ، واكثر ملاءمة بالنسبة لها ، ذلك هو أن تحيطنى علما بالأوقات التى تكون فيها على انفراد ، أو على وشك الانفراد . ولقد وافقت على ذلك ، دون أن أفطن إلى ما كنت اقيد به نفسى . وترتب على ذلك أننى لم أعد أؤدى لها زيارات فى الوقت المناسب لى ، ولكن فى الوقت المناسب لها هى ، وأننى لم أطمئن يوما إلى أن نهارى رهن رغبتى . ولقد أفسد هذا القيد ــ إلى حد كبير ــ ما كانت توفره لى زياراتى لها ــ فيما مضى ــ من متعة .. وتبينت ان الحرية ــ التى طالما وعدتنى بها ــ لم تمنح لى إلا بشرط الا احظى بها إطلاقا !.. ولقد رغبت ــ فى مرة أو مرتين ــ فى أن أجربها ، فاذا بكثير من الرسائل ، وكثير من المذكرات ، وكثير من أمارات الخوف تنهال من السيدة ديبيناى معربة عن قلقها على صحتى .. حتى تبينت تماما الا شفيع لى فى عدم الاسراع إليها لدى أول بادرة عن رغباتها ، إلا بأن الزم فراشى تماما !

وكنت مضطرا إلى أن أخضع لهذه الربقة ، فانصعت فى تساهل يفوق ما كان ينتظر من عدو لدود لكل ما يحد من الحرية .. وقد ساعد الوفاء الصادق ــ الذى كنت أكنه للسيدة ــ على الحيلولة، إلى حد كبير، دون أن أشعر بالأغلال التى كانت ترتبط بهذا الموقف . ولقد استطاعت السيدة ديبيناى أن تملأ بهذه الطريقة الفراغ ــ الذى خلفه غياب الثلة التى كانت تحيط بها ــ إلى حد ما . ولقد كانت التسلية التى ظفرت بها من نوع لا يلذ لها كثيرا ، ولكنها كانت أفضل من العزلة التامة، التى لم تكن تطيقها . على انها اصبحت اقدر على ملء الفراغ

بسهولة ، عندما شرعت تجرب قلمها فى الأدب ، ودخلت رأسها نزوة كتابة قصص ، ورسائل ، وفكاهيات ، وحكايات ، وما إلى هذه التفاهات، كيفما اتفق لها! .. على أن الكتابة لم تكن أعظم ما لذ لها بل أن أكثر ما طاب لها هو قراءة ما كانت تكتب .. فاذا هى سودت صحيفتين أو ثلاثا ، كان من الضرورى لها أن تطمئن إلى وجود اثنين أو ثلاثة ينصتون إلى هذا العمل الضخم ويحبذونه . ونادرا ما كنت أحظى بشرف أن أكون واحدا من هؤلاء الصفوة المختارة ، اللهم إلا إذا شفع لى مستمع آخر !.. ذلك لأننى كنت ـ وحدى ـ لا أكاد أساوى شيئا يذكر ، لا فى ندوة السيدة دبيناى فحسب ، وإنما فى ندوة السيد دولباخ ، وحيثما كان جريم نجما متألقا .. وكان هذا التجاهل التام لقدرى يلائمنى تمام الملاءمة ، اللهم إلا عندما أكون مع السيدة وحيدين ، إذ أننى لم أكن أعرف أى مسلك أتخذ .. ذلك لأننى لم أكن أجرؤ على الحديث فى الأدب ـ إذ لم أكن أعتبر كفءا لإبداء الرأى فيه ـ ولا فى آداب السلوك والمجاملة والإيناس، لأننى كنت مفرط الخجل ، وكنت أخشى الظهور بمظهر مضحك أمام غانية عجوز ، أكثر من خشيتى الموت !.. فضلا عن أن هذه الفكرة لم تخطر ببالى إطلاقا عندما كنت برفقة السيدة دبيناى ، ولا كان من الممكن أن تخطر مرة واحدة فى حياتى ، ولو قدر لى أن أعيش طيلة عمرى بصحبتها .. وما كان ذلك لأننى كنت أضمر نفورا شخصيا منها ، بل لعلنى ـ على النقيض ـ كنت أحبها كل الحب كصديقة ، وكنت قادرا على أن أحبها كعشيقة ! .. كان يروق لى أن أراها وأن أجاذبها الحديث . ومع أن حديثها كان طلبا ـ إذا ما كانت فى جماعة ـ

إلا أنه كان ممضا فى الجلسات الخاصة .. أما حديثى أنا ، فلم يكن لبقا سيالا ، ولم يكن ذا عون كبير فى ايناسها .. وكنت حين أخجل من الصمت فترة طويلة ، أرهق نفسى فى سبيل بعث الحياة فى الجلسة . ومع ان هذا كثيراً ما كان يتعبنى ، إلا انه ابدا ما ضايقنى ! .. كنت أبدى لها آيات الغزل عن طيب خاطر ، وأمنحها بعض قبلات اخوية صغيرة ، لم يكن يلوح لى انها ذات إثارة حسية لها .. وكان هذا غاية ما فى الأمر ! .. فلقد كانت مفرطة النحول ، شديدة البياض ، ذات صدر مبسوط كراحتى ! .. وكان هذا العيب وحده ، كافيا لأن يطفى كل حرارة فى كيانى ، فما قدر لقلبى ولا لحسى يوما أن يريا اية انوثة فى امراة بلا نهدين .. وقد كانت ثمة أسباب أخرى ـ لا جدوى من ذكرها ـ تجعلنى أنسى الناحية الجنسية دائما ، إذا ما كنت بالقرب من السيدة ديبناى !!

* * *

أما وقد رضت عقلى على قبول تبعية لا غنى عنها ، فاننى اسلمت نفسى لها دون ما مقاومة فالفيتها ـ فى العام الأول ، على الاقل ـ اقل عبءا مما كنت أتوقع . وكانت من عادة السيدة دبيناى أن تقضى الصيف بأسره ـ تقريبا ـ فى الريف . ولكنها لم تقض هناك ، فى هذا العام ، سوى شطر منه .. إما لأن اعمالها كانت تتطلب وجودها فى باريس ، وإما لأن غياب « جريم » جعل الاقامة فى « لاشفريت » اقل ملاءمة لها عن ذى قبل . ولقد كنت أستغل الفترات التى لم تكن تقضيها هناك ، أو التى كانت تستضيف خلالها كثيراً من الناس ، لأنعم

بعزلتى مع تيريزى الطيبة وأمها ، على نمط يجعلنى أعرف لهذه الفترات قدرها . ومع أننى كنت قد اعتدت ـ لبضع سنوات ـ أن أتردد على الريف كثيرا ، إلا أننى لم أكن أستمتع بهذه الرحلات ، إذ أنها كانت دائما فى صحبة أشخاص محبين للمظاهر ، وكانت دائما ما تفقد بهجتها بتأثير الشعور بالتقييد والحرج ، وإن كانت قد أذكت فى نفسى الميل إلى المتع الريفية.. وكنت كلما لمحت هذه المتع عن كثب ، ازددت شعورا بحرمانى منها . كنت قد سئمت ـ كل السأم ـ « صالونات » باريس ، ونافورات الماء ، والبساتين ، وحدائق الزهور . وكان أصحابها أشد بعثا للملل .. كنت ضجرا من التطريز ، والمعزف ، وحبك الصوف ، والانحناءات ، والمجاملات الحمقاء ، والعواطف الضحلة ، ورواة القصص التافهين ، ومآدب العشاء الكبيرة ، حتى أصبحت إذا ما لمحت ـ بنظرة من ركن عينى ـ شجرة من أشجار الصنوبر ، أو عشبا من الأعشاب الشوكية ، أو سياج مزرعة ، أو مخزنا للغلال ، أو مرجا .. وحتى أصبحت إذا ما شممت ـ وأنا أمر بمزرعة ـ عبير « العجة » المتوبلة بالأعشاب الشذية .. وحتى أصبحت إذا ما سمعت عن بعد أصوات الماعز الرفيعة .. أصبحت أتمنى ازاء هذا كله ، أن يذهب كل الطلاء الأحمر ، والمساحيق ، والعطور ، إلى الشيطان ! .. وكنت أتحسر على الغداء الذى تعده الزوجة المتفرغة لبيتها فى الريف ، والنبيذ المحلى .. وكنت أود ـ من قلبى ـ أن ألكم السيد الطاهى ، والسيد رئيس السقاة ، اللذين كانا يضطرانى إلى أن أتناول الغداء فى موعد عشائى المعتاد ، وأن أتناول العشاء فى الساعة التى اعتدت أن أنام فيها ..

وكنت أود ــ فوق كل شيء ــ أن أصفع السادة خدم الموائد الذين كانوا يلتهمون بأعينهم اللقم التى آكلها ، ويبيعوني ــ إذا لم أشأ أن أموت ظمأ ــ نبيذ مخدومهم المعتق ، بما يفوق عشرة أمثال ما أدفعه من أجله فى أرقى حانة !

ولكن .. ها أنذا أخيرا فى دارى ، فى ماوى منعزل مستحب ، حر فى أن أقضى أيامى فى حياة مستقلة ، متشابهة ، آمنـــة ، كنت أشعر أننى إنما خلقت لأنعم بها ! .. وقبل ان أذكر الأثر الذى أحدثه هذا الوضع ــ الجديد على ــ فى فؤادى ، يروق لى أن ألخص الميول الخفية لهذا القلب ، حتى يتسنى الإلمـــام بجلاء بأسباب هذه التطورات الجديدة .

* * *

لقـــد اعتدت دائما أن أعتبر يوم اتحادى مع تيريز هـــو التاريخ الذى أصبحت فيه حريصا على مبادىء الخلق . فلقد كنت بحاجة إلى ود وثيق ، مذ انفصم فى قسوة ذلك الود الذى كنت مكتفيا به .. ان الظمأ إلى الهناء لا يمكن أن يرتوى فى قلب الإنسان ! .. ولقد كانت « ماما » تسعى إلى الشيخوخة ، وتنحدر إلى الهوان ، وكان من الواضح لى أنها لن تسعد ثانية على الأرض ، فلم يبق لى سوى أن أبحث عن سعادة لنفسى ، ما دمت قد فقدت كل أمل فى أن أقاسمها سعادتها ! .. رحت أطفو من فكرة إلى فكرة ، ومن خطة إلى خطة ، بعض الوقت . وكانت رحلتى إلى (البندقية) خليقة بأن تزج بى فى الشئون العامة ، لو أن الرجل الذى قدر لى أن أرتبط به ، كان على شيء من الإدراك السليم . وأنا ممن يسهل هبوط عزيمتهم ،

لا سيما فى المشروعات الشاقة البطيئة . لذلك فان ضعف نجاح هذا العمل (الشئون العامة) نفرنى من أمثاله . ولما كنت ـ وفقا لمبدئى القديم ـ أنظر إلى الأهداف البعيدة، على أنها أحابيل للحمقى ، فقد وطنت العزم على أن أعيش ـ بعد ذلك ـ دون أية خطة مرسومة ، إذ أننى لم أعد أرى شيئا فى الحياة كان قادرا على أن يغرينى على أن أتعب نفسى !

وفى هذه الفترة بالذات ، بدأ تعارفنا ، فلاح لى أن لطف شخصية هذه الفتاة الطيبة ، يتمشى مع طبيعة شخصيتى ، حتى أننى ارتبطت بها بعاطفة لم يقو الزمن ولا الزلات على إيهانها ، ولم يؤد أى شىء ـ كان يحتمل أن يفصمها ـ إلا إلى توثيقها . ولسوف تتبدى قوى هذه الرابطة فيما يلى ، عندما أكشف عن الجراح والآلام التى خلفتها فى قلبى ـ فى أوج تعاستى ـ دون أن تبدر منى شكوى واحدة ، حتى الوقت الذى أكتب فيه هذه السطور !

وعندما يعرف أننى ـ بعد أن فعلت كل شىء ، وبعد أن جابهت كل عناء لأتفادى فراقها ، وبعد أن عشت معها خمسا وعشرين سنة برغم سجية البشر ـ أقدمت فى النهاية على الزواج منها فى شيخوختى ، دون أن يكون لديها أى توقع أو أى رجاء ، ودون أن أرتبط معها بخطوبة أو بوعد .. عندما يعرف هذا ، يسهل على المرء أن يصدق أن الحب الجامح ، الذى عبث برأسى منذ اليوم الأول ، قد قادنى تدريجا إلى آخر حماقاتى .. ولسوف يزداد المرء اقتناعا بهذا ، إذا ما عرف الأسباب الخاصة ، والقوية ، التى كانت خليقة بأن تمنعنى من

أن أقدم على شيء كهذا .. فماذا يظن إذن ، إذا أنا أعلنت ـ بكل ما لا بد أن يكون قد عرفه فى خلقى من صدق ـ أننى منذ اللحظة الأولى التى رأيتها فيها ، حتى يومنا هـذا ، لم أشعر نحوها بأضال قبس من الحب ، وأننى لم أعد أكثر اشتهاء لمضاجعتها ، منى لمضاجعة السيدة دى فاران ، وأن الرغبات الحسية التى كنت اشبعها لديها ، لم تكن ـ فى نظرى ـ سوى استجابة للنوازع الجنسية ، دون أن يكون لها أية علاقة بالفرد؟ .. لقد يعتقد القارىء أننى إذ أوتيت بنية تختلف عن بنيـة سواى من الرجال ، كنت عاجزا عن أن أشـعر بالحب ، لا سيما وانه لم يدخل قط بين المشـاعر التى ربطتنى بتلكما المرأتين اللتين كانتا أعز النساء لدى . ولكن ، صبرا يا قارئى ! .. ان اللحظة المشئومة تقترب ، وستجد أنك مخدوع أكثر مما تخال !

* * *

إننى أكرر حديثى ، وانى لأدرك ذلك ، ولكنه أمر لا بد منه . لقـد كانت أولى ، وأعظم ، وأقوى ، وأعتى حاجاتى جميعا ، تنحصر بأكملها فى فؤادى .. تلك هى الحاجة إلى زمالة أشد ما تكون ألفة وقربى وتوثقا .. ومن أجل هذا الغرض ـ بوجه خاص ـ كنت محتاجا إلى امرأة أكثر منى إلى رجل .. إلى صديقة ، أكثر منى إلى صديق . وكانت هذه الحاجة من التفرد بحيث ان أوثق العـلاقات الجسـدية ما كانت لترضيها .. كنت أتوق إلى روحين فى جسد واحد وقد ظللت ـ بدون ذلك ـ أشعر بالفراغ دائما !

ولقد ظننت أن اللحظة التى لا أعود أشعر فيها بذلك ، قد حانت .. فإن هذه الشابة اللطيفة ، كانت كفيلة ــ بفضل ألف من الصفات الرائعة ، بل وبفضل مظهرها الشخصى الذى كان خلوا من أى افتعال أو إغواء ــ بأن تستوعب كل كيانى فى كيانها ، لو أننى استطعت أن استوعب كيانها فى كيانى ، كما كنت آمل !

ولم يكن لدى ما أخشاه من ناحية الرجال ــ فقد كنت موقنا من أننى الرجل الوحيد الذى أحبته تيريز حبا صادقا ــ وكانت شهواتها من الفتور بدرجة أنها نادرا ما كانت تشعر بحاجة إلى رجال غيرى ، حتى عندما كففت عن أن أكون رجلها فى هذا المجال ! .. ولم تكن لى أسرة ، فى حين أنها كانت ذات أسرة ، ولم تكن هذه الأسرة ــ التى كان أفرادها جميعا من صنف يخالف فى الخلق صنفها ــ بالتى استطيع أن أعتبرها كأسرتى .. وكان هذا أول أسباب شقائى ! .. ما الذى كنت اتردد فى أن أجود به ، لكى أضع نفسى من أمها موضع الابن؟.. لقد حاولت ما وسعتنى الحيلة ، دون أن أوفق إطلاقا ! .. كان من العبث أن أحاول أن أوحد كل مصالحنا ، فقد كان هذا مستحيلا .. إذ كانت الأم لا تنفك تخلق مصالح تختلف عن مصالحى ، ثم تضعها فى وجه هذه ، بل وضد مصالح ابنتها برغم أن الصنفين لم يكونا مختلفين ! .. ولقد أصبحت وأولادها الآخرين وأحفادها ديدانا ظامئة إلى الدماء ، وكان

أبسط ضرر ألحقوه بتيريز ، هو أنهم راحوا يسرقونهـا .
إذ كانت الفتاة المسكينة قد تعودت أن تنصاع ـ حتى لبنات
أخواتها ـ فتركت نفسها نهبا ومطية ، دون أن تنبس ببنت
شفة .. ولقد آلمنى أن أرى أنه لم يكن بوسعى أن أفعل شيئا
لمساعدتها ، برغم أننى كنت أعتصر مواردى ونصائحى فى هذا
السبيل ! .. ولقد حاولت أن أقصيها عن أمها ، ولكنها كانت
تعارض هذا دائما ، فاحترمت معارضتها ، وازددت تقديرا
لها ، بيد أن هذا لم يحل دون أن يكون رفضها ضارا بمصالحها
مصالحى . كانت مطبوعة على الوفاء لأمها وبقية أسرتها ،
ومن ثم فقد كانت ملكا لهم أكثر مما كانت ملكا لى ، بل وأكثر
مما كانت ملكا لنفسها !

((كتابى))

صدر من هذه السلسلة :

١ ـ وجوه الحب السبعه .
٢ ـ الحب الأول .
٣ ـ جريمة حب .
٤ ـ آنا كارنينا .
٥ ـ الحرب والسلام ج ١ .
٦ ـ الحرب والسلام ج ٢ .
٧ ـ الخاطئة .
٨ ـ البؤساء ج ١ .
٩ ـ مدام بوفارى ج ١ .
١٠ ـ مدام بوفارى ج ٢ .
١١ ـ البؤساء ج ٢ .
١٢ ـ الخطيئة الأولى .
١٣ ـ المفتشون .
١٤ ـ الحب هو الكنز .
١٥ ـ فن الحيماء .
١٦ ـ د. زيفاجو ج ١ .
١٧ ـ د. زيفاجو ج ٢ .
١٨ ـ د. زيفاجو ج ٣ .
١٩ ـ د. زيفاجو ج ٤ .
٢٠ ـ البؤساء ج ٣ .
٢١ ـ الحرب والسلام ج ٣ .
٢٢ ـ محاكمة سقراط .
٢٣ ـ الجريمة لا تفيد .
٢٤ ـ نساء ومآسى فى ساحة العدالة .
٢٥ ـ الحرب والسلام ج ٤ .
٢٦ ـ تعلم كيف تسترخى .
٢٧ ـ مركب النقص .
٢٨ ـ غرام سوان ج ١ .
٢٩ ـ غرام سوان ج ٢ .
٣٠ ـ كيف نجحوا فى الحياة .
٣١ ـ كيف تحصل على الثروة .
٣٢ ـ غرام سوان ج ٣ .
٣٣ ـ لماذا أنت عصبى .
٣٤ ـ عش بحكمة تعش سليما .
٣٥ ـ زواج الحب .
٣٦ ـ التحليل النفسى للأحلام .
٣٧ ـ حذار من الشفقة .
٣٨ ـ أمير الانتقام .
٣٩ ـ اعترافات جان رسو ج١ .
٤٠ ـ اعترافات جان رسو ج٢ .
٤١ ـ اعترافات جان رسو ج٣ .

تحت الطبع :

٤٢ ـ اعترافات جان رسو ج٤ .
٤٣ ـ اعترافات جان رسو ج٥ .
٤٤ ـ مرتفعات ويذرنج ج ١ .
٤٥ ـ مرتفعات ويذرنج ج ٢ .
٤٦ ـ مرتفعات ويذرنج ج ٣ .
٤٧ ـ قلوب ضالة .
٤٨ ـ أوديب .

٤٩ ـ عاشقات فى الخريف .
٥٠ ـ أسرار الجاسوسية .
٥١ ـ الابن الضال .
٥٢ ـ أرواح هائمة .
٥٣ ـ الثار للوطن .
٥٤ ـ السبحة ج ١ .
٥٥ ـ السبحة ج ٢ .
٥٦ ـ بئر سبع ج ١ .
٥٧ ـ بئر سبع ج ٢ .
٥٨ ـ جين اير ج ١ .
٥٩ ـ جين اير ج ٢ .
٦٠ ـ جين اير ج ٣ .
٦١ ـ نينو تشيكا ج ١ .
٦٢ ـ نينو تشيكا ج ٢ .
٦٣ ـ ماريا ايفانوفنا .
٦٤ ـ الخالدون .
٦٥ ـ البعث .
٦٦ ـ الالياذة ج ١ .
٦٧ ـ الالياذة ج ٢ .
٦٨ ـ الالياذة ج ٣ .
٦٩ ـ القلعة ج ١ .
٧٠ ـ القلعة ج ٢ .
٧١ ـ القلعة ج ٣ .
٧٢ ـ بوشكين .
٧٣ ـ ذات الرداء الأبيض .

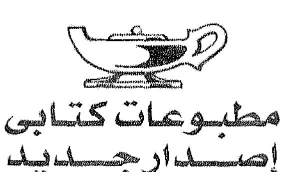
اقرأ فى الجزء الرابع

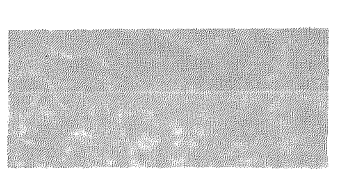
تحليل «روسو» لعلاقاته بتيريز ، وحبه لمدام دوديتو، والمؤامرات التى تعرض لها ، والصراع الذى دار بينه وبين أصدقائه الحاقدين وأعدائه الألداء ، وغضب الحكومات عليه ، وهجره للأدب .

رقم الإيداع : ٤٣٧٩
الترقيم الدولى : ٦ ــ ٠٨٠ ــ ١٦٣ ــ ٩٧٧

المطبعة العربية الحديثة
٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية
تليفون : ٨٢٦٢٨٠ القاهرة









عزيزى القارئ :

إذا أردت أن تعرف قيمة الكنز الأدبى الخالد الذى توافيك به (مطبوعات كتابى) اليوم ، فاليك ما كتبه عنه المفكر المطلع الأستاذ «سلامة موسى» فى عدد ١٩ نوفمبر عام ١٩٥٥ من جريدة (أخبار اليوم) ، إذ قال :

«واعترافات چان چاك روسو من الكتب التى كان يجب أن تترجم إلى لغتنا قبل ١٠٠ أو ١٥٠ سنة ..» .

كما كتب الأديب والشاعر الكبير الأستاذ «عبد الرحمن صدقى» فى مقال بمجلة (الثقافة) بتاريخ ١٤ نوفمبر ١٩٣٩ يقول : «انقضى نيف ومائة وستون سنة على وفاة «روسو» ، وانصرف الأدباء وجمهرة القراء عن مطالعة كتب «روسو» الأخرى ، ولكنهم لم ولن ينصرفوا عن مطالعة (اعترافاته) ، ذلك أن الآراء فى السياسة والاجتماع والتربية والأخلاق يدخلها التغيير والتبديل ، أما نجوى النفس البشرية فهى لا تتغير ولا تتبدل » .

والواقع أن هذه (الاعترافات) التى تقدم (مطبوعات كتابى) إليك اليوم أول ترجمة أمينة «كاملة» لها باللغة العربية ، هى أدق وأصدق مصدر لسيرة المفكر العبقرى «چان چاك روسو» ولقد كان من أهم الميزات التى كتبت الخلود لهذه الاعترافات ، أنها كانت أول عمل أدبى يكشف صاحبه فيه عن نفسه ، فقد سجل «روسو» فى هذا الكتاب أدق أحداث حياته ـ خيرها وشرها ، طيبها وخبيثها ـ دون أن يجفل من مواجهة الحقيقة !

حلمى مراد